سلسلة دراسات المقاومة
(١)

المشروع الإمبراطورى الأمريكى واستراتيجية مقاومته فى المنطقة

د. حامد قويسى

أستاذ العلوم السياسية - جامعة القاهرة
والأستاذ الزائر بجامعة لندن (SOAS)

تقديم

د. عبد الله النفيسى

أستاذ العلوم السياسية - جامعة الكويت
والمفكر الإسلامى

مكتبة الشروق الدولية

المشروع الإمبراطورى الأمريكى
واستراتيچية مقاومته فى المنطقة

ب ٣ ـ المشروع الإمبراطوري الأمريكي/ مصطفى ٢٠٠٩/٣/٣١

الطبعـــة الأولـــى

١٤٣٠ هـ ـ مارس ٢٠٠٩ م

مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسي ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٨ ـ ٢٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٢٥٦٥٩٣٩

المكتبة: ٢ شارع البورصة الجديدة ـ قصر النيل ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٣٩٣٨٠٧١ ـ ٢٣٩١٣٠٧٢

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

سلسلة دراسات المقاومة

(١)

المشروع الإمبراطورى الأمريكى واستراتيچية مقاومته فى المنطقة

د. حامد عبد الماجد قويسى

أستاذ العلوم السياسية

جامعة القاهرة ـ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية

والأستاذ الزائر بجامعة لندن SOAS

تقـــديم

د. عبدالله فهد النفيسى

أستاذ العلوم السياسية ـ جامعة الكويت

والمفكر الإسلامى

مكتبة الشروق الدولية

ب ٣ ـ المشروع الإمبراطوري الأمريكي/ مصطفى ٢٠٠٩/٣/٣١

الفهــرس

الموضـــــوع **الصفحة**

تقـديم

بقلم : د. عبدالله النفيسى

* صـراعنا مع الصـهـاينة فى فلسطين منذ ١٩٣٦ حـتى الآن هو فى (جـوهره) صراع مع الغرب . ذلك لأن الغرب (الأنجلوسكسونى واللاتينى الذى اكتوى من اليهود، حولّهـم إلى (هراوة) يتحكم بها بالعرب ما بين الخليج والمحيط . الغرب هو الذى أقام كـياناً لـلصهـيـونية فى فلسطين ١٩٤٨ وهو الذى قام بالتـحـضيـر السيـاسى والدبلوماسى لتـوليـد ذلك الكيـان القـائم اليـوم فى فلسطين المحـتلة والمسـمّى (إسـرائيل) . والغـرب هـو الذى يوفـر الملاءة الاقـتـصـادية والعـسكرية والدولية لتغطيـة إسرائيل، وهو الذى يمدّ ذلك الكيـان بأغـذية الاسـتمـرار لا بل و«التـفـوق على مـحـيطه الإقليـمى، وهو الـذى يقـدّم لذلك الكيـان منظومـة من الضمانات الحمائية التى أعلاها الڤيتو Veto فى مجلس الأمن، والغرب هو الذى يُحرّض ذلك الكيان لشن حروبه على العرب (١٩٤٨ ـ ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ ـ ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٨ . .)، وهـو الذى يُصـوّر ويُضلّل الرأى العـام العـالمى على أنهـا حروب (دفـاع عـن النفس Slef Jefence) تضطر إليـهـا إسـرائيل من حيـن لآخر . والغرب هو الذى بنى لإسرائيل (مُفـاعـل ديمـونا ـ Dimona) فى صـحـراء النقب الذى سلَّح إسرائيل بأكـثـر مـن مـائتى قنبلة ذرية (أنظر تفـاصـيل ذلك فى كـتـاب سـيـمـور هيـرش Seymour Hersh الموسـوم The Samsun Option أى خـيـار شمشون .

* والغرب فى الجوهر هو الولايات المتحدة (مركز الثقل) فى المجموعة الغربية والتى تشكل (دول المركـز Centre States) فى النظام الدولى والتى تـتوسط بـقيـة

الدول المنتظمة فى دائرة الأطراف (دول الأطراف Periphery States) التى تشملنا نحن العرب.

ومنذ تآكل وذوبان الكتلة الاشتراكية مطالع تسعينيات القرن الفارط وتشرذم الاتحاد السوفييتى إلى ٢٥ جمهورية بدأ نفوذ الولايات المتحدة يتضاعف، ويزداد، وبدأ العالم يشهد ميلاد (القطب الأوحد) فى النظام الدولى الجديد New Worle Order المتمثل بالولايات المتحدة. وصار من العسير فهم أي تطورات من تطور هذا العالم دون ربط مفاعليه بالولايات المتحدة سواء من جهة عسكرية أو سياسية أو ثقافية. من هنا أصبحت دراسة (المشروع الأمريكى) حاجة مهمة لفهم العالم وتطوراته الكبيرة Macro. والمشروع الأمريكى هو مشروع (هيمنة Hegemony وسيطرة Control) وترى النخبة الحاكمة فى الولايات المتحدة أن سقوط الاتحاد السوفييتى ١٩٩٢ يوفّر لها الفرصة المؤاتية لإعادة صياغة النظام الدولى وفق ما تقتضيه المصالح الأمريكية والمشروع الأمريكى.

* ومن أبرز المجموعات السياسية التى ساهمت فى بلورة المشروع الأمريكى هم (المحافظون الجدد Neo. Cons) وهم مجموعة من المفكرين اليهود والصهاينة المسيحيين Christion giomists ومن أبرزهم (ليو شتراوس Leo Straws) الذى يعتبر الأب الفكرى للمحافظين الجُدد وهو يهودي أمريكى من أصل ألمانى وأستاذ فلسفة سياسية فى جامعة شيكاغو الأمريكية، وكذلك «إيرڤنج كريستول Irving) Kristol وهو يهودى أمريكى مؤسس مجلة كومنترى Commentory الناطفة باسم المحافظين الجدد وبول وولفوويتز Paul Wolfowitz نائب وزير الدفاع الأمريكى الأسبق ورئيس البنك الدولى الأسبق يهودى أمريكى يُعتبر (دماغ المحافظين الجدد)، ومن أبرز مهندسى احتلال العراق، وكذلك «ريتشارد بيرل Richard Pearl» مُنظر إحتلال العراق يهودى صهيونى أمريكى متطرف وجون بولتون John Bolton السفير الأمريكى الأسبق فى الأمم المتحدة ومشهود عنه تعصبه لمصالح الكيان الصهيونى واحتقاره للقوانين الدولية، وأهم أفكار المحافظبن الجدد: أمام أمريكا فرصة غير مسبوقة لإعادة صياغة النظام العالمى وفق المصالح

الأمريكية ومفاعيل المشروع الأمريكى ومفهوم الحرب الاستباقية Preuentivewor وتغيير النظام السياسى Regime Chinge وهمينة أمريكا Amircan (أمريكا الخيّرة) على العالم ـ مفهوم الحرب على الإرهاب Warom Terrerوغير ذلك من المفاهيم Concepts العدوانية التى تبرز التوسع والاحتلال والغزو ووضع اليد على حقول النفط فى العالم (كما حدث فى الخليج والجزيرة العربية والعراق). لقد استغل المحافظون الجُدد أيما استغلال المستوى العقلى والفكرى المتواضع للرئيس جورج بوش وتوجهاته الإنجيلية المتطرفة بعد أن كان مُدمن خمر فى حانات تكساس (باعترافه) وتمكنوا من السيطرة عليه، وكذلك السيطرة على أجهزة القرار فى الولايات المتحدة، وبالتخريج السياسى الذى زوّده به المحافظون الجدد أخذ جورج بوش قرار غزو العراق واحتلاله، وكذلك قرار غزو الأفغان واحتلال أراضيه وما زال الأمر قائمًا مما حرّك هناك حركات مقاومة مسلحة نشطة وواعدة (يُسلط د. حامد قويسى الضوء على حركات المقاومة فى العراق والأفغان فى كل من الفصل الرابع والخامس من هذه الدراسة الثمينة).

* وتعتبر عملية ١١سبتمبر ٢٠٠١ فى حى مانهاتن، بنيويورك (نقلة نوعية) فى سياق المشروع الأمريكى إذ ظهر إلى الوجود (قُطب جديد) يعلن و(بطريقته الخاصة) معارضته للمشروع الأمريكى الذى يستهدف الهيمنة على العالم الإسلامى وسلب مقدراته وثرواته ومصيره. لقد زرعت عملية ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الخوف والذعر فى أروقة القرار للمشروع الأمريكى. فالولايات المتحدة ـ بعد ١١ سبتمبر ـ تتحرك دولياّ بدافع هذا الخوف الذى تحوّل إلى ثقافة اليوم فى أمريكا، ثقافة الخوف هذه Fear Factor أصبحت تتحكم بعلاقة الدولة مع المواطن وتتحكم بعلاقة المواطن بالمواطن وبعلاقة الولايات المتحدة بمحيطها الجغرافى. لقد كشفت عملية مانهاتن عدة أمور. **أولاً:** أثبتت أن الولايات المتحدة نفسها وعلى أرضها ومؤسساتها السيادية (البيت الأبيض ـ وزارة الدفاع ـ الكونجرس ـ وغيرها) ليست بمنجاة من الضربات المضنية. **ثانيًا:** أن الولايات المتحدة لا تتمتع بوضع أمنى لا يمكن اختراقه. **ثالثا:** أن نَقْل التوتر Intensity والمجابهة

Conflict من منطقة الأطراف Periphery فى النظام الدولى إلى منطقة المركز Cen-tre أمر ممكن لا بل إن نتائجه إيجابية ومن الممكن استثمارها. **رابعًا:** إن المجتمع الأمريكى (ولعدة أسباب موضوعية ليس هنا المجال المناسب لطرحها) لديه قابلية للتفكك والحالة الاتحادية (الفيدرالية) لم تعد تتمتع بقاعدة اجتماعية متماسكة ولولا توظيف الحكومة الفيدرالية لعامل الخوف Fear Factar الذى أعقب عملية مانهاتن توظيفيًا ذكيًا ويوميًا حال دون الانهيار الداخلى لكان الأمر أعظم. **خامسًا:** أنه من الممكن استدراج الولايات المتحدة لسوح عديدة من الصراعات والمجابهات التى تستنزف طاقتها العسكرية والاقتصادية وإغراقها فى حركة حلزونية من التيه السياسى الذى يصعب قياس النجاح فيه مثل تيه (الحرب على الإرهاب Waromterfor) **سادسا:** لأن الولايات المتحدة مكروهة كراهية شديدة عبر عنها بوش نفسه why they hate us أكثر من مرة فإن عملية ١١ سبتمبر وما تمخضت عنه من إفراط فى استخدام القوة فى العراق والأفغان وجوانتنامو وأبي غريب والفلوجة وغيرها أدى فى النهاية إلى اتجاه الولايات المتحدة إلى العزلة الدولية بالرغم من حضورها الدولى المبنى على القوة التى تفتقد القبول السياسى الطوعى فى العالم. **سابعًا:** أن الولايات المتحدة أضعف بكثير مما نتصور بقول الجنرال أبى زيد أعلى قائد عسكرى يتعامل مع العراق إن الجيش الأمريكى لم يُعَدّ لخوض حروب طويلة كالتى يخوضها فى العراق وإنما أعد لتحقيق النصر بسرعة ودقة لأنه متمرس فى الحروب القصيرة لا تخوض حروب طويلة، ويُعلق بات بوكانان Pat Buchanan (مرشح الرئاسة) بالقول على كلام أبى زيد إذا كان جيشنا على وشك الانكسار فهل فقد قائده عقله عندما يصدر تهديدات بالحرب على إيران؟ وإذا كان جيشنا لم يُعَد لخوض حروب طويلة فهل جُنّ هؤلاء الذين يتحدثون بجموح عن خوض الحرب العالمية الثالثة؟

* بالرغم من الانتعاش العسكرى الظاهر للمشروع الأمريكى إلا أن ثمة علامات ومؤشرات ونُذُر وإرهاصات تؤكد على أن هذا المشروع يواجه ظروفًا وملابسات من الممكن اعتبارها بداية لسلسة من التراجعات المهمة، يؤكد بول

كيندى Poul Keannedy فى كتابه الثمين (صعود وسقوط القوى العظمى The Rise & Fall of great Powers أن الولايات المتحدة ستمر بمرحلة انحسار متواصل ابتداء من ٢٠١٠ وأكد أن هذا التوسع العسكرى الذى تنغمس فيه الولايات المتحدة فى أنحاء متعددة من هذا العالم سيؤدى إلى إضعافها عسكريًا لأنه يؤدى إلى (تشتيت القوة) ومضاعفة تكاليف ذلك اقتصاديًا. صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٨ بلغت مبيعات هذا الكتاب ملايين النسخ داخل الولايات المتحدة وترجم إلى ٣٣ لغة من بينها اللغة العربية، كما نشر جيرمى فرانت Jer-emy Frant فى الفايننشيال تايمز اللندنية FT (٩ سبتمبر ٢٠٠٧) تقريرًا لمسئولين أمريكيين حذروا خلاله من انهيار أمريكا على الطريقة التى حدثت للإمبراطورية الرومانية. كما أكد ديفيد وولكر David Walker مراتب النفقات العامة فى الحكومة الأمريكية Auditor of Dublic Spending ومحقق الكونجرس فى قضايا المال العام أن الأوضاع الحالية فى الولايات المتحدة تشبه إلى حد كبير ما كان عليه الحال فى روما القديمة قبل سقوطها وانهيارها، ومن الجدير بالذكر أن المشروع الأمريكى يقوم على أساس وفلسفة (السوق الحرة) وهو نظام اقتصادى يؤدى حتمًا إلى سوء توزيع للثروة وتفاقم ظاهرة الاحتكار والتمايز الطبقى بين الناس ومن الدلائل على ذلك أن ١٪ من الأثرياء فى الولايات المتحدة يمتلكون ما نسبته ٥٠٪ من مجموع ثروة شعوب الولايات الخمسين كلها فى حين أن ٨٠٪ من السكان لا يملكون إلا أقل من ٨٪ من مجموع الثروة. كذلك يلاحظ أن ديون الدول النامية المدينة للغرب (وخاصة للولايات المتحدة) قفزت من ٦٣ مليار دولار عام ١٩٧٠ إلى ٤٨٠ مليار دولار عام ١٩٨٠ ثم زادت عام ١٩٩٦ إلى ٣٢ ضعفًا حتى وصلت ٢٠٠٠ مليار دولار. كما يلاحظ أنه عندما تلجأ الدول الغنية إلى اسقاط ديونها على الدول الفقيرة لا تفعل ذلك إلا إذا فرضت بعض الشروط الابتزازية عليها وقد ارتفع عدد الدول الفقيرة من ٢٥ دولة عام ١٩٧١ إلى ٤٨ عام ١٩٩٩ ليصل اليوم إلى ٨٦ دولة وأصبح نصف عدد السكان فى العالم البالغ ستة مليارات نسمة يعيش الفرد منهم على أقل من دولار أمريكى فى اليوم. وإنه

من دواعى السخرية المضحكة المبكية التى تمارس تحت شعار (التجارة الحرة) أن مجموع ما يتقاضاه ثلاثون ألف عامل أندونيسى يعملون فى مصانع أحذية (Nike) الأمريكية فى أندونيسيا ١٩٩٧ كان أقل مما تقاضاه لاعب كرة السلة الأمريكى (مايكل جوردان) مقابل ظهوره لبضعة ثوان فى مشهد دعاية تليفزيونية لحذاء (نايك) فى ذلك العام. والقروض الأمريكية والأوروبية التى تمنح للدول الفقيرة تنطوى على شروط خطيرة جدا من الفوائد الربوية تصل إلى ١١ دولاراً مقابل كل دولار تحصل عليه كقرض أو مساعدات وتذكر الإحصاءات أن كل طفل إفريقى يولد اليوم وهو مدين بحوالى ٣٥٠ دولاراً للدول الغربية (وخاصة الولايات المتحدة).

* لأن منطقة الشرق الأوسط هى منطقة انطلاق Launching pal أو إخفاق المشروع الأمريكى فإن أى فشل تواجهه فيها (العراق والأفغان كمثال) لا شك بنبنى عليه سلبيا تلحق المشروع ككل. وبوحى من تباطؤ المشروع الأمريكى فى العراق ومعيقاته اعتبر ريتشارد هاس Richard Haas كبير مخططى وزارة الخارجية الأمريكية الأسبق فى مقال نشره فى الفورين أزيرز Foreign Azairs (٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٦) أن العالم يشهد نهاية المرحلة الأمريكية فى الشرق الأوسط وأن قرار غزو العراق عامل استنزاف اقتصادى وعسكرى للولايات المتحدة يُعجل تراجعها وتراجع مشروعها فى المنطقة. أيضا من العوامل التى تُغذى تراجع المشروع الأمريكى هو المبالغة فى تضخيم خطر ما وصفته بالإرهاب وما تفرع عن هذا التضخيم من سياسات عدوانية خرقاء (مثال عمليات القصف العشوائى لمناطق مدنية وأحياء سكنية فى العراق والأفغان وباكستان) التى لا شك تُفاقم من كراهية هذه الشعوب للولايات المتحدة ومشروعها فى تلك المناطق لا تجعل من هذه المجتمعات بيئة متعاطفة مع المنظمات التى توصمها الولايات المتحدة بـ(الإرهاب) كما تُورط الولايات المتحدة فى احتكاكات سياسية مُعقدة مع الحكومات فى تلك المناطق وهى احتكاكات جدية تتعلق بالسيادة والحدود والأمن وغيره من الاعتبارات المهمة. ومن العوامل المهمة التى ستؤثر حتماً على المشروع

الأمريكى وتدفعه نحو التراجع هو بروز الكتلة الأوروبية والكتلة الآسيوية وتوسع الإسلام السياسى عبر تياراته المتوالدة والمتجددة. فالاتحاد الأوروبى (لأنه دولة أوروبية) والذى تأسس رسميا عام ١٩٩٢ أخذ يكتسب نفوذًا سياسيًا بالتدريج فى عدد من المناطق التى ينشط فيها المشروع الأمريكى مثل الشرق الأوسط. أصبح الاتحاد الأوروبى أكبر مانح للمساعدات التى يتم تقديمها للدول الفقيرة وتفوق مساعداته ضعف المساعدات التى تقدمها الولايات المتحدة، ولدى الاتحاد الأوروبى قوات انتشار خاصة بأوروبا مكونة من ثمانين ألف جندى. كذلك هناك الكتلة الآسيوية المكونة من عدة دول أبرزها مُثلث بريماكوف (وزير خارجية الاتحاد السوفيتى الأسبق) الصين وروسيا والهند (يعتقد يفجينى بريماكوف Yvginey Primakov أنه لو تشكل مثلث استراتيجى متحالف آسيوى من هذه الدول الثلاث لتمكن من عزل مفاعيل المشروع الأمريكى فى كل قارة آسيا). لذلك تشكلت ١٩٩٦ مجموعة شنغهاى التى تضر هذه الدول التى سبق لبول كينيدى أن قال إنها ستشكل قوى موازية لأمريكا قبل ٢٠٤٠ هذه المؤشرات لتراجع المشروع الأمريكى لا شك سوف تتفاعل خلال هذه السنوات القادنة لغير صالحه (يُقدر إجمالى القوات المسلحة لدول منظمة شنغهاى (أبرزها الصين والهند وروسيا) بنحو ستة ملايين مقاتل) فتأمل أثر ذلك على هيبة المشروع الأمريكى فى الشرق عمومًا. ثم هناك القطب الجديد غير المنظور حسب توصيف مايكل وينستون Mickeel Winston وهو مجموعة حركات الإسلام السياسى والجهادى الذى ينتظر أن يتعاظم دوره فى العقدين القادمين والتى تحولت (الحرب على الإرهاب Waromterror) محركًا Catalyst له ومنشطًا.

لا شك أن مبادرة د. حامد قويسى فى التصدى لهذا الموضوع سوف تُثرى المكتبة العربية ونحن ننتظر تفاعل مراكز البحوث فى داخل الوطن العربى وخارجه معه على أمل أن يكون هذا البحث مساعدًا لأصحاب القرار الاستراتيجى العربى والإسلامى وفهم الحقبة التي نحياها الآن.

مقدمة الدراسة

يتناول هذا الكتاب موضوعًا بالغ الأهمية والحساسية؛ تعود أهميته ليس فقط لكونه محددًا لمستقبل الأمة العربية والإسلامية «الوجودى»، والدور الذى يمكن أن تلعبه على المسرح العالمى، لكن دون مبالغة فإن الموضوع يرتبط به مستقبل العالم والبشرية ككل ومن هنا كانت حساسية تناوله، فلم يحدث ـ سوى فى فترات تاريخية عابرة ونادرة ـ أن انفردت قوة دولية أحادية بالهيمنة على العالم والمقدرات الكونية، فالمنطق الإمبراطورى نتاج الإمبراطوريات التوسعية قد تتيحه مقومات مركبة تتوافر ـ فى لحظة تاريخية معينة ـ لكيان سياسى واقتصادى ما؛ فيسعى عبر رسم استراتيچيات كونية إلى تدعيم قوته، وتعميم منطق هيمنته على الجميع ـ بدرجات متفاوتة ـ الأمر الذى يفرض ضرورة «الاستقرار» لأوضاع الهيمنة الإمبراطورية، وأنماط «السلام» و«التعايش» التى تسعى لتحقيقها وفرضها . . .

وغالبًا ما لا يلتفت واضعو الاستراتيجيات الكونية للإمبراطوريات الساعية للسيطرة والهيمنة إلى خطورة إطلاق منطق ممارسة القوة والعنف على الساحة الدولية، ومن ثم افتقاد العدالة والتوازن هذا من جانب، ومن جانب آخر الالتفات إلى التفرقة بين ما تفرضه «قيادة» العالم وما تتطلبه من «مؤهلات» و«منظومة قيم» ورسالة عالمية حقيقية، وما تقتضيه «رئاسة» العالم من توافر مصادر «قوة» و«هيمنة» وسيطرة ونفوذ . .

ومن نافلة القول إن أمتنا العربية والإسلامية فى ميزان السياسات الدولية والاستراتيچيات الكونية، لم تعد طرفًا فاعلاً أو مؤثرًا فى غالب الأحيان ـ رغم امتلاكها لمقدرات ومؤهلات هذا الأمر ـ إنما أضحت «موضوعًا» وساحة يُمارس

فيها «الفعل» الاستعمارى، وللمنطق الإمبراطورى الأمريكى المهيمن حاليًا والذى يُعد؛ ـ بدوره ـ استمرارًا وإعادة «إحياءً» و«تجديدًا» للمنطق الاستعمارى الإمبراطورى القديم «الأوروپى». إنه تكرار لذات «التبرايرات» و«الحجج»، و«الرسالة الحضارية»، ونفس «الفعل» التقسيمى والتجزيئى لمجتمعاتنا وأمتنا. . الفارق أن الأمر الآن يتم بصورة أقسى وأصرح، وأكثر سفورًا وعلانية!!!

إن المشاريع المكونة لمنطق الهيمنة الأمريكى الحالى على الأمة هى إعادة صياغة لذات المشاريع التى عانت منها الأمة إبان هيمنة المشاريع الاستعمارية التقليدية الأوروپية القديمة من بريطانية، وفرنسية. . إلخ؛ ولنبحث فى الجذور التاريخية القريبة أو البعيدة ـ سنجد ذلك ماثلاً وواضحًا للعيان. . والواقع أن لى قوى المقاومة لمنطق الهيمنة الأمريكى على الأمة ـ تدرك بوعى طبيعة هذا المشروع وإمكاناته ومعادلاته الحاكمة، وحدود التجديد فى أدوات وآليات هيمنته وسيطرته، تطور على الجانب المقابل من استراتيچياتها فى مدافعته من موقع الندية الحضارية، ومن أدوات ومسالك وآليات مقاومة مشاريعه المختلفة.

ولعله من باب المصارحة أن نذكر أنه رغم وضوح منطق الهيمنة الإمبراطورى الأمريكى واستراتيچيته الكونية؛ فإن مشاريع مقاومته على امتداد ساحة الأمة ـ مازالت دون القدرة على الاستجابة لتحدياته بكثير ـ بالطبع هناك بدايات ولكنها ضعيفة، ومشتتة، ولا تمتلك رؤية على مستوى وقدر التحديات.

وفى هذا الكتاب نحاول أن نضع بعض الملامح العامة للمشروع الإمبراطورى الأمريكى ولمنطق الهيمنة الذى تفرزه استراتيچيته الكونية فى المنطقة العربية والإسلامية مع الإشارة إلى نماذج خمسة من المشاريع الجزئية المكونة له والمرتبطة ـ مع الإشارة ـ خاصة فى الفصل الثالث ـ إلى الأبعاد والجوانب الثقافية والفكرية فى هذا المشروع الإمبراطورى، ولاعتبارات خاصة بالتكامل الفكرى بين فصول هذا الكتاب قدمنا فى الفصل الثانى الأبعاد الاستراتيچية لمقاومة مشروع الهيمنة الأمريكى على المنطقة وبدهى فإن الرهان فى هذه اللحظة التاريخية ـ على القوى الحية فى الأمة على الأقل فى بعث «روح» التحدى،

و«إرادة» التصدى لهذا المشروع . . وأيًا كان الرأى فى ذلك الأمر ؛ فإن هذا الفصل تم تكريسه لبيان هذه الأبعاد الاستراتيچية قبل أن ننطلق فى الفصلين الأخيرين لبيان دراستى حالة لبدايات مقاومة ومدافعة هذا المشروع ؛ إذ تناولنا فى الفصل الرابع الجذور التاريخية لنشأة تنظيم القاعدة عبر تناول ظاهرة «الأفغان العرب» باعتبارها تجسد البدايات الأولى للاحتكاك العملى بالمشروع الأمريكى وقبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١ ، واستمرت بعده بصورة أو أخرى فى أفغانستان على نحو ما هو مشاهد ، لننتقل بعد ذلك فى الفصل الخامس لتناول بدايات نشأة المقاومة فى العراق للاحتلال الأمريكى . . وبدهى أن العالم العربى والإسلامى يشهد أشكالاً أخرى لمقاومة المشروع الأمريكى مباشرة ـ عبر مقاومة المشروعات الفرعية المكونة لمشروعه الكلى للهيمنة كما أوردناها فى هذه الدراسة ـ أو حتى بشكل غير مباشر عبر أطراف أخرى كما يحدث فى ساحات أخرى ـ كالوضع فى فلسطين ولبنان ، ولنكن واضحين إن الرهان فى مواجهة مشروع هيمنة كونى ومقاومته على «الأمة» ككل ، وليس فقط مجموعات أو جماعات محددة يمكن أن تقوم بدورها فى قيادة المدافعة والمقاومة وتجسيد الإرادة . . وهى عملية متعددة الجوانب الاقتصادية ، والسياسية ، والفكرية ، والاستراتيچية . . . إلخ ، تراكمية النتائج سوف تستمر إلى أمد غير قصير ويتحقق فيها النقلات النوعية فقط عندما نكون مؤهلين لذلك ـ وعلى قدر الأمانة والمسئولية .

والواقع أن المؤلف ـ رغم مسئوليته الكاملة عن كل ما ورد ـ فى هذا الكتاب قد استفاد من النقاشات والحوارات والإضافات التى قدمها العديد من الزملاء الباحثين حول الجوانب والأبعاد المختلفة لهذا الموضوع المهم ، ففى أثناء عمله أستاذًا زائرًا فى جامعة لندن (SOAS) قبل قرابة عقد من الزمان ـ حيث كانت بذور الدراسات المكونة لهذا الكتاب ، تناقش مع الأستاذ خالد الخاطر فى الكثير من جوانبه ، وكانت أطروحته الأكاديمية خير معين لنا فى الفصلين الأول والثالث ، كما تناقشنا فى الجوانب الشرعية والأصولية فى ذات الفصلين مع الدكتور إبراهيم بن عبد الله الأنصارى ـ والذى كان يعد رسالته ـ حينئذ عن التجديد فى أصول الفقه ـ فى جامعة لندن ، ومع الدكتور محمد المصلح الذى

كان يعد رسالته عن «الإصلاح فى فكر الإمام الغزالى» فى جامعة برمنجهام وإليهما ترجع معظم الاجتهادات الشرعية، كما استفاد الباحث فى الفصل الثالث من النقاش مع الباحثة المجتهدة الأستاذة شيرين فهمى بالجامعة الأمريكية بالقاهرة والواعدة فى مجال الاجتهاد السياسى، كما استفدنا من المعلومات القيمة والإضافات التى قدمها الباحث المجتهد الأستاذ أحمد التهامى بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى الفصل الرابع، وفى الفصل الخامس كان للنقاش مع الدكتور محمد عياش الكبيسى أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة قطر، الدور الكبير فى بلورة أفكارنا فيه . .

ومرة أخرى فإن المؤلف وحده هو المسئول عن كل ما ورد فى هذه الدراسة؛ فإن وفقت فالفضل لله وحده أولاً وآخراً، وإن تك الأخرى فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

د. حامد قويسي

جامعة لندن (SOAS)

مارس ٢٠٠٩

الفصـــل الأول

المشروع الإمبراطورى الأمريكى فى المنطقة العربية(*)

- المقدمات الثلاثة :
- مقـدمة أولى: حقيقة المشروع الإمبراطورى الأمريكى وواقعه
- المقدمة الثانية : عملية تجديد واقع الأمة العربية والإسلامية
- المقدمة الثالثة: النقلة النوعية: أحداث سبتمبر ٢٠٠١

(*) نشرت الدراسة الأصلية فى القاهرة مجلة المنار الجديد، العدد (٢٥)، شتاء ٢٠٠٤، ذو القعدة ١٤٢٢هـ ـ يناير ٢٠٠٤، ص ص ١٠ ـ ٣٥، وقد نقلها العديد من المواقع على شبكة الإنترنت.

المقدمات الثلاثة :

نحاول فى هذه الفصل تقديم تصور على قدر من التكامل لمنظومة الهيمنة على المنطقة عبر تأصيل تاريخى واستراتيچى وسياسى ينطلق من محاولة فهم «الفعل الاستعمارى» للمشروع الاستعمارى الغربى بمشروعاته المترابطة والمتكاملة فى المنطقة العربية والإسلامية، ومن واقع مصادره المعرفية والمنهجية الأصلية المختلفة، وعبر امتداداته التاريخية وصولاً للمرحلة الحالية التى تحاول فيها الولايات المتحدة بناء إمبراطوريتها الجديدة، ومن خلال التعامل مع المفاهيم الاستراتيچية نحاول رصد الواقع عبر تحديد الاستجابات المجتمعية المختلفة بصدد هذا المشروع الإمبراطورى وتحديداً من اللحظات الفارقة التى واجهته، كما نناقش الجدل السياسى والشرعى بصدد منهجية «المقاومة» للمشروع الأمريكى بوجه عام والحجج المختلفة المتعلقة بهذا الجدل والردود عليها.

بداية لسنا معنيين بإصدار حكم معين ولكننا نقوم باستعراض ومناقشة بعض الحجج ذات الطابع الشرعى والتى قد لا تتسق مع فقه الواقع التى نؤصل له وتفارقه، وسوف نتناول فى هذا الفصل موضوعنا ونحاول مناقشة فرضياته الأساسية عبر ثلاث مقدمات، وخمسة عناصر أساسية، ففى البداية نمهد بثلاث مقدمات: **الأولى** «حقيقة واقعية» تدور حول فكرة المشروع الإمبراطورى الأمريكى، **والثانية** «حقيقة تاريخية» حول استمرارية الأمة الإسلامية وتجديد الحركة الإسلامية لكيانها. . **والثالثة** «حقيقة نوعية» حول أحداث الحادى عشر

من سبتمبر والاستجابات المختلفة حولها . أما العناصر الخمسة التى تشكل جسد هذا الفصل فهى : ـ **الأول:** يتناول المشاريع المكونة لمشروع الهيمنة الاستعمارى الغربى المتجدد فى الثوب الأمريكى «والتى بدورها فصلناها فى خمسة مشاريع متكاملة»، **والثانى:** اتجاهات العمل الإسلامى ومدى تحديد المواقف من المشروع تأسيسًا على الرؤية الاستراتيجية، **والثالث:** التكييف السياسى والاستراتيجى للهيمنة الأمريكية على الأمة الإسلامية، **والرابع:** مقاومة المشروع الأمريكى فى المنطقة : كتلة المقاومة والتغيير وواقع الأقليةا لمهتمة، والخامس : الجدل حول التأسيس الشرعى حول مشروع المقاومة : الحجة ونقيضها .

وهكذا نستطيع القول بأن الدراسة تحاول أن ترسم الخطوط الأساسية لفهم هذا الموضوع البالغ الاتساع والتعقيد، والذى يتوقف على فهمه مدى النجاح المستقبلى للتعامل مع مختلف الآثار والموضوعات المترتبة عليه والتى تحدد بدرجة كبيرة مستقبل وجودنا الحضارى فى هذه المنطقة، ونتناول ذلك تفصيلا فيما يلى :

* * *

مقدمة أولى : حقيقة وواقع المشروع الإمبراطورى الأمريكى واستراتيجيته:

يمثل المشروع الإمبراطورى الأمريكى فى الوقت الحالى حقيقة واقعية وفعلية يؤكد عليها العديد من المفكرين والمحللين السياسيين الغربيين، إذ يرون أن التوجهات السياسية الأمريكية فى مجال العلاقات الدولية تعبر عن استراتيچية متكاملة الأبعاد تستند إلى رؤية مؤداها أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت بحكم ما تمتلكه من قدرات عسكرية ضخمة، وكذلك بحكم تقدمها التكنولوجى، وإمكانياتها الاقتصادية الجبارة مجرد مثال على ذلك فالولايات المتحدة الأمريكية التى يمثل سكانها ٥٪ من سكان العالم فقط، تستحوذ على أكثر من ٣٠٪ من إجمالى الدخل العالمى، كما يمثل حجم إنفاقها العسكرى حوالى ٥٥٪ من الإنفاق العسكرى العالمى وقد بلغت ميزانيته فى عام ٢٠٠٨ حوالى خمسمائة مليار دولار ومع ذلك فإن هذا الرقم الخضم لا يمثل سوى ٤٪

من إجمالى الناتج القومى الأمريكى، وبعناصر القوة هذا تعتقد الإدارة الأمريكية الحالية أن بلادها أصبحت «سيدة الكون» من حقها أن تملى على شعوبه وقياداته شروطها مهما كانت مجحفة، وتحدد له طريقته فى الحياة بمختلف جوانبها، إضافة إلى جعل كافة تكوينات هذه الشعوب ومؤسساتها الاجتماعية والثقافية، والدينية، والسياسية نابعة من أو على الأقل متوافقة مع المعايير والمقاييس الأمريكية والغربية، باختصار تجعلها لا ترى إلاما تراه الإدارة الأمريكية، إضافة إلى حتمية أن تتحالف معها فى سياساتها بغض النظر عن تأثيراتها السلبية على السلام العالمى.

وتقوم الاستراتيچية الأمريكية على عدد من المنطلقات منها:

(أ) عدم التقيد عمليًا بالقواعد القانونية والشرعية الدولية، والمعايير الأخلاقية والإنسانية السائدة الآن فى المجتمع الدولى مع رفع شعاراتها، واستهلاك خطاباتها الثقافية والفكرية والسياسية.

(ب) حق الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها بإرادتها المنفردة فى استخدام القوة فى ضربات استباقية أو إجهاضية، ضد ما تعتبره إرهابًا سواء تمثل فى دول أو منظمات أو حتى أفراد.

(ج) لعب دور كونى يضع المعايير الدولية للصواب والخطأ ـ أو لمعسكرى الخير والشر ـ وينتج قوائم الإرهاب، ويحدد ضروب التهديد وأنواعه، وطرق استخدام القوة والتهديد بها، وأساليب إقامة العدالة.

(د) والواقع أن الممارسة الأمريكية أو ما هو مشاهد عمليًا أن «إمبراطورية الفوضى» ـ كما يطلق عليها الكثيرون من المفكرين والمحللين الأمريكيين أنفسهم ـ تنشر الفوضى بسلوكها العدوانى والفظ فى النظام الدولى ليس فقط إزاء أعدائها الحقيقيين أو المحتملين، ولكن أيضًا بالنسبة لبعض حلفائها الأوروبيين الذين نلحظ من بعضهم معارضة للسياسات الأمريكية فى بقاع كثيرة من العالم، الأمر الذى يهدد بتفتيت نسيج «النظام الدولى» والقضاء على أية «شراكة سياسية» فى الوقت الذى تحتاج فيه إلى «التدعيم» والواقع أن هذه الاستراتيچية والممارسات

الأمريكية تثير «العداوة» على المستوى الكونى، وتبعث على ظهور أشكال وصور متعددة لمقاومتها مما سيترك الولايات المتحدة الأمريكية فى النهاية تعيش فى عالم أكثر عداء وانقسامًا، هذا بالإضافة إلى ما يتوقعه الكثيرون من أن عوامل التفكك الكامنة فى بنية مفهوم «الإمبراطورية الأمريكية» سيؤدى فى التحليل الأخير إلى جعل مستقبلها محفوفًا بالمخاطر.

* * *

المقدمة الثانية: الحقيقة التاريخية: استمرارية الأمة الإسلامية وتجديد الحركة الإسلامية لكيانها:

فقد عاشت الأمة الإسلامية منذ بناء نواتها الأولى فى المدينة المنورة وحتى سقوط الدولة العثمانية فى ١٩٢٤ لقرابة ثلاثة عشر قرنًا فى ظل كيان سياسى تمارس من خلاله وظيفتها الحضارية معبرة عن هويتها، ومحاولة الاقتراب من تحقيق الخيرية﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠] وبالرغم من أن هذه الأمة فى مسارها الطويل لتحقيق أهدافها تعرضت للكثير من الإخفاقات والنكبات.

ولكن رغم من ما اعتراها من خلافات سياسية ومذهبية مزمنة وانتشار ظواهر اجتماعية مخالفة لتعاليم الإسلام فإن «النظام الإسلامى» لم يتم إلغاؤه أو التخلى عنه أو تهميشه بصورة مقصودة، بل ظل فاعلاً عبر وجود مكونات استمراره المشكلة لمقومات وجود الأمة الإسلامية التى يمكن تركيزها فى ثلاثة هى: ـ

المقوم الأول: ظلت المرجعية العليا للإسلام «القرآن والسنة» والذى تفرع منه الفقه وأصوله كآلية لتحويل ما ورد فيهما إلى واقع عملى عبر ملاءمة الواقع مع تعاليم الإسلام، حيث تناول الفقه الإسلامى قضايا العبادات والعلاقات بين الأفراد مصالح الأمة المختلفة مثل المال العام ومسائل الحكم وقضايا الحرب «الجهاد» فانتظمت بكل ذلك حياة الأمة فى إطار الإسلام، بينما **المقوم الثانى:**

يتمثل فى مبدأ وقيمة «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتى تشكل المحرك التاريخى للأمة ومحور وظيفتها الحضارية ومبرر وجودها حيث حرصت الأمة على تحقيق هذه القيمة فى كافة مناحى الحياة ومجالاتها المختلفة: سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية، وعلى مستويات مختلفة سواء كان ذلك على مستوى الأفراد أم القطاعات الاجتماعية باختلاف أنواعها أو كون هذه القيمة كوظيفة عامة للدولة، ولقد ظل «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» القيمة المحورية ومبرر وجود الأمة ومحركها التاريخى حيث قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقد أشار لذلك صاحب دراسة «مشروع الإسلام» إن هذه النبوءة «الآية» سعى إلى تحقيقها رجال جادون إلى درجة أنهم حاولوا صياغة العالم وفق هذه الرؤية. وأن هذه النبوءة القرآنية لم تتحقق بشكل كامل وبمعناها الكلى حتى الآن، ولكن فى كل عصر تتجدد آمال المسلمين ـ بأن يعيشوا كأفراد وكمجتمعات ـ وفق تعاليم القرآن. وفى كل عصر يعيد المسلمون الأتقياء فرض عقيدتهم فى ظل الظروف الجديدة التى نشأت من تجارب الماضى الفاشلة منها والناجحة، هنا يبرز ـ فى رأيه ـ دور هذه الآية كآلية دفع تاريخية للأمة الإسلامية ومبرر وجودها موجزاً بذلك مسارها التاريخى لتأكيد وجودها والقيام بوظيفتها الحضارية، أما المقوم الثالث: مبدأ وقيمة «الولاء والبراء» الولاء هو المحدد للعلاقات فيما بين المسلمين، ومع غير المسلمين خصوصاً من مرجعيتهم أو موالاتهم على حساب المسلمين، فمبدأ الولاء والبراء هو جزء من العقائد وليس من الاجتهادات، فهو يرسم حدود الأمة ويضمها فى سياج واحد ويميزها عن غيرها، ويحافظ على هويتها، ويجعلها فوق التقسيمات الجغرافية والعرقية والتقسيمات الاقتصادية والطبقات الاجتماعية المختلفة.

فالأمة الإسلامية إذن كانت موجودة وفاعلة بدرجات متفاوتة بقدر ما كانت مكونات الأمة الثلاثة فاعلة، ولكن مسار الأمة تعرض لعملية انقلاب تاريخية بدأت مع سقوط الدولة العثمانية حيث تم بعدها انقلاب على كل مكون من مكونات الأمة، ولكن مثل هذا الانقلاب ـ يعد من أخطر نقاط التحول فى تاريخ

الأمة ـ والذى حدث مع سقوط الدولة العثمانية كان بمثابة إعلان أوروبى عن نهاية «نظام قديم» وبداية مرحلة لاستبداله بـ«نظام جديد» وكما وصفه أحد كبار المؤرخين الأوروبيين[1]، «إن الدول الأوروبية آنذاك كانت تؤمن أنه كان بمقدرتها تغيير آسيا المسلمة فى أساس كيانها السياسى، وفى تلك المحاولة اصطنعوا «نظام الدول ?فى الشرق الأوسط الذى أوجد فى مجموعة من الدول التى لم تتحول كأمم حتى الآن. لقد تم التشكيك فى أساس الحياة السياسية فى المنطقة ـ وهو الدين ـ من قبل روسيا والتى قدمت الشيوعية كبديل، ومن قبل بريطانيا التى قدمت القومية أو الولاء للأسر الحاكمة كبديل. ولكن القضية لا تزال حية بفضل الثورة فى إيران، والإخوان المسلمين فى مصر وسوريا، وأماكن أخرى فى العالم السنى»[2].

إن العالم الذى نشأ منذ هذا الانقلاب الشامل على الأمة ومكونات وجودها هو «عالم استعمارى» بكافة الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية حتى أصبح وكأنه «الواقع» الذى كان دومًا هكذا وسيظل كذلك، لقد ساهمت مجموعة المشاريع الاستعمارية فى وضع الأمة فى حالة «أسر» جماعى من خلال تحديد سقف لا يمكن تتجاوزه ولا يمكن أن تنهض من خلاله أو تتقدم، فالأمة وضعت فى «معمل» كبير يسعى لتذويب هويتها وكيانها من أجل إعادة تشكيلها وفق منطق المشروع الغربى. ولذلك فإن أى عملية تحرر يجب أن تتعرف على معالم هذا المشروع من خلال مصادره الأساسية الغربية، محددة أهدافه تمهيداً للتعامل معه من تصور كلى وتحديد المنطلقات الاستراتيجية لذلك التعامل، الأمر الذى يمكن أن يسهم فى تفكيك معادلة «الأسر» الجماعى التى تعيشها الأمة فى الوقت الراهن.

(1) Andrew J. Bacevich American, Empire: The Realities and consequences of Diplomacy, Harvard University Press; 2002 pp. 23 - 25.

(2) Charles Kupchan The End of the American Era: U. S. Foreign Policy and the Geopolitics of the Twenty first Century, Knopf 2002 pp. 122- 128.

نشأة الحركة الإسلامية كاستجابة للتحدى الدولى الشامل :

نشأت الحركة الإسلامية فى مصر فى بداية القرن العشرين على يد مجدده الإمام الشهيد حسن البنا كاستجابة لهذا التحدى، حيث أعلنت أنها تريد أن تحقق ثلاثة أهداف بعيدة المدى ألا وهى :

١ ـ أن يتحرر الوطن الإسلامى من كل سلطان أجنبى ـ غير إسلامى ـ سياسى أو اقتصادى أو روحى.

٢ ـ أن تقوم فى هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة، تعمل بأحكام الإسلام، وتطبق نظامه الاجتماعى، وتعلن مبادئه القويمة، وتبلغ دعوته الحكيمة للناس.

٣ ـ إعادة الكيان الدولى للأمة الإسلامية، بتحرير أوطانها وإحياء مجدها وتقريب ثقافتها وجمع كلماتها، حتى يؤدى ذلك إلى إعادة الخلافة المفقودة والوحدة المنشودة« النص للبنا.

بالرغم أنها لم تنجح بعد فى تحقيق النقلة النوعية للأمة، وإن نجحت فى تحقيق بعض المكاسب الجزئية قريبة المدى، والسبب الأساسى والمحورى ـ والذى لا ينفى وجود أسباب أخرى ـ فى هذا يعود إلى أن الحركة الإسلامية ـ فى خطها العريض ـ لم تتعامل بشكل مباشر وفعال مع التحدى الخارجى المعيق لأى مشروع نهضوى والذى جعلها ـ أى الأمة ـ فى حالة «أسر جماعى» يتمثل هذا السبب فى الهيمنة الأمريكية المحكمة على مقدرات الأمة ومقوماتها بجميع جوانبها.

فالحركة الإسلامية لا تملك إلى الآن استراتيجية شاملة وواضحة للتصدى لهذا التحدى الوجودى الأساسى، ونحن إزاء بدايات قرن جديد فمازال التحدى ماثلاً ومتجسداً بصورة أكثر عيانية وبروزاً فى ظل وإطار المرحلة الغثائية التى تمر بها أمتنا الإسلامية والتى تتسم أوضاع الأمة فيها كما هو مشاهد بالتفكك والهوان والعجز، وتكالب أعدائها عليها واستهانتهم بها وتمزيقهم لوحدتها واستنزافهم لثرواتها الأمر الذى يضع الأمة والقوى الحية فيها أمام تحدى غير مسبوق،

وتفرض عليها ضرورة خلق وإيجاد استجابات تكافئ مع التحديات المهددة لوجودها.

* * *

المقدمة الثالثة: أحداث الحادى عشر من سبتمبر النوعية والاستجابات المختلفة:

تزيد من أهمية تلك التحولات الدولية التى أفرزتها أحداث الحادى عشر من سبتمبر والتى برهنت على أن الصراع القائم هو صراع نوعى، لم يختلف فى أهدافه عما قبلها ولكنه قرر العودة إلى الوسائل «القديمة» التى مكنته من تأسيس مشروعه الاستعمارى الأول، أى العودة بصورة أكبر إلى المواجهة المادية «القوة» والتى يمثل العنف بصوره المختلفة وسيلة أساسية فيها هدفها القضاء الكلى على كل أشكال المقاومة.

كما جسدت أحداث الحادى عشر من سبتمبر طبيعة العلاقة بين الغرب عمومًا والولايات المتحدة تحديدًا من جهة والأمة الإسلامية من جهة أخرى. وبناء على فهم هذه العلاقة انقسم الموقف الإسلامى العام من هذه الأحداث إلى أربعة اتجاهات: ـ

الاتجاه الأول: يؤيد أعمال الحادى عشر من سبتمبر بصفتها عمليات جهادية مشروعة وتمثل دفاعًا عن الكليات الشرعية الأساسية: الدين، والنفس، والعرض، والمال، والعقل.. إلخ، وهذا ما يمثله تنظيم «القاعدة»، ومن يدور فى فلك نفس التصورات.

الاتجاه الثانى: يرى أن الحوار مع الولايات المتحدة هو الأولى ويرى أن أعمال الحادى عشر من سبتمبر وضرب المصالح الأمريكية هى أعمال غير مشروعة ولكنه يقر حق المقاومة عندما تكون موجهة ضد أهداف الخصم الموجودة على الأراضى الإسلامية.

الاتجاه الثالث: يرى أن المقاومة على أرض الخصم هى عمل غير مشروع وكذلك مقاومة الخصم على الأرض الإسلامية هى مسألة خاصة بتقدير «ولى الأمر» وأن هناك «عقد ذمة».

الاتجاه الرابع: يرى أن الوفاق مع الولايات المتحدة وبالتالى المشروع الغربى هو الطريق الأسلم ومرد ذلك هى وجود قناعة بالليبرالية كأيديولوجيا أو أسباب تقديرية تتعلق بالسلبيات الداخلية للواقع العربى والإسلامى والواقع الدولى ومثل هذا الطرح يتمثل فى التيار الليبرالى وأفراد من التيارات الأخرى.

إن ما تقدمه كل هذه الاتجاهات بما تحويه مقولات لا ينطلق من نظرة استراتيچية متكاملة ـ وإن كان بعضها تستبطن نظريات معينة ولكنها لم تبلور ذلك فى مواقف محددة تعبر عن هذه الاتجاهات بشكل متكامل وصريح إما لجهلها بالإطار الذى تصب فيه هذه المواقف أو لعدم الرغبة فى الإفصاح عن المواقف الحقيقية.

وقد ساهمت هذه الاتجاهات المختلفة فى تشتيت المواقف والطاقات الجامعة للأمة، ولم تستوف المعايير الضرورية لتعزيزها، وتتمثل هذه المعايير فى أمرين:

الأول: وجود تصور على درجة من التكامل للمشروع الغربى والأمريكى تحديداً وأداوته الكبرى فى المنطقة، وهذه مسألة ضرورية لكى يكون تقييم الموقف السياسى والمسار الاستراتيچى والحكم الشرعى نابعًا من سياق متماسك داخليًا أو متفق عليه، فعندما يكون السياق غير متماسك فإنه لا يصلح محدداً لخيار استراتيچى، ناهيك عن كونه صالحًا لبناء حكم شرعى عليه عملا بالقاعدة التى تقرر« الحكم على شىء فرع عن تصوره».

الثانى: «توصيف الواقع» المتعلق بالأمة العربية والإسلامية وفقه موقع المسلمين فى البنية الدولية، والأهداف التى تسعى لتحقيقها الاتجاهات الإسلامية فى هذه المرحلة. وعملية دراسة «فقه الواقع» مسألة لازمة لتوضيح الصورة التى يتم على أساسها إصدار الفتاوى وخصوصًا فى قضايا دولية حاسمة فى مسار الأمة، وقد حاولنا فى دراسة سابقة توضيح منهجية دراسة هذا الواقع، إذ أن

دراسة «فقه الواقع» يجب أن تأتى من قبل متخصصين مستندة إلى مصدرية ومراجع معتمدة علميًا، إذ أن طرح المتخصص يختلف عن الطرح والانطباعات العامة والأحكام غير المتسقة[1]، وسوف نحاول فى هذ الفصل تقديم تصور عن المشروع الاستعمارى الأمريكى ـ وفق اجتهادنا المتواضع ـ فى مكوناته الخمسة الأساسية.

أولا: منظومة الهيمنة القديمة المتجددة: المشروع الإمبراطورى الأمريكى والمشاريع الفرعية المكونة

بداية تتفق منظومة الهيمنة وبالتحديد المشروع الغربى والأمريكى على إقصاء الإسلام من خلال تحويله من نظام شامل إلى طقوس وشعائر دينية كما هو حال المسيحية فى الغرب وذلك من أجل إحكام الهيمنة بالقضاء على مفهوم الأمة وإلحاقها بدائرة الحضارة الغربية «العالم المتمدن والمتحضر»، فـ«المجتمع الدولى» الذى نشأت نواته الأولى فى أوروپا كتحالف بين ملوكها لطرد المسلمين العثمانيين من الأراضى الأوروپية، ومنذ ذلك الحين ظلت المواجهة مستمرة حتى تم إسقاط الدولة العثمانية وترسخت مشاريع الحملات الغربية ومنظومة الهيمنة الأمريكية التى برز فعلها العنيف مؤخرًا فى حرب أفغانستان، واحتلال العراق وما أثارته من ـ بدايات مقاومة سنعرض لها فى بقية فى فى فصول الدراسة ـ وباختصار يمكن أن نرصد خمسة مشاريع أساسية تشكل واقع مشروع الهيمنة الأمريكى الحالى والذى يمثل امتدادًا للمنطق الإمبريالى القديم وذلك على النحو التالى:

المشروع الأول: تفتيت وترسيخ حالة الانقسام الحالية فى جسد الأمة الإسلامية:

يعتبر هو أول تجليات مشروع الهيمنة ويتمثل فى تفتيت الأمة العربية والإسلامية والقضاء على وحدتها عبر تقسيم العالم الإسلامى إلى مجموعة من

(١) سلسلة دراسات عن فقه الواقع السياسى ومنهجية تحليله نشرتها مجلة المجتمع الكويتية، عام ٢٠٠٢ـ٢٠٠٣

«الدول» وترسيخ حالة الانقسام بينها فى صورة محاور متعادية إن لم تكن متقاتلة، وتاريخيّا كان الفعل الاستعمارى الأول هو تقسيم الأمة، فبالرغم من أن العالم العربى والإسلامى تاريخيّا لم يكن موحداً إذ شهد نظمًا سياسية أشبه بالدولة الحديثة، إلا أنها لم تكن بنفس مفهومها القائم الآن، والذى يتمثل فى «دولة» تسعى لأن تكون وحدة قائمة بذاتها لا تربطها سوى المصالح مع الدول الأخرى، كما تسعى إلى تكوين أمة خاصة بها، كما أن هذه النظم السياسية لم تعرف ظاهرة الحدود السياسية التى تمنع الانسياب البشرى فيما بينها، فقد كانت كلها دار الإسلام. والواقع إن تأسيس مفهوم «الدولة الحديثة» كان بحد ذاته عملية تصدير ثقافى من الغرب(١).

لقد كانت النتيجة هى وجود علاقة متوترة جديدة فى المنطقة حيث تنزع الأمة إلى الوحدة بينما ينزع مشروع الدولة الاستعمارية إلى استقلال كل دولة ككيان منفصل، كما تقوم الدولة الاستعمارية بالتعامل مع هذه الدول وفق منطقها الخاص القائم على المصلحة الذاتية، بينما لم تكن النظم السياسية الإسلامية ترى نفسها مستقلة خارج ما أوجدته الأمة من أعراف وتقاليد وقيم إسلامية وكانت تدور فى إطار حضارى بالرغم من تعدد المراكز السياسية.

فمن الأعراف السياسة والقيم التى قامت عليها رابطة الأمة فى علاقتها السياسية «الولاء والبراء» وهو بمثابة سياج يجمع بين النظم السياسية ويتجاوزها، ومن وجهة نظر إسلامية فإنه كما أسلفنا جزء من العقيدة قبل أن يكون قيمة وعرفًا سياسيًا، ولكن منطق الدولة الحديثة لا يعترف به ويحاول تهميشه لصالح مفهوم «سيادة الدولة» و«مصلحتها» حيث تسعى كل دولة لتنمية قواها الذاتية ولو كان ذلك على حساب جارتها أو على حساب مصالح عليا للأمة، إذ أن مبدأ المصلحة الوطنية الذاتية ـ كما نظرت لها المدرسة الواقعية فى العلاقات الدولية ـ لا تقر بوجود قيم مشتركة تنظم العلاقة بين الدول، وهى بالتالى لا تقيم عمليا وزنًا كبيرًا

(1) The Modern" Chris Brown Requrement" Reflections on Normative International Western. Theory in a Post World"| Millennium vol 17 No 2 p. 245.

للقانون الدولى الحديث فضلا أن تقر بالأعراف الدولية للمجتمع الإسلامى، وكل هذه العوامل أوجدت حالة توتر فى المنطقة يمكن فهمها أنها تمثل تعبيراً عن حالة رفض لهذا المشروع الاستعمارى.

ولذلك نجد ثمة صراعًا بين الاتجاه الطامح والساعى نحو الوحدة ـ بتعبيراته المختلفة والتى تنبع من قيم الأمة فى السعى نحو الوحدة بين الأنظمة السياسية أو إيجاد مؤسسات جامعة مثل منظمة المؤتمر الإسلامى أو منظمات أهلية جامعة تعمل فى الحقل الثقافى، أو الخيرى، أو الإعلامى، أو على حد أدنى وجود مشاعر مشتركة تجاه القضايا الإسلامية، وبين الاتجاه نحو تأكيد «الدولة» لاستقلاليتها وتقديم مصالحها الخاصة على المصلحة المشتركة للأمة.

وعلى كل حال يظل عامل الهوية الإسلامية المشتركة يشكل رافداً لأى مشروع وحدوى، ولكن المشكلة تكمن فى عدم وجود مؤسسات وحدوية حقيقية على عكس الاتحاد الأوروپى مثلاً الذى نجح فى بناء مؤسسات مشتركة وتظل العقبة الكبرى أمامها هى بناء هوية أوروپية مشتركة بعد أن تعمقت الهوية القومية لكل دولة.

يلعب عامل التجزئة دوراً كبيراً فى الحفاظ على حالة التخلف التى تعيشها الأمة الإسلامية وديمومتها، ويمثل العمل على الوحدة مدخلا مهمًا فى الخروج من هذه الأزمة الشاملة الأمر الذى يختلف عن منهجية الكثير من الحركات والاتجاهات الفكرية الإسلامية والقومية والوطنية، والتى ركزت جل جهدها على «النظام القائم ورموزه وسياساته» دون الالتفات لطبيعة دولة التجزئة، ودون أن تفرقه بين ما هو موضوعى نابع منها، وما هو راجع للنظام وسياساته من جهة أخرى، فأغلب التجارب التى تم فيها تغيير النظام والإطاحة برموزه وأعلنت سياسات مغايرة وجدت نفسها بعد حين، موضوعيًا ـ عن وعى أو دون وعى ـ بين براثن التجزئة الحديثة بسماتها المتوارثة وبطبيعتها القومية «إسلاميًا» والقطرية «عربيًا» فأدركت من خلال التجربة القاسية ما معنى التجزئة، وما معنى النظام العالمى الذى يستطيع أن يحاصرها، ويشوه سمعتها، ويحرض عليها، ويتحكم

بتجارتها واقتصادها، وإمكان تطورها التكنولوجى، بل يتحكم حتى فى عملتها وخبزها وعلاقاتها بجيرانها ويحصرها فى حدودها كأنها فى سجن كبير، ويعرض وحدتها الداخلية للخطر، وفى ضوء هذه الإشكاليات يجب إدراك التالى: ـ

١ ـ تتجمع الأطراف فى غير مصلحة الإصلاح والتغيير والنهوض خصوصًا حين يكون الهدف ذا طبيعة تحررية أو استقلالية أو وحدوية، أو إسلامية، أو حتى تضامنية على مستوى الدول الإسلامية أو عربية.

٢ ـ تبدأ المعضلات الحقيقية لمن يحمل مشروعًا تكون السلطة فيها وسيلة للإصلاح والنهوض والتغيير والتحرر بعد الوصول إلى السلطة لا قبلها إذ تبرز حينئذ كل الإشكاليات النابعة من حالة دولة التجزئة القطرية ومن حالة السيطرة العالمية الخارجية، وبالتالى ينبغى أن يدرك متخذو الإسلام مرجعية من أهل الاقتداء بالتجربة الإسلامية الأولى ابتداء من عهد الراشدين أن وصولهم إلى السلطة وإقامتهم للدولة فى بلدهم سيجعلهم يطبقون مشروعهم وسط الحصار وليس عبر انفتاح الآفاق أو إمكان فتحها، كما كان الحال فى التجربة الإسلامية الأولى، ومن ثم عليهم بعد أخذ هذا العامل بعين الاعتبار أن يعلموا كيف يواجهون فى هذه المرحلة موازين القوى ومجموعة من الأوضاع الخارجية الواقعية تختلف نوعيا عن موازين القوى والأوضاع المادية والواقعية فى تجربة المسلمين الأوائل، الأمر الذى يتطلب أخذ كل ذلك بعين الاعتبار عند وضع السياسات والتوجهات المناسبة. ففى دولة التجزئة «الإسلامية» مثلاً؛ لا يمكن التحكم بسعر الأغذية أو سعر صرف العملات، أو أسعار السلع التى تستوردها وتصدرها مما يجعل مثلاً التحكم فى الوضع الاقتصادى فى غاية الصعوبة.

٣ ـ يصحب عملية تسلم السلطة على مستوى دولة التجزئة وجود معارضة داخلية قوية سواء من القوى السياسية التى أطاحت بها أو الفئات الاجتماعية المتضررة، أو النخب المعارضة لأسباب أيديولوجية أو حضارية، ومع وجود

دعم إقليمى وعالمى لفئات المعارضة التى ترفض المشروع الإسلامى من ناحية المبدأ فإن المعارضة ستشتد مما يحتم إطلاق العنان للأجهزة الأمنية لملاحقة المؤامرات مما يؤدى إلى الإغراق فى مصادرة الحريات وإهدار حقوق الإنسان مما يباعد بين «الدولة الإسلامية» وبين مشروعها «النموذجى» ويمكن أن تصبح فى حالة تناقض مع مبتغى وأهداف الداعين إليها، وتتحول تدريجيًا لدولة بوليسية.

٤ ـ يبقى احتمالات حدوث تمرد عسكرى أو تدخل خارجى واردًا الأمر الذى يزيد من استنزاف الطاقات والموارد مما سيزيد من الهوة بين الدولة وبين مشروعها، ولا يكفى أن يكون الشعب معاديًا للعدوان الخارجى للنجاة من المأزق خاصة إذا لم تكن آفاق الانتصار غير مضمونة، وتأتى القضايا بشكل غير موات لما نريد.

٥ ـ تساهم التناقضات الإقليمية الموروثة من عهود سابقة فى تكثيف الصراعات لأن ثمة صراعات غير مرتبطة بهوية النظام السياسى، ولكن بسبب التناقضات الجيو ـ سياسية، الأمر الذى قد يدفع إلى عقد تحالفات وتقديم تنازلات غير مبولة.

٦ ـ يجد أصحاب المشروع فى «الدولة الإسلامية» الجديدة أنفسهم أسرى للقطرية بالتدريج، ذلك لأن شرط المحافظة على السلطة فى حالة دولة التجزئة الحديثة وفى ظل موازين القوى الدولية القائمة هو أن يتحولوا إلى قطريين من «الدرجة الأولى» إن كانوا عربًا أو إلى «قوميين» ضيقى الأفق إن كانوا مسلمين غير عرب، الأمر الذى يأكل ثوابت الأمة الواحدة الممسكة بالقضايا الكبرى، وبالتالى فإن أصحاب المشروع لابد من أن يصغروا إلى مستوى حدود دولتهم، وأن تعلوا لديهم المصلحة الضيقة لسلطتهم ودولتهم على المصلحة العليا للأمة.

إن التحدى الاستراتيجى أمام الأمة فى هذا الجانب يكمن فى الانتقال من مشروع نظام الدولة الاستعمارية دولة التجزئة، والقطرية والاقتراب من مفهوم

الوحدة. والذخيرة الاستراتيچية فى هذا الجانب هى إحياء فكرة الأمة، فالمشروع الليبرالى الغربى الاستعمارى استطاع تقسيم العالم العربى والإسلامى إلى دول لكنه لم ينجح فى القضاء على «فكرة» الأمة كوجدان، وكرابطة بين المسلمين عابرة للحدود تتمثل تحديداً بدرجة من الدرجات فى النصرة النابعة من العقيدة «الولاء والبراء»، كحدود تمايز بين الأمة المسلمة عن غيرها. ولقد كان هذا الجانب هو أحد أهم أوجه الأهداف الاستراتيچية من أحداث الحادى عشر من سبتمبر، إن تحديد الانتماءات ورسم الخطوط الفاصلة بين المعسكرات بحيث تجبر كل الأطراف لتحديد انتماءاتها هى مسألة فى غاية الأهمية من ناحية استراتيچية، أما الخصم المتفوق فإنه عندما يكون فى وضع مريح فمن صالحه تمييع الخطوط وخلط الانتماءات والأدوار بحيث يحتوى الأطراف الأضعف بأقل مقاومة ممكنة. ولذلك فإن التفكير الاستراتيچى فيما بعد الحادى عشر من سبتمبر دعا لصياغة «استراتيچية غير مباشرة» لمواجهة تنظيم القاعدة تؤكد على مواجهة «فكرة» الأمة، حيث أكدت دراسة لمواجهة منظمة القاعدة بعنوان «صياغة استراتيجية غير مباشرة فى جنوب شرق آسيا» على المستوى الاستراتيچى فإن الحرب على الإرهاب يجب أن تفهم بأنها حرب سياسية وأيديولوجية من أجل الاستحواذ على قلوب وعقول الدولة العابرة للأمم التى لا تتمتع بحدود أى «الأمة».

وتدعو إلى تمييع الصراع من خلال وضع «استراتيجية غير مباشرة تقوم على موازنة القوة العسكرية مع الإجراءات السياسية والاقتصادية والأيديولوجية من أجل بث رسالة كبرى مفادها أن الغرب هو صديق للإسلام ويريد أن يساعد المسلمين فى الحفاظ على قيمهم الجوهرية فيما يقومون بعملية الانتقال المؤلم إلى الحداثة»[1].

(1) "Forging an Indiercet Strategy in South East Asia, Barry Desker and kumar Ramakrishna the washington Quarterly pp. 126. ?At the strategic level the war against terrorism Must be understood as a political and ideological war for hearts and minds of the borderless translational Muslim state Ummah? Desker and Kumar. p.

وتدعو الدراسة لأن تمارس الولايات المتحدة دوراً من وراء الستار عبر توفير التدريب والدعم الفنى ولكن من غير مواجهة مباشرة مع الجماعات الإسلامية لكى لا تضعف شرعية الحكومات فى جنوب شرق آسيا، وللتذكرة فقط حيث يوجد فى هذه المنطقة أكبر ثقل سكانى متقدم نوعيًا ينتمى إلى هذه الأمة، حيث إندونيسيا، وماليزيا. . وغيرها.

المشروع الثانى: استبدال مرجعية الأمة «الإسلامية»

المشروع الثانى فى منظومة الهيمنة الغربية والأمريكية هو مشروع استئصال مرجعية الأمة داخل كل دولة واستبدالها بمرجعية جديدة خاصة بالدولة القطرية، فالدول التى أفرزها الاستعمار قامت على أساس من المواجهة مع مرجعية الأمة أساسًا، بينما تستقى الدولة فى الغرب مشروعيتها من كونها الإطار الذى تمخضت عنه عملية «التحرر القومى» والتى أفرزتها مجموعة من الثورات، وصحبتها حركة للإبداع والانجاز الفردى والجمعى وتحرير الإرادة وتمخض عن ذلك نمط للدولة احتضن كل ذلك وتوافق معه وسمح للأمة بالتعبير عن كيانها، فكانت النتيجة هى نشأة الدولة القومية على أساس من التكامل بين تطلعات الأمة وإطار الدولة، ومن ثم كانت الدولة فى الغرب بحق هى وسيلة التحرر القومى، إن ما يميز أى أمة عن غيرها هى «ذكرياتها وقيمها ورموز وجودها»، وعملية التحرر القومى هدفها إيجاد الإطار السياسى المناسب والذى يتيح للأمة التعبير عن سماتها المتميزة على أرض الواقع[1] كما هو فى الخبرة الأوروبية، ولعل هذا أكثر ما ينطبق على نشأة الدولة الألمانية والفرنسية، بينما الجزء الأنجلو ساكسون والمتمثل فى بريطانيا والولايات المتحدة قام على اضطهاد واستعمار عرقيات أخرى وإخضاعها ومحاولة تذويبها فى هوية واحدة، ومن هنا يأتى الاعتزاز فى الولايات المتحدة بما يعرف بـ«بوتقة الصهر» أى بقدرة النظام الاجتماعى والسياسى الأمريكى على استيعاب الهويات المختلفة من خلال تذويبها فى هوية جمعية واحدة، ويكمن خطر تفكك الولايات المتحدة فى فشل استمرار هذه الآليات فى العمل عبر هذه البوتقة.

(1) Anderson smith, the ethnic origins of nations (London: Blackwell p. 129).

لقد كان المعيار المقبول لعملية «التحرر القومى» حكراً من ناحية المبدأ على العرقيات التى تميزت عن غيرها بلغتها الخاصة وتاريخها وإنجازاتها ولم يقبل بالدين كمعيار لقياس الأمة، وبما أن الصراع فى أوروبا كان فى مواجهة الكنيسة، فإن المجتمع الدولى استبطن المواجهة مع الدين فى مشروعه التوسعى الاستعمارى/ الاستغلالى، ولذلك نجد أنه عندما دخل «نظام الدولة» فى العالم العربى والإسلامى، فإن الدولة لكى تصطنع شرعيتها الوطنية والقومية قامت بعملية تزييف لـ«وعد التحرر القومى» والذى كان يتمثل حقيقة فى قيم الإسلام وتاريخ الأمة ومرجعيتها، وأقرت الدولة «ألوهية بديلة» بدلاً من المرجعية الإسلامية للأمة. فأصبح للدولة ما يعرف بـ« الدين المدنى»[1] لتعزيز هذه المرجعية البديلة حيث أصبح لكل دولة علمها ونشيدها وأعيادها الخاصة، وشعائر بديلة تتمثل فى بروتوكول خاص لمختلف المناسبات، وكذلك تسعى هذه الدولة لترسيخ ذكريات بديلة خاصة بها تتمثل فى ما أنجزته من تاريخ جاهلى أو انتصارات قبلية، فمصر مثلاً أحيت التراث الفرعونى بل ويذهب البعض لإحياء الهوية والانتماء الفرعونى المدعى، والدول التى لا يوجد بها تاريخ يمكن إحياؤه حقيقة فى المنطقة، لجأت إلى إيجاد شرعية من خلال الترويج لإنجازات مزعومة قامت بها ثورة مجيدة أو قبيلة باسلة لتكون هى البداية لتكوين أمة خاصة كى تستحق دولتها الخاصة بها.

وكانت النتيجة أن ذاكرة الأمة والتى تتمثل ابتداء بنزول الوحى الإلهى وما جرى فى مكة من اضطهاد للمسلمين الأوائل وهجرتهم لتكوين أول دولة إسلامية فى المدينة وما أنجزته الأمة الإسلامية من حضارة إنسانية لم تعد جزءاً من «فكرة» أو «أيديولوچية» الدولة الحديثة، ولكنها أصبحت مادة تدرس فى «التاريخ» أو مقرر فى «الدين» ولا علاقة لها فعلية بالدولة فى سياساتها الخارجية

(1) David Jary & Julia Jery Collins Dictionary of Sociology Harper Collins and ed. p. 76.
يعرف قاموس علم الاجتماع (الدين المدنى) باعتباره معتقدات وطقوس شبه دينية مثل تحية العلم ومسيرة الفرق الموسيقية ومراسم التتويج أو حتى مسابقات الرياضة الدولية والتى يمكن أن تساهم فى تعزيز التضامن الاجتماعى والإنجازات والشرعية السياسية فى مجتمع معين.

حيث حل مفهوم «المصلحة» ومفهوم «سيادة الدولة» موضع المبادئ الإسلامية، وفى السياسة الداخلية لا علاقة لها بالدستور حيث تم اختزال التشريع الإسلامى فى قوانين الأحوال الشخصية، ولا علاقة لها بالمشاريع التنموية حيث تم اختزالهم فهم الإسلام فى الاقتصاد فى مسألة عدم الاقتراض بالربا، الذى تم تركه خياراً للأفراد بدلاً من أن يتحول إلى منظومة اقتصادية تقوم على مبادئ، وأعراف إسلامية تلتمس طريقًا جديداً فى خضم طغيان الفلسفة الرأسمالية، كما قررت مادة «دين» بديلة فى التعليم هى «التربية الوطنية» تسعى لإضفاء طابع التقديس للدولة وإنجازاتها ورموزها، وتتفاوت النظم السياسية فى مدى مراعاتها وإبداء احترامها لبعض جوانب مرجعية الأمة، ولكنها تتفق على عدم السماح بإعلاء وتقديم مرجعية الأمة أو حتى منافسة «الألوهية البديلة» لأن ذلك يعنى نهاية مبرر وجود الدولة ومبرر النظام السياسى المرتبط بها. وهذا يدفع للقول بأن منطق «نظام الدولة» يستبطن مبدأ العلمانية بالرغم من اختلاف أشكال النظم السياسية وطبيعتها.

إن ما يعرف بأزمة الدولة العربية سببه هزال «الشرعية البديلة» التى أرادت الدولة الحديثة تثبيتها على حساب الإسلام مما جعل هناك فراغًا لدى الدولة يتمثل فى البحث عن «مبرر وجود» خاص بها يتمثل فى حمل «فكرة» أو بالأحرى أيديولوجيا داعمة مقنعة للناس تضمن تعاونهم الكامل بناء على قناعة حقيقية، وبما أن دولة التجزئة والاستعمار لم تحمل فى نشأتها فلسفة معينة وحاولت طرد الدين كمنطق أساسى لها إلا أنها لم تفلح إلا نادراً فى ذلك لأنها لم تستطع عزل نفسها عن المجتمع بشكل كامل ولذا فإنها استصحبت عناصر من تأثيرات الأمة كجزء من «منطق الدولة» مما جعلها فى حالة صراع بين متطلبات الأمة، والتى تمثلها قوى المجتمع وبين منطق الدولة مما خلق حالة من الازدواجية تعيشها الدولة على المستوى الداخلى، وكذلك فى سياساتها الخارجية.

وبالتالى فإن مشروع «علمنة» الدولة لم يفرز «ديمقراطية» و«حريات مدنية» كما كان مفترضًا، وذلك بسبب طبيعة الإسلام ذاته التى تأبى التجزئة ومقاومة

المجتمع العنيدة للفلسفة العلمانية، وبدلاً من أن يحدث ذلك، هناك تمييز، أو إعادة رسم لحدود متفق عليه بين الدين والدولة، وبالتالى ففى المحصلة النهائية تحول المشروع الليبرالى العلمانى إلى مشروع استبدادى بدرجات متفاوتة هدفه هو السيطرة على الإسلام وعزله، وهنا يكمن الاختلاف الرئيسى بين مشروع العلمانية فى العالم الإسلامى ونشأته فى الغرب[1].

ولذلك فإنه قد أصبح من الوظائف الرئيسية للنظم السياسية العربية والإسلامية فى الوقت الحالى تحديد وضبط المساحات التى يسمح فيها للأمة أن تعبر عن نفسها وعن طريقتها فى الحياة بحيث لا تتجاوز الحفاظ على الشعائر التعبدية والترخيص لبعض المؤسسات الإسلامية التى تمارس أعمال أهلية وخيرية وكذلك الأنشطة الثقافية، وفى أقصى الأحوال قد تفوز بعض الاتجاهات الإسلامية فى بعض النقابات والمنظمات المحلية ولكنها على كل الأحوال لن يسمح لها بتهديد شرعية وجود الدولة الحديثة وأساطيرها التأسيسية ولن يسمح لها أن تحوز على نفوذ حقيقى ومستقل عن الدولة.

إن التحدى المطروح فى هذا الجانب هو إعلاء المرجعية الإسلامية كمنطق عام للدولة، وبالرغم من أن النجاح ممكن فى هذا الجانب داخل كل دولة مثل تجربة إيران والسودان ـ بغض النظر من أية ملاحظات ـ فإن النجاح يظل أسيراً للنظام الدولى والذى يسعى لمحاصرته وإسقاطه أو على تذويبه، وتواضع النجاح التى حدث فى هذا الجانب يرجع جانب مهم منه إلى دعم القوى الخارجية، وإفشال أية محاولات كما حدث فى تونس والجزائر وترجيح الكفة لصالح القوى المناوئة للاتجاهات الإسلامية، ولذلك فإن سقف النجاح الممكن فى الاعتماد على النهج الذى يقتصر تعامله داخل إطار الدولة فالمشكلة فى العمل على «حيازة الدولة» يتمثل فى كيفية الوصول إلى ذلك حيث إن الطرق السلمية مغلقة

(1) Bill and leiden assert: ?the three principal requirements for successful state formation are a idea" or ideology. ?state and, Political oganisations international support". James Politics in, Bill and Carl Leiden the middle east New York: Harper Collins p. 318.

وتصبح الانقلابات والثورات هى السبيل الوحيد وتظل النتائج أيضًا غير مضمونة كما حدث فى الجزائر من صراع مسلح مستديم نشأ بعد تعطيل مسار الانتخابات، وحتى لو تحقق نجاح كالوصول إلى السلطة فإن حصار النظام الدولى المناوئ الذى يلجأ إلى التضييق الاقتصادى والتشويه الإعلامى، ودعم المعارضة الداخلية، وإحياء المشاكل مع دول الجوار فى حين ترتفع التوقعات من نظام سياسى رفع شعارات إسلامية وقدم وعودًا بمستقبل تسوده العدالة الاجتماعية والأمن والرفاهية. .

وهكذا باختصار يمثل الصراع على «المرجعية» محورًا جوهريًا داخل الدولة، وتترواح دولة المنطقة بين دولة أقلية تقول أن مرجعيتها إسلامية مثل السعودية وإيران والسودان ودول أقصت عمليًا ـ كنظم سياسية ـ كل ما له علاقة بالإطار الإسلامى تونس على سبيل المثال وليس الحصر بحيث أصبحت تمنع حتى التعبير الفردى الرمزى عن الهوية الإسلامية مثل ارتداء الحجاب، ولعل النماذج «الأمثل» بالنسبة للمشروع الغربى كانت تمثله تركيا الكمالية والتى نشأت على أنقاض ونقيض الدولة العثمانية، لكن نموذج تركيا الحالى جدير بالدراسة لأنه قد يمثل المسار الأمثل بالنسبة للمجتمع الدولى ولبقية المنطقة «إذا أرادت مجتمعات الشرق الأوسط استعادة الجوانب الأفضل من تراثهم الإسلامى بدون محاولة التخلص من كل تأثيرات الغرب فإنه من الوارد أن تقدم تركيا معالم للاسترشاد بها لمثل هذه التوليفة الثقافية التى باتت تبدو الآن ضرورية»[1].

ولذلك نجد هذه المقولة تتكرر حتى أن معظم الدراسات الاستراتيچية فيما بعد الحادى عشر من سبتمبر تؤكد ذلك «إن أنجح محاولة لتحويل دولة مسلمة إلى دولة قومية كانت تلك التى قام بها كمال أتاتورك فى تركيا فى العشرينيات

(1) Katerina Dalacoura, Turkey and the Middle East in the 1980s, Millennium Vol 19. No 2.

والثلاثينيات»[1]. . ولذلك فإن جزءاً من محاولة إعادة صياغة المنطقة هو التأكيد على هذا النموذج كنموذج للاقتداء به والدفع تجاهه فى المنطقة كاستراتيچية محورية، وتلك هى الحقيقة التى أكدها نائب وزير الدفاع الأمريكى ولفويتز «نحن فى حرب للاستحواذ على قلوب وعقول الناس فى العالم الإسلامى، وأعتقد أن بلداً مثل تركيا والتى غالبيتها الساحقة مسلمون، ولكنها علمانية وديمقراطية، فذلك رمز فى غاية الأهمية لما يعارضها الإرهابيون. إن نجاح تركيا يمكن أن يصبح رمزاً فى غاية الأهمية لبليون مسلم مفاده أنه ليس من الضرورة أن تسلكوا طريق الإرهابيين، والذى فى الواقع سيجلب لكم الموت والدمار بينما اتخاذ طريق الديمقراطية والتجارة الحرة والحرية يمكن أن يجلب لكم نجاحًا حقيقيًا. ولذلك فإن نجاح تركيا له أهمية استراتيچية، كنت دائما أؤمن بالأهمية الاستراتيچية لهذا الأمر منذ مدة طويلة ولكن أحداث الحادى عشر من سبتمبر أبرزت هذه الأهمية[2].

إن مفهوم الإرهاب الذى يطرحه نائب وزير الدفاع الأمريكى يتجاوز المتعارف عليه بصدد تعريف الإرهاب باعتباره «وسيلة« تستخدم العنف لضرب الأبرياء بصورة عشوائية، فالجدل حول مفهوم الإرهاب يكمن فى الإجابة على السؤال متى يصبح استخدام العنف إرهابًا؟ أما الأبعاد الثقافية والدينية فهى جزء من منظومة وكيان حضارى يدافع عن نفسه بوسائل تتراوح ما بين التربية والتعليم والإعلام والنضال السياسى والعمل الجماهيرى، أما المجموعات التى قد تستخدم العنف للدفاع فهى التى يجب أن ينحصر فيها الجدل حول الإرهاب، ولكن تحوير وتزييف مفهوم الإرهاب بحيث يشمل كل المنظومة الحضارية

(1) Alan taylor for Example presents Turkey as a model to be Pursuit ?If the Societies of the Middle East need to recover the etter aspects of their own Islamic heritage without attempting to eliminate all traces of western influence turkey conceivably could proviede helphul guidelines for :the kind of cultural synthesis that now seems necessary, see Alan taylor the Islamic Question in the Middle East (Boulder: Westview Press p. 92.

(2) James Kurth The war and The West, Orbis spring p. 327.

الإسـلامـيـة بكافـة وسـائلهـا فـمعنى ذلك أن المراد هو «خنق» وتكيـيف الـهـوية الحضارية بحيث تصبح متوائمة مع المنظومة العلمانية، والتى هى بذاتها ليست بريئة من العنف بل تمارسه بشراسة على ما هو مشاهد، إن ما يقوله نائب وزير الدفاع وما تؤكده الدراسات الأكاديمية فى هذاالسياق أن ما هو مراد هو اختيار نمط حياة معين بين الليبرالية العلمانية وبين طريق آخر هو الإسلام كنمط للحياة وهو ما تسميه الإدارة الأمريكية بالإرهاب، إن ما يريده المجتمع الدولى هو أن يتم إعلاء المرجعية العلمانية فى شؤون الحكم والحياة العامة وأن يظل الإسلام مسألة اعتقاد شخصية تصاحبها بعض الشعائر التعبدية وبعض التعبيرات غير المخلة بالقيم العلمانية الحاكمة أو التأسيسية، لقد أدركت القيادات العسكرية الحاكمة هذا الأمر مبكرًا، حيث إن ما يعرف بـ« الحرب على الإرهاب» المقصود به هو الحرب على منظومة حضارية وليس على جماعة معينة تستخدم العنف كما قال رئيس الأركان البريطانى «ربما علينا أن نفكر فى الصراع الراهن كصراع أيديولوجى كما كان حربنا ضد الشيوعية والتى استمرت خمسين عامًا»[(1)].

ويؤكد هذا النهج توسيع الولايات المتحدة لدائرة المواجهة لتشمل كافة أشكال تعزيز الهوية المستقلة من قبيل «تنقيح المناهج الإسلامية واللغة العربية». و«تجديد الخطاب الدينى»، ومحاصرة المؤسسات الخيرية والثقافية والتضييق على الأحزاب والجماعات الإسلامية عامة سواء وسمت بالاعتدال، أو وصمت بالتطرف والغلو والإرهاب.

المشروع الثالث: ترسيخ أنظمة الاستبداد والطغيان فى المنطقة الإسلامية

يعتبر «ترسيخ الاستبداد» ـ المشروع الاستعمارى الثالث ـ النابع من مشروع الهيمنة الأمريكى المتكامل، يذكرنا نموذج أفغانستان «قرضاى» كرئيس معين من قبل أمريكا متمتعًا بشرعية انتخابية إجرائية من مجلس القبائل الأفغانى بذات الطريقة التى تم بها إعادة ترتيب أوضاع المنطقة بعد سقوط الدولة العثمانية عندما

(1) interview with M2 Press Wire NTV news anchor Mithat Bereket.

تدخلت القوى الكبرى وبدأت العملية عبر دعم وتأسيس نظم استبدادية وقبلية ـ كجزء من عملية إيجاد الدولة ذاتها ـ تحددت مهمتها فى جانبين أولاً : ـ المحافظة على الوضع المفتت والناشئ الجديد باسم مفهوم «الاستقرار» وثانيًا : ـ تمرير المشروع التغريبى الليبرالى داخل المجتمعات الإسلامية وتوسعة نطاق عملية التغريب تدريجيًا «إن كافة النظم الملكية فى الشرق الأوسط تلقت دعمها من الغرب واستمر وجودها بفضله، وتلك التى سقطت لم تكن لتستمر حتى سقوطها لولا دعم الغرب لها، وكان سبب سقوطها هو فشل الغرب فى دعمها فى الوقت المناسب». وأصبحت الدعوة لفرض ودعم ملكيات ليبرالية «تغريبية» دعوة رائجة فى الغرب حيث إنها تجلب «الاستقرار» أيضًا[1].

إن التحدى الاستراتيچى فى هذا الجانب يكمن فى تحرير المجتمع من الاستبداد والذى يمكن وصفه بصورة أدق أنه استبداد ليبرالى، يجمع بين الاستبداد السياسى وأيضًا يسعى فى الوقت نفسه إلى تحويل هوية المجتمع، فهو بذلك يمثل المعوق الداخلى الرئيسى أمام الممارسة الكاملة لمبدأ وقيمة «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» التى تمثل قاعدة تترجم الحرية فى أوسع مداها وأنبل غاياتها، ولعل أولى المقولات التى تبرر الاستبداد تلك المرتبطة بضرورة طاعة «أولى الأمر» واعتبار ما يبرمونه من تصرفات صحيحًا انطلاقًا من القياس الخاطئ الذى وضع الحكام الحاليين فى نفس مرتبة الحكام فيما قبل الحقبة الاستعمارية، إن مفهوم «ولى الأمر» كما نشأ فى الفقه الإسلامى وحتى سقوط الدولة العثمانية يختلف اختلافًا جذريًا عنه فى الوقت الحالى، فالحاكم الإسلامى قبل أن ترسخ منظومة الهيمنة والمشروع الاستعمارى كان يدين بالمنظومة الإسلامية، فلم يكن الحاكم يجرؤ أن يشكك فى مرجعية الأمة أو أن «يبعضها» فى الدساتير بأن يجعلها أحد مصادر التشريع أو أن يتجرأ على إلغائها فى الواقع العملى، وكذلك

(1) Micharl Herb All in the Family: Absolutism Revolution and Demorcratic prospects in the Midldle Eastern Monarchies Ny, Press. 1989.

مايكل هيرب فى كتابه (الاستبداد والثورة والآفاق الديمقراطية فى ملكيات الشرق الأوسط) إلى أن الملكيات التى تحقق الليبرالية هى الأنسب للشرق الأوسط .Liberalizing Monarchies

الأمر لا تنطبق النصوص الشرعية المتعلقة «بولاية المتغلب» وشروطها فى الوضع الراهن لأن عملية التغلب كانت أيضًا تتم فى إطار منظومة أكبر تمثلها وجود مكونات الأمة « الإقرار بمرجعية الأمة والإعلاء من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والولاء والبراء» ، والاختلاف الجوهرى بين ما يطلق عليه فى الوقت الراهن «ولى الأمر» و«الولى الآمر» الذى يستخدم فى النصوص هى علاقة ولى الأمر بالمستعمر الخارجى ، فعامل نشأة وبقاء ما يسمى «ولى الأمر» فى الوقت الراهن هى علاقته الوثيقة بالمستعمر الخارجى وبالتالى ثمة إلغاء عملى لعقيدة الولاء والبراء والتى تمثل أحد مكونات الأمة ومقوماتها ، فقد شهدنا مؤخرًا قيام الولايات المتحدة بتعيين «قرضاى» فى أفغانستان كـ« ولى أمر» للمسلمين فى أفغانستان ، دون الحديث عن آخرين نصبوا من قبل فى العالم العربى والإسلامى والواضح أن نفس المنطق يمكن أن يستمر مستقبلا مع آخرين فى أقطار عربية وإسلامية بصورة واضحة أو خفية . . فهل تنطبق عليهم النصوص ويستخدم القياس الفاسد مستندًا ـ وهل يقع «قرضاى» فى حكم ولاية المتغلب ـ لقد كان تنصيب الكثير من الحكام فى عالم المسلمين وولاة الأمر أو تثبيت بقائهم هو بسبب العامل الخارجى والأمريكى تحديدًا ، فمن غير المنطقى ألا يتم إضفاء الصبغة الشرعية على قرضاى بينما تضفى على القيادات السياسية التى نشأت فى حضن الاستعمار سواء تقليديًا قديما أو جديدًا معاصرًا والواقع أن «ولى الأمر» هو امتداد للمشروع الغربى الاستعمارى ومنظومة الهيمنة الأمريكية ، وتطبيق نصوص «ولى الأمر» التى وردت تاريخيًا فى كتب الفقه عندما كان هناك شىء يسمى نظامًا إسلاميًا ، يدين بمكوناته «ولى الأمر» أمر يجب مراجعته ، إذ انتهى ذلك الأمر واقعيا بعد الانقلاب الشامل على الأمة وإدخالها المشروع الغربى وترسيخ منظومة الهيمنة الأمريكية ، كما أسلفنا .

المشروع الرابع : التحديث والتغريب المجتمعى

أما الفعل الاستعمارى الرابع فهو التغريب الذى يسعى إلى خلخلة المجتمع داخليًا ، بوسائل مختلفة من أجل القضاء على ما تبقى للأمة من نظم وقيم

اجتماعية، ويكتسب هذ المشروع قوته بسبب القوة الترويجية والدعائية له من خلال الكثير من الآليات والوسائل ومنها المنظمات الدولية، والتأصيل النظرى الذى يقدم لها انطلاقًا من «فلسفة حقوق الإنسان» أحيانًا والذى يمثل امتدادًا للعقلية الاستعمارية الغربية، فالمهاجرون الأوروپيون إلى ما أصبحت تعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية تعاملوا مع السكان الأصليين فى القارة الأمريكية عبر أسلوبين: الأول هو العنف، والتنكيل والتقتيل، والثانى هو «التهذيب» و«التطويع» من خلال إعادة صياغة هوية السكان الأصليين لتتقبل المفاهيم والقيم التى أتى بها المهاجر الأوروپى من غير مقاومة «إن المدارس الغربية والتبشيرية كانت من أهم الوسائل التى ساهمت فى إعادة صياغة هوية السكان الأصليين بصورة جماعية عبر الأجيال، وتعتبر مشاريع حقوق الإنسان، والبرامج الاجتماعية المتعلقة بها، والتى تروجها المؤسسات الدولية والأمم المتحدة فى الوقت الراهن تحت مسمى العالمية امتداد لنفس عملية «التهذيب» وجزء من مشروع استعمارى على حد وصف أحد أساتذة العلاقات الدولية إذ هى تسعى إلى خلق مجتمع مدنى عالمى يحمل «القيم الليبرالية»، والواقع ـ وفقًا له أيضًا «إن نجاح هذا المشروع التغريبى لا يزال يواجه صعوبات بسبب المقاومة الثقافية التى تبديها بعض الشعوب»، ويرى أن «مفهوم العالمية» فى هذا المشروع يحمل فى طياته شرطًا كتب بـ« البنط الصغير» ـ أى شرطًا ضمنيًا وغير معلن ـ مفاده أن من يسمح له بالدخول فى دائرة «العالمية» هو من استوفى المعايير الليبرالية والمتمثلة فى الفصل بين المجال الاجتماعى العام فى المجتمع وبين المجال الخاص، والمقصود بـ«العام» هى أن توجد قناعة فكرية وممارسة عملية بأن عموم المجتمع يجب أن يحترم الرغبات الفردية، ولا يجب أن يخضع لنمط أو اتجاه أو تفسير معين عما هو «صحيح» أو «خطأ» أو «عيب»، و«مقبول» بل يجب أن تفسح الممارسة العامة فى المجتمع لكل أنواع الممارسات الاجتماعية والتى تعبر عن هوية الفرد بغض النظر عن أى نوع من أنواع النظرة الأخلاقية المسبقة عن شكل معين للمجتمع، أما «المجال الخاص»، فيقصد به المساحة الاجتماعية الخاصة بالفرد وممارسته الخاصة فى بيته وفى خاصة نفسه فهذه هى المساحة الوحيدة التى يمكن أن يتمتع

بها الفرد فهو حر من تدخل المجتمع فى خصوصياته وممارساته. «إن ترسيخ القناعة فى الفصل بين »المجال الخاص» و«المجال العام» هى ضمانة نجاح عملية التغريب». . إن الأمل فى تحقيق ذلك هم «الأطفال» القادمون وإيجاد آليات تضمن أن تربيتهم فى المجتمعات غير الغربية تربية تتغذى بالمفاهيم الغربية والقيم الليبرالية الأمريكية بحيث يصبح هؤلاء الأطفال هم دعامات المستقبل التى تسمح بتحميل ـ بلغة الحاسوب ـ أى «تطبيق» المشروع الليبرالى من غير مقاومة مما يجلعها تبدو للأجيال التى بعدها كأنها عملية طبعية، وذلك بعد أن يتم إعادة صياغة البيئة الاجتماعية بمختلف مكوناتها، وهذا هو ما حدث للسكان الأصليين فى أمريكا. . . والواقع أن انتشار المدارس الأجنبية الخاصة والجامعات الأجنبية فى الدول العربية والتهافت عليها والترويج لها حتى من قبل بعض الاتجاهات الإسلامية باسم التنمية، وتطوير التعليم تساهم بشكل كبير فى إنجاح المشروع والتى بدت آثاره تخرج إلى العلن بشكل سريع. كما أن الدعوة لإصلاح التعليم من الدوائر الغربية وتنقيح مناهج التربية الإسلامية بعد الحادى عشر من سبتمبر هو استمرار لنفس الأجندة ولكن تحت مبررات أكثر وضوحًا مثل مكافحة الإرهاب وتجفيف منابعه، إن «المعادلة الكمالية» كنموذج مازالت هى التى تضبط المساحة التى تمارس فيها عملية التغريب والعلمنة وهى تلك التى يعمل على ترسيخها المجتمع الدولى الحالى، ولعل قراءة فى برامج الأمم المتحدة المعنية بالمرأة والطفل خير مثال على المدى التى وصل إليه المشروع التغريبى، فبرامج الأمم المتحدة تستصحب معها آليات الدولة من خلال برامج التعاون المشتركة فى تنفيذ استراتيچياتها التى تكون معدة سلفًا وتقدم للدول التى تقوم بإجراء تعديلات شكلية عليها. ولقد كان ذلك ملموسًا فى التمهيد لعملية «تحرير» أفغانستان التى وضعت موضوع «المرأة» فى قمة الأولويات، وذلك هو كجزء من آلية دولية لعملية إعادة صياغة المجتمع.

فالنظرة القاصرة إلى عمليات التغريب كجزء من تطور مجتمعى داخلى قضية يجب مراجعتها، إذ هى عمليات يشترك فيها النظام السياسى الداخلى والنخب السياسية والثقافية والعسكرية والأمنية والبيروقراطية المتحالفة معها من ناحية،

ومن ناحية أخرى المشروع الأمريكى المعلن مباشرة، وأحيانًا مستصحبًا الآليات الدولية مثل الأمم المتحدة والمنظمات الأهلية الدولية الأخرى والتى تصب فى نفس المشروع مثل المرأة والطفل والمنظمات التنموية التى تريد إعادة صياغة بيئة العمل وإفساح مجالات جديدة ومحددة، وكذلك المؤسسات الثقافية والفنية التى تساهم أيضًا فى ترويج عمليات التغريب بوسائلها الخاصة.

إن التعامل مع مشروع التغريب عبر تقديم البدائل الإسلامية وتعزيز مقاومة المجتمع هى عمليات مطلوبة ولكن آثارها تظل محدودة بشكل عام على المدى الطويل، وذلك بسبب رجحان كفة آليات التغريب بسبب الدعم السياسى التى تحصل عليه وقوة الدفع الدولية أوالموارد الضخمة التى تسخر فى سبيل ذلك فبينما البديل الإسلامى ينمو ببطء ينمو البديل التغريبى الليبرالى بشكل متسارع وأكثر جاذبية، ومثال بسيط على ذلك هو التطور السريع والرواج الهائل الذى يلقاه ما أصبح يعرف بـ«الفيديو كليب» أو الانتشار الكبير للجامعات الأمريكية مقابل تراجع الجامعات العربية أو الإسلامية فى المنطقة العربية والإسلامية.

إن عملية إعادة صياغة المجتمع المتسارعة من خلال التعليم والإعلام والثقافة هى بمثابة تفريغ الأوكسجين من القيم الإسلامية بحيث تجد صعوبة متصاعدة فى التنفس ومنافذ استنشاق لها، كما أن بروز ظواهر جديدة تجعل مواجهة كل ذلك مسألة مستهلكة على جبهات متعددة فى جانب واحد، وهو التغريب، بينما المشكلة هى أكبر من كل ظاهرة على حدة.

ولكى ندرك كيفية حدوث ذلك تاريخيًا وكيف أن المظاهر المعاصرة هى إفراز لتهميش الأمة «مسار تاريخى» مستمر يجب علينا أن نحلل الدور التاريخى لمن كانوا يقفون فى قلب قضية حمل هوية الأمة ومشروعها والدفاع عنها وعلى رأس هؤلاء العلماء، لقد قاد العلماء فى العصر الحديث العديد من حركات مقاومة الاستعمار العسكرى فى ليبيا ومصر والجزائر والعراق وإيران ودول عديدة أخرى فى إفريقيا وشرق آسيا وآسيا الوسطى، بل إن «علماء الأمة» ـ خلافًا لـ«علماء السلطة» ـ هم الذين مثلوا الخط التاريخى للدفاع عن مصالح الأمة حتى فى ظل

النظام الإسلامى عندما كان يتجاوزه حدوده، إذ إنهم قاموا بدور تاريخى محدد ومتميز كما يرى أحد أشهر علماء دراسات الشرق الأوسط . . «إن العلماء هم الذين صاغوا «التفاهم التاريخى» فى القرن الحادى عشر بين السلطة السياسية والمجتمع وعندما كان العلماء هم الوسيط بين المجتمع والدولة، وشمل التفاهم إطلاق يد الحاكم فى شؤون الحكم مقابل إطلاق يد العلماء فى إدارة المؤسسات الثقافية والوقفية والبنى الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بهم»، ولكن هذا التفاهم نشأ ـ كما يقول بوليت ـ فى ظل اعتراف الحكام بسيادة الشريعة وإدراك العلماء لدور الشريعة كرادع ذاتى لطغيان الحكام« . ويمكن الإضافة لما يقوله بوليت بأن هذا التفاهم كان قائمًا فى ظل وجود وفاعلية مكونات الأمة ـ التى سلف ذكرها ـ وهى الوظيفة الحضارية المتمثلة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسيادة المرجعية الإسلامية، ورابطة الأمة المتمثلة فى عقيدة الولاء والبراء، ويضيف بوليت «أن العلماء كانوا يدركون أن التزام الحكام بالشريعة الإسلامية يحد من عملية الاستبداد»، ويقول أن الشريعة قامت بنفس الدور الوظيفى التى قامت به الفكرة القائلة بأن «الشعب مصدر السلطات» فى التجربة الأوروبية والتى كانت رادعًا للاستبداد، ويضيف أن هذه النظرية تأكدت من نتائج عمليات التحديث التى واكبت الدولة الحديثة فى الدول العربية عقب استقلالها عن الدولة العثمانية حيث ساهمت مشاريع التحديث ـ التى لا يزال ينظر إليها بإيجابية فى الغرب ـ فى تهميش دور العلماء والمؤسسات المرتبطة بهم مثل النقابات المهنية مما أدى إلى تهميش البنى الاجتماعية التى كانت مستقلة عن النظام السياسى وكانت مصدراً للمقاومة، وهذا التهميش أفرز من يسميهم بوليت «المماليك الجدد» ـ أى الحكام فى المنطقة ـ والتى أصبحت سلطتهم «مطلقة».

ويمكن أن نضيف أن تهميش البنى المستقلة عن الدولة مثل العلماء والمدارس التى كانت بيد المجتمع والمؤسسة الثقافية والوقفية والخيرية، وهى ما يسميه الغرب الآن «المجتمع المدنى» والذى ينتقد فى العالم العربى والإسلامى بأنه فقير بمؤسسات المجتمع المدنى والتى هى أفرزت «الديمقراطية» فى الغرب. ويقدم «المجتمع المدنى» باعتباره المؤسسات والمنظمات التى تحمل فكرة «العلمانية»

والقيم الليبرالية فى قضايا المرأة والطفل ومفهوم محدد لحقوق الإنسان يسمح بالحرية المطلقة، وحقوق أخرى، ولكن بوجود شرط «كتب بالبنط الصغير» كما أسلفنا ـ وهى أن تكون فى إطار مرجعية علمانية.

لقد أدت عمليات التحديث هذه إلى جعل محور الصراع الراهن هو الصراع على الساحة المحلية فى كل دولة بين أنصار المرجعية الإسلامية وأنصار المرجعية الغربية المتمثلة بتحالف مثلث «المجتمع الدولى.. والاستبداد.. والقطاعات الليبرالية الداخلية»، وهذا المثلث هو بمثابة قاعدة استعمارية داخلية تقدم تسهيلات للمشروع الليبرالى من أجل توسيع المجال الحيوى الليبرالى على حساب الأمة داخل كل دولة، بحيث أصبحت مرجعية الأمة والأقلية المهتمة تحاصر تدريجيًا حتى أصبحت تعيش كأنها «لاجئة» فى «معازل» و«مستوطنات داخلية» فى دارها الأصلية، ولم يترك لها إلا فتات الإسلام إذا جاز هذا الوصف، وذلك فى حالة شبيهة بتلك المساحات التى خصصت لسكان الولايات المتحدة الأصليين «الهنود الحمر» الذين رفضوا الاستجابة لعمليات «التهذيب» و«التطويع» ورفضوا تقمص هوية المستعمر الجديد.

ومن هنا نفهم قيام الحركات الإسلامية كظاهرة جديدة فى التاريخ الإسلامى وذلك بعد سقوط الخلافة العثمانية لأنها تريد إعادة التوازن بين السلطة السياسية والأمة بعدما أن تم إلغاء التفاهم الذى تم إبرامه فى القرن الحادى عشر مع دخول المجتمع الدولى والمشروع الاستعمارى وتكريس منظومة الهيمنة الأمريكية، ولعل هذا يفسر ما يقوله أحد كبار أساتذة دراسات الشرق الأوسط Vatikiotis بـ«أن الحركات الإسلامية أدخلت بصورة تدريجية نظرية العقد الاجتماعى الذى يجعل من المعارضة والثورة أمرًا ممكنا»[1]، إذن فإن حق الثورة ينبع من حق إعادة فرض «التفاهم التاريخى» كصيغة لـ«عقد اجتماعى» معاصر بين العلماء والمجتمع من جهة والسلطة السياسية من جهة أخرى، وذلك بعد أن تم خرق هذا التفاهم

(1) P.H. Vatikiotis, Islam and the state, London: Croom Helm p. 67.

من قبل المشاريع الاستعمارية التى فككت البناء الإسلامى بعد سقوط الخلافة العثمانية.

المشروع الخامس: المشروع الصهيونى:

استصحب توسع المجتمع الدولى فى المنطقة إقامة الكيان الصهيونى فى فلسطين ليقوم بدور مكمل للمشاريع الاستعمارية التى أسلفنا ذكرها. لقد ساهم المشروع الصهيونى من خلال إنشاء دولته على أرض فلسطين تقسيم الأمة إلى وضع يشبه فيه المفكر الفذ الدكتور جمال حمدان رحمه الله العالم العربى بطائر جناحه الأيمن فى آسيا وجناحه الأيسر فى إفريقيا ورأسه هو فلسطين، وبذلك أدى احتلال فلسطين من قبل العصابات الصهيونية لتعطيل جناحى العالم العربى الذى لا يستطيع التحليق إلا بكليهما عبر ضرب الرأس، كما كرس المشروع الصهيونى فى فلسطين من جانب ثان «مرجعية أو ألوهية بديلة» كجزء من عملية بناء «دولة إسرائيل» تستند إلى مجموعة من المقولات مثل حق بنى إسرائيل المقدس فى فلسطين، وأن فلسطين هى الوطن القومى لليهود، ولعل صمود الفلسطينيين حتى الآن سببه هو رفض فئات محددة منهم لهذه المرجعية وتمسكهم بمرجعيتهم الأصيلة، إذ بينما تعارض الاتجاهات الإسلامية مثل حماس والجهاد فى فلسطين الكيان الإسرائيلى من ناحية مبدئية، فإن أصحاب الاتجاهات اليسارية والليبرالية والقومية - إلا قليلا منهم - لا يعارضون ذلك الوجود من ناحية مبدئية، بل الاختلاف يكمن فى تحديد مساحة وصيغة التعايش، كما أن رفض هذه الاتجاهات العلمانية للاتجاهات الإسلامية ودورها السياسى وكذلك نظرتها لما ينبغى أن يكون عليه المجتمع ونمط الحياة الذى تنشده، كل ذلك أدى إلى وجود قاسم مشترك بين الاتجاهات والمشروع الأمريكى، وإلى نوع من أنواع التحالف الضمنى بينهما، وإلى تقبلها بدرجة أكبر لمفردات ومفاهيم هذا المشروع المساند بدوره للمشروع الصهيونى فى فلسطين، كما يمارس الكيان الصهيونى من جانب ثالث «وظيفة إقليمية» تتمثل فى الحفاظ على «استقرار» المنطقة بالوكالة عن المجتمع الدولى. فوجود الدولة الصهيونية كقاعدة متقدمة للمجتمع الدولى

يتيح لها أن تواجه وتعطل أى طموحات إقليمية ومواجهتها عسكريًا بدون التدخل المباشر للمجتمع الدولى فى بعض الأحيان.

تطور الصراع مع المشروع الصهيونى: يمثل «مشروع الصهيونية فى إقامة دولة إسرائيل» عملية استعمارية بكل المعانى فقد كانت احتلالاً لأراضى لا حق لهم فيها وسعيًا لإلغاء شعب آخر وصناعة شرعية له ونزعها عن الآخرين، وكان التعامل مع هذا التحدى على مستويين: ـ **المستوى الأول:** مستوى القيادات السياسية «المماليك الجدد» فى الدولة التى نشأت فى حضن الاستعمار، **والمستوى الثانى:** مستوى الأمة بما تحمله من مرجعية وثقافة إسلامية ورابطة الولاء من عرب وغير العرب فى المنطقة، ويمكن دراسة تطور الصراع على فلسطين من خلال بحث العلاقة بين هذين المستويين.

فمنذ بداية الهجرة اليهودية وحتى إنشاء الدولة العبرية عام ١٩٤٨ تعرضت القيادات السياسية لضغوط الأمة بضرورة مواجهة الخطر الصهيونى، ولكن فلسطين كانت فى تلك الفترة محل مناورات سياسية عبر الرغبة المبكرة لبعض القيادات السياسية فى مفاوضة القوى الاستعمارية حيال قبول كيان يهودى مقابل توسيع رقعة النفوذ السياسى للدولة الناشئة، وكان نتيجة ضغوط الأمة، والتى كانت تدفع نحو الوحدة فى مواجهة التحدى الصهيونى هى إنشاء الجامعة العربية بموافقة بريطانية، وأصبحت الجامعة العربية تمثل السقف الأعلى الذى يمكن إنجازه استجابة لطموحات الأمة فى ظل الحالة الاستعمارية التى بدأت تبلور بعد سقوط الدولة العثمانية واستمرت معادلتها حتى الآن، والتى كان للدور الخارجى النصيب الأكبر فى تحديد خيارات الأمة مثل الوحدة وغيرها.

وعندما تم إعلان الدولة الصهيونية فى عام ١٩٤٨ كانت الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفييتى وتركيا الكمالية من أوائل من اعترفوا بشرعية الكيان الصهيونى، مما يدل على ترابط مكونات المشروع الغربى فى المنطقة حقيقة، ولكن على المستوى العربى كان يسود القيادات السياسية منطق المواجهة الأمر الذى أدى إلى وجود توافق بين قيادات الدول مع عموم الأمة الرافضة

للمشروع الصهيونى من ناحية المبدأ ذاته، وساهم موقف القيادات السياسية فى تعزيز نفوذ وشعبية تلك القيادات السياسية، كما حصل بصورة واضحة فى مصر.

ولكن نكبة ١٩٦٧ كانت إيذانا بمرحلة جديدة اتسمت بالاتجاه نحو قبول مبدأ التسوية مع الكيان الصهيونى مما خلق حالة من الانفصام بين الأمة الرافضة للمشروع الصهيونى كمبدأ والقيادات السياسية التى تقبل به بشروط، وساهم هذا الرفض فى إبطاء عملية إضفاء الشرعية العربية على الكيان الصهيونى، وساهمت زيارة السادات للقدس ودخول مصر فى معاهدة ١٩٧٩ فى إضفاء المشروعية وفتح الباب بصورة علنية أمام تطبيع العلاقات على المستوى الرسمى مع المشروع الصهيونى وصاحب ذلك خطاب تبريرى مثل «مصر أولا»، وخطاب يكرس التجزئة القومية ويقدم مصلحة الدولة على مصالح الأمة.

وبعد سقوط الاتحاد السوفييتى احتلال العراق للكويت عام ١٩٩٠م وتصاعد الوجود الأمريكى فى المنطقة ساهم كل ذلك فى زيادة رجحان كفة توازن القوى الدولى لصالح الولايات المتحدة ما أدى إلى رفع حالة التوتر بين المشروع الغربى الأمريكى والاتجاهات الإسلامية، كما أن بروز ظاهرة الأفغان العرب بعد محاولة بعض المجاهدين العرب من أفغانستان إلى بلادهم وعجز الأنظمة عن استيعابهم، وتعطيل التجارب الانتخابية فى عدد من الدول العربية ساهم فى زيادة القابلية للمواجهة وزعزعة الاستقرار وهو ما سوف نشير إليه فى الفصول القادمة.

ولعل أهم التطورات السياسية التى تلت عام ١٩٩٠ هى تسريع عملية «التسوية» مع الكيان الصهيونى. وبرز فى هذه الفترة مشروع «الشرق الأوسط الجديد» الذى طرحه بيريز فى كتابه بنفس العنون والذى سعى إلى جعل «إسرائيل» هى مركز جديد فى الشرق الأوسط من خلال إيجاد روابط اقتصادية وسياسية واتصالية مع دول المنطقة. ولكن العائق أمام هذا المشروع كما حدده بيريز فى كتابه هى «الأصولية التى تهدد استقرار الدول واستقرار المنطقة»، ورأى

أن هناك حاجة لإيجاد تحالف بين دولة المنطقة والكيان الصهيونى من أجل القضاء على الخطر الأصولى، وهذا الأمر غدا واضحًا بدرجة كبيرة بعد ما يحدث فى العراق حاليًا.

* * *

الخلاصة بناء على ما سبق يمكن أن نركزها فيما يلى:

كان ثمة نظام إسلامى قائما قبل دخول المجتمع الدولى للمنطقة يتكون من: وجود مرجعية عليا «الإسلام»، وأمة تعيش فى إطاره وتمارس وظائفها الأساسية استنادًا إلى هذه المرجعية، ولقد ظلت هذه المكونات موجودة ولم يتم التشكيك فيها فضلا عن إلغائها بشكل كامل حتى دخل الاستعمار الغربى فى المنطقة وقام بـ«انقلاب» شامل على الأمة وحضاراتها من خلال خمسة مشاريع استعمارية هى: تفتيت الأمة إلى دول، واستبدال المرجعية الإسلامية بمرجعية بديلة دخل كل دولة، ودعم الاستبداد السياسى، والتغريب المجتمعى، وإنشاء الدولة الصهيونية.

إن هذا الصراع كان هو حصيلة تكون أول نواة للمجتمع الدولى عندما تحالف ملوك أوروبا لطرد العثمانيين من أوروبا، أى إنه حصاد صراع خمسمائة عام.

ولكن الانعطاف التاريخى الذى حدث عندما دخل الاستعمار فى قلب العالم الإسلامى أعاد تشكيل المنطقة وفرض منظومة الهيمنة. وبالرغم من ذهاب الاستعمار المباشر من العالم الإسلامى إلا أن منظومة الهيمنة تعمل آلياتها وتساهم فى وضع المنطقة فى «أسر» جماعى وسقف لا يمكن أن تتجاوزه. فمثلا إذا نجحت بعض التيارات الإسلامية فى تحقيق مكاسب تهدد من مرجعية الدولة «العلمانية» كما حدث فى الجزائر فى عام ١٩٩٢ نجد أن جزءًا آخر استجاب لكسر ذلك كما حدث عندما نجحت (الحكومة الجزائرية) فى تعطيل الانتخابات. وأثناء كل ذلك نجد أن آليات التغريب التعليمية والإعلامية لا تتوقف من أجل إعادة تشكيل الأذهان، ونجد التشديد المستمر على الانتماء التجزيئى الضيق الذى يروج

لمرجعية عليا بديلة فى الدولة تتمثل فى القانون الوضعى والتاريخ الأسرى للقبيلة أو نخبة حاكمة ما أو لإنجازات فترات سابقة على الإسلام . إن منظومة الهيمنة هى حصيلة «احتلال» للعالم العربى والإسلامى المباشر واستمرار وجودها هو ضمانة لاستنزاف ما تبقى من الأمة من قيم وأعراف ومؤسسات حتى تنجح وتستمر ، فالاستعمار إذن لا يزال حاضراً من خلال استمرار عمل مصفوفة الهيمنة ، ومن ينكر ذلك عليه أن يقدم تفسيراً بديلاً ومقنعًا تؤكد أننا لا نعيش «حالة استعمارية» وأن عناصر مصفوفة الهيمنة هى مشاريع حقيقية تعمل بصورة متجانسة ضمنيًا . وينقض هذا التصور لمشروع الهيمنة الأمريكى بآخر ، بحيث أن يكون ما يقدمه يستوفى نفس المعايير التى استوفتها هذه الدراسة من كونها إنها تقدم تصوراً شاملا حائزاً على مصادقة علمية ، وتستند إلى مصادر معترف بكونها مصادر علمية ، وإذا سلمنا أن التصور الذى بين يدينا هو صحيح بصورة إجمالية ، ولو كانت هناك خلاف على جزئيات معينة لا تخل بالمشروع ككل ، يكون قد وصلنا إلى نقطة اتفاق وتصور عام لـ«فقه الواقع» نستطيع أن نطلق منه فـ«الحكم على الشيء فرع عن تصوره» ، لكيفية التعامل معه ـ بنفس المنطلق الاستراتيچى . . .

الفصــل الثانى

الأبعاد الاستراتيجية لمقاومة الهيمنة الأمريكية (*)

- أولاً : مواقف الاتجاهات الإسلامية من المشروع الإمبراطورى الأمريكى:
- ثانــيًا: عـمليـة التـحـرر من مـشـروع الهـيـمنـة الإمـبـراطورى الأمريكى:
- ثالثــًا: التكييف السياسى والاستراتيجى للهيمنة الأمريكية على الأمة الإسلامية
- رابعــًا: مقاومة المشروع الأمريكى فى المنطقة: كتلة المقاومة والتغيير
- خامسا: الجدل حول لتأسيس الشرعى السياسى لمشروع المقاومة: الحجة ونقيضها:

(*) نشرت الدراسة الأصلية فى القاهرة، مجلة المنار الجديد، العدد (٢٦)، ربيع ٢٠٠٤، كجزء ثان، مكمل للدراسة السابقة، ص ص ١٩ ـ ٣٥ وقد نقلها العديد من المواقع على الشبكة المعلوماتية . .

إذا قمنا بتقدير عام ـ بناء على الصورة السابقة دون تفصيل ـ لجهود الاتجاهات الإسلامية فى مقاومة المشروع الغربى عامة والأمريكى، سنجد أنها عملت طيلة العقود الماضية ومنذ سقوط الدولة العثمانية فى مجالات تمحورت حول التربية والتعليم وقضايا الإعلام والعمل العام وكذلك بالإضافة إلى قضايا الثقافة والفكر وتميزت فى العمل الخيرى والعمل الأهلى والتطوعى. وكذلك عملت فى المجال السياسى عبر الأحزاب السياسية والنقابات والتى أسفرت عن تقدم أحيانا فى بعض المجالات وفى بعض الدول وتراجعت بعد ذلك، فهى فى حالة شد وجذب مستمرين، ولكن لم يؤد ذلك إلى «تقدم» واضح حتى الآن. . . أى أن المكاسب الجزئية التى تحققت هنا وهناك لم تؤد إلى نصر حقيقى وحالة تفوق.

* * *

أولا: مواقف الاتجاهات الإسلامية من المشروع الإمبراطورى الأمريكى

يجب من زاوية استراتيجية على الاتجاهات الإسلامية أن تحدد بشكل واضح مواقفها تجاه الوضع الدولى القائم، إذ هناك ثلاثة مواقف ممكنة ومتصورة، كما تقرر «المدرسة الواقعية فى العلاقات الدولية» وهى:

١ ـ إذا كان طرف ما يرى أن مصلحته تكمن فى المحافظة على الوضع القائم كما هو فعليه اتباع سياسية «الوضع القائم أو الراهن» ومثل هذه السياسة تحافظ بكل الوسائل المتاحة على التوازن الدولى القائم ولا تسمح بتهديده.

٢ ـ إذا أراد طرف تحقيق مكاسب جزئية بدون تغيير جوهرى للوضع القائم، أى أن هذا الطرف يرى أن الوضع كما هو مناسب بصورة عامة ولكنه يريد تحقيق مكاسب جزئية، فعلى هذا الطرف أن يمارس سياسة «البرستيج» وهى سياسة تستعرض قوة هذا الطرف لتحقيق بعض التنازلات من الطرف الأقوى وتسعى لإجراء بعض التعديلات على الوضع القائم، ولكنها لا تريد حقيقة السعى لإجراء تغييرات جذرية فى الوضع القائم إما لأنها ترى أن الوضع القائم فى مصلحتها أو أنها لا تريد دفع ثمن التغيير أو لا تستطيع دفعه.

٣ ـ إذا كانت مصلحة طرف ما تكمن فى تعديل الوضع القائم بصورة جذرية ويريد فعلاً ذلك ومستعد لتحمل تكاليف هذا التغيير فعليه أن يتبع سياسة تغييرية، وهى تشير فقط إلى سياسة تسعى إجراء تغيير جذرى فى الوضع القائم.

إذًا يجب على الاتجاهات الإسلامية والتحررية أن تقرر بكل أمانة نوعية التغيير التى تريده، هل هو تغيير عميق يسعى لتغيير الوضع القائم بصورة جذرية؟ أم هل هم راضون بالمساحات الموجودة للحركة ويريدون فقط مساحات إضافية للعمل من غير المساس بالوضع القائم؟ أم أنهم قاموا بتقدير استراتيچى بأن اتباع سياسة تغييرية هى فوق طاقتهم وبالتالى هى موضوع مؤجل؟ أم هل قرروا أن طول المدة ليس فى صالحهم فى ظل الوضع القائم وأن الكفة تتأرجح أكثر فأكثر لصالح مشروع الهيمنة، فمعنى ذلك أن عليهم التفكير بطريق ما لزعزعة مشروع الهيمنة؟؟

* * *

ثانيًا: عملية التحرر من مشروع الهيمنة الإمبراطورى الأمريكى:

تتطلب عملية التحرر بعد تعرفنا على منظومة الهيمنة أن نفكر بدقة فى عملية التغيير الذى يحتوى على أربعة جوانب:

الجانب الأول: اتجاه التغيير والذى يطرح سؤالاً هل نريد أن نتجه نحو نظام يقوم على قيم إسلامية خالصة أو ليبرالية بحتة، أو أنه سيقوم بعملية مزج لصالح أحدهما. لقد اختار النظام الكمالى فى تركيا، ولحقه النظام التونسى، بالاتجاه على التحول باتجاه ليبرالى بحت يستثنى الإسلام بصورة شاملة بينما تسعى إيران أن تؤسس نظامًا إسلاميًا بدرجة متقدمة، أما مصر فإنها تقف فى الوسط تشمل عناصر من كلا الاتجاهين وذلك بسبب المقاومة العنيدة للمجتمع للاتجاهات التغريبية النخبوية.

الجانب الثانى: «العمق» هل التغييرات المرجوة هى تغييرات شكلية تتعلق ببعض الإجراءات، وبتغيير بعض المظاهر الاجتماعية أما إنها تتطلب تغييرات أكثر عمقا مثل تعديل المناهج التعليمية والنظام التعليمى، أم أن التغييرات المطلوبة هى تغييرات شاملة تتطلب تغيير فى النظام التعليمى والسياسى والاقتصادى.. إن التغييرات التى لا تحافظ على الوضع القائم وتريد تعديلات شكلية هى ما يطلق عليها فى الدراسات السياسية الموقف «المعتدل» أما الموقف المطالب بتعديلات كبيرة أو شاملة فإن يقترب من وصف المطالب «الراديكالية أو الثورية».

البعد الثالث: سرعة التغيير، هل التغيير المطلوب هو تغيير سريع أم تغيير بطىء؟ هل التغيير المرجو هو تغيير فى مدى زمنى مثل عشرين سنة أو أنه تغيير على مدى ثلاث سنوات؟. إن تحديد الفترة الزمنية يساهم فى اختيار أفضل الوسائل التى تقترب من الفترة الزمنية المحددة، والتغيير الذى يحدد مدى زمنى معقول يساهم فى وضع الخطط الأفضل ويحفز على العمل لأن نتائجه ستكون ملموسة.

البعد الرابع: وسيلة التغيير، هل عمق التغيير المطلوب سيتحقق من خلال إجراءات قانونية أو من خلال تشريعات برلمانية أو العمل الحزبى أم هل سيتحقق عبر المظاهرات والإضرابات والضغط الشعبى وهل هذا ممكن وهل سيستجيب النظام السياسى؟ أم أنه لن يستجيب وبالتالى فإن الوسائل ستشمل أبعادًا أخرى مثل استخدام العنف والقوة؟

وهنا يجب التنبيه على الخلط بين وسيلة التغيير وعمق التغيير، فمفهوم الاعتدال فى الدراسات لا يعنى عدم اللجوء للعنف، والراديكالية والثورية لا تعنيان بالضرورة استخدام العنف كما يتبادر للأذهان. . فالاعتدال يعنى إقرار النظام القائم وعدم الرغبة فى تغييره وبالتالى فإن الحكومة المعتدلة قد تكون أكثر من يلجأ إلى وسيلة العنف فى الحفاظ على الوضع القائم فهى بالتالى نظم «معتدلة» وإن كانت تمارس العنف، وقد تكون الحكومات تريد تغيير واقعها الاجتماعى والثقافى بشكل شامل عبر تغيير مناهج التربية والتعليم والبرامج الثقافية والإعلامية فى اتجاه يسعى لتحويل المجتمع من مجتمع محافظ إلى مجتمع متحرر، فى هذه الحالة فإن الدولة تمارس عملاً لتحويل المجتمع من مجتمع محافظ إلى مجتمع متحرر، فى هذه الحالة فإن الدولة تمارس عملاً «ثوريا» ولكنه غير عنيف، وإن كان يمتلك وسائل السيطرة من قوة مادية وقانون، فمثل هذه النظم هى نظم ثورية تنقلب على ما تبقى من واقع الإسلام فى الأطر الثقافية والتعليمية والاجتماعية. إن التمييز بينهما مهم بصدد التفكير فى التحولات السياسية والثقافية والاجتماعية ترى فى ظل هذا التحديد ماهية الأنظمة المعتدلة والثورية فى العالم العربى والإسلامى؟

اتجاه التغيير المنشود وعمق التغييرات المطلوبة وسرعة التغيير التى تكون الأهداف الاستراتيچية هى التى تحدد مجموعة الوسائل المتبعة فى التغيير، فإذا كان الهدف هو الحفاظ على بعض القيم وتعزيزها فقد يكون هذا التغيير على مدى عشر سنوات ويركز على وسائل التربية والإعلام وإذا كان التغيير المطلوب قد يكون على مدى سنة واحدة والعمل من خلال التكتلات البرلمانية.

ولذلك عندما يقول الاتجاه الإسلامى الذى يصف نفسه بأنه يمثل «الاعتدال والوسطية» أنه ينبذ العنف فلا معنى لذلك إلا أنه يقر الوضع الراهن والقائم فعليًا، وأنه يسعى لتعديلات طفيفة فقط فى المجتمع والسياسة ولا يريد إحداث تغييرات عميقة فيه، وهذا يناقض مزاعم أن لديه مشروعًا إسلاميًا، فالمشروع الإسلامى يتطلب تغييرات حقيقية أى تغييرات «راديكالية وثورية». أما إذا كان

المقصود هو نبذه للعنف كوسيلة من ناحية المبدأ، فهذا لا علاقة له بمفهوم «الاعتدال» بل إنه يعنى أنه يتبنى مقاومة سلمية على نهج «غاندى» ويرى أن مثل هذا الطريق هو الذى سيفكك منظومة الهيمنة الدولية ، فاستخدام القوة جزء من مفهوم الجهاد وممارسة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالمطلوب هو «تقنين» العنف كوسيلة لعملية التحولات المطلوبة نحو اتجاه التغيير الإسلامى، وليس تركه حصراً على النظام السياسى والذى هو جزء من منظومة الهيمنة وامتداد للمشروع الاستعمارى الليبرالى.

إن ضعف أداء الاتجاه الإسلامى بمختلف رموزه وتياراته يكمن فى ذلك النقص فى البعد الاستراتيجى، فالاتجاه الإسلامى تعامل مع جزئيات من منظومة الهيمنة وفى إطارها ووفق آلياتها ولم يتعامل معها ذاتها، ولذلك حافظ النظام القائم على مساره واستطاع أن يتعامل مع التهديدات التى تمسه كما يتعامل الجسم الإنسانى مع الأمراض التى تصيبه، فمنظومة الهيمنة تنظر إلى المشروع والاتجاه الإسلامى باعتباره مرضًا يهدد جسد هذه المنظومة فتقوم بتشخيص الحالة الإسلامية على أنها أزمة العالم الإسلامى فى التكيف مع الحداثة، أو أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية هى التى تفرز الحركات الإسلامية الراديكالية، ولذا نجد أن علاج هذه «الأزمة» يكون إما بالتنمية وبإفساح الحريات والديمقراطية، ولكن ليست تلك الديمقراطية التى تفرز إسلامًا أو التنمية التى تعزز الهوية الإسلامية أو الدولة التى تحقق الاستقلال وتعتمد نهج المقاومة، بل إنها الديمقراطية التى تساهم فى تمييع وتذويب الهوية الإسلامية، فالديمقراطية الغربية تسمى الديمقراطية الليبرالى، وتؤكد الكتابات الغربية بأن الديمقراطية لا يمكن إلا أن تكون بنظام ليبرالى، وبالتالى فإن ما ينقص العالم الإسلامى هى القيم الليبرالية حتى يتسنى قيام نظم ديمقراطية حقيقية، وهذا هو الخطأ الذى يقع فيه من ينادى بالتنمية فقط كوسيلة للتقدم والتطور ومن يرى أن الديمقراطية هى مفتاح نهضة العالم العربى والإسلامى، فكل واحد منهم يتعامل مع جزئية مع منظومة الهيمنة وبنفس آلياتها.

لقد انعكس إغفال أجزاء من منظومة الهيمنة ونسيان مسارها التاريخى والانطلاق من الواقع الذى تشكل فى ظلها على وعى الأفراد ومن ضمنهم بعض العلماء وبالتالى على عملية الفتور التى تعاملت مع الواقع كما هو وبالتالى نجد أن الفتاوى التى تمثل «الاعتدال والوسطية» تساهم فى تعزيز منظومة الهيمنة ولا تساهم فى كسرها، السبب فى ذلك جزئيًا هو أنها لم تحدد قراءتها للواقع بشكل متكامل، ولم تتساءل هى لديها قراءة شاملة وسليمة تنطلق منها أم لا؟ وقررت بشكل ضمنى التعامل مع الوضع القائم والاكتفاء بتحقيق بعض المكاسب الجزئية.

وقد سعت الولايات المتحدة لتكريس الوضع الدولى القائم بعد أن تعززت هيمنتها إبان الحرب العالمية الثانية، وتبلورت بصورة متكاملة فى تلك الفترة المدرسة «الواقعية» فى العلاقات الدولية وأصبحت منذ ذلك الحين تشكل القاعدة الفكرية للتفكير السياسى الأمريكى، وطرحت المدرسة الواقعية تعريفًا لمفهومى «السلام» و«الاستقرار الدولى» كشعارات ترويجية دعائية لما تسميه «أيديولوجية الوضع القائم» أى أيديولوجية القوة المهيمنة، وعرفت السلام والاستقرار بأنه يشير إلى اعتماد توزيع للقوى تم توثيقه فى إطار قانونى، مثل معاهدة سلام تلت نشوب حرب وتعنى عمليًا الاعتراف بالوضع القائم بعد الحرب، ووفق هذا التعريف فإن مفهوم الاستقرار الدولى والسلام كما يستخدم الآن من قبل المجتمع الدولى وعلى رأسه الولايات المتحدة يعنى الإقرار بشرعية التوازن الدولى لأنه يحقق «السلام» من خلال الإذعان للهيمنة الأمريكية.

ولأن «القوة» المهيمنة هى جزء من الحضارة الغربية والتى تحمل الفلسفة الليبرالية كإشعاع حضارى للعالم فإن الاستقرار ليس استقرار قوة مجردة لا تعبر عن فلسفة أو قيم معينة، ولكنه «استقرار ليبرالى غربى» يسعى للمحافظة على تفوق الولايات المتحدة كقائد للحضارة الغربية صاحبة المشروع الليبرالى، أى إن شعارى السلام والاستقرار هو ترويج لمنظومة الهيمنة الليبرالية والسلام الذى ينتج عنه هو كذلك سلام ليبرالى أمريكى وبالتالى يحرم السلام عن من يمتنع عن الولوج فى دائرة القيم الليبرالية ويعلن الحرب عليهم بصفتهم خوارج عن

«الحضارة السائدة» ويجوز نعتهم بدول «مارقة» وقوة «شريرة»، وكارهون لـ«حرية» إلى آخر هذه النعوت المعروفة، ومن هنا تأتى مشكلة خطاب اتجاه الاعتدال والوسطية الإسلامى والذى يؤكد على أن الإسلام دين «سلام» ولا يعرف السلام الذى يقصده، كما لا يعرف مفهوم «الاعتدال» و«العنف» وفق تصور سياسى واستراتيچى معين ومتكامل فى إطار «فقه الواقع» وضمن مشروع إسلامى محدد.

ولأنه أيضًا لا ينطلق من منظور متكامل فهو لم يحدد علاقته الحقيقية مع الغرب، فهناك اتجاه محسوب على الاتجاه الإسلامى، وهذا التيار الذى يوصف عادة بأنه تيار «مستنير» يطرح مفاهيم وقيم تؤدى لحالة من التبعية، وهو بذلك يتفق مع التيار الليبرالى، وهذا التيار يساهم فى تذويب الهوية الإسلامية باسم الإسلام.

مفهوم التعايش

ولكن هناك التيار الذى لا يريد التبعية مع الغرب، ولكنه يرى أن جوهر العلاقة هى علاقة تعايش لأن المجال مفتوح فى الغرب للدعوة، وبما أن ذلك متاح فلا يجب اللجوء للعنف كمبدأ فى الصراع، والمشكلة فى هذا التيار أنه يغفل «منظومة الهيمنة» كما أنه لا ينظر إلى مفهوم «التعايش» فى الخطاب الغربى. إن خطاب «التعايش» هو إفراز مدرسة «المجتمع الدولى» فى العلاقات الدولية، وهذه المدرسة ترى أن الدول أصبحت تشكل مجتمعًا يقر بالأعراف الدولية والقانون الدولى، وهو بالتالى متجه نحو نوع من النظام، وهى ترى أن النظام المعاصر أتاح فرصة جديدة للتعايش بينها المجتمعات بعد أن كانت العلاقات الدولية تقوم على أساس الحرب بين الأديان.

وترى هذه المدرسة أن المجتمع الدولى بمثابة «نادى» كانت العضوية فيه حصراً على الدول «الأوروبية» ولكن مع بسط النفوذ الاستعمارى الأوروپى الذى ساهم فى إعادة تنظيم الأمم والشعوب المختلفة على أساس الدولة، فإن العضوية

توسعت بحيث أصبحت تضم جميع دول العالم، ولكنها ترى أن توسعة هذه العضوية ساهمت فى إضعاف المجتمع الدولى لأن الدول الجديدة لا ترتقى إلى نفس المعايير التى كانت فى الأعضاء الأصليين مما ساهم فى إضعاف نظام المجتمع الدولى، وباتت هذه الدولة تهدد مستقبله ووجوده، لذا فإن هذه المدرسة ترى أن تقوية المجتمع الدولى تتطلب عملية تقوية معايير الأعضاء الجدد بحيث يقتربون من المعايير التى تمتع بها الأعضاء المؤسسون، وترى أن الثقافة الليبرالية قد تجذرت فى النخب السياسية والدبلوماسية، ولكنها لم تنزل بعد إلى عامة أفراد المجتمع وأن التحدى هو العمل على نجاح هذه المهمة، وتدعى أن المجتمع الدولى تخلى عن المواجهة بين المسيحية والإسلام لنظام يسمح للتعايش وفق معايير أخرى[1]، ولكنها تتجاهل حقيقة أن الغرب استبدل «الصليبية» بالمشروع «الليبرالى العالمى» كعقيدة واستخدام آليات مباشرة وغير مباشرة للمواجهة، بل إن نواة المجتمع الدولى الحديث نشأت كتحالف بين ملوك أوروپا لطرد المسلمين العثمانيين من الأراضى الأوروپية وبالتالى «فمفهوم (التعايش) فى السياسة الدولية يشير إلى مرحلة انتقالية يتم فيها امتصاص المجتمعات التى تقع خارج (نادى المؤسسين) للمجتمع الدولى من خلال عملية تعزيزهم ـ أو تحميلهم بلغة «الحاسوب» بالقيم الليبرالية، وهى بالتالى لا تقبل الآخر كما هو ومرحلة التعايش هذه عادة ما تكون عندما يكون هناك تفوق غربى فى مجال (القوة) تستطيع من خلاله إعادة تشكيل المجتمعات فى هذه الفترة الانتقالية عبر وسائل الإعلام والتعليم كما أنها تستطيع ممارسة التأديب مع الدول والأطراف التى تبدى مقاومة سواء من خلال أدوات الضغط الاقتصادى أو من خلال خلق مشاكل سياسية أو من خلال مواجهة عسكرية».

ولذلك فإن التعايش وفق الطرح الغربى يقصد به «إفساح المجال أمام الدعوة العلمانية بأن تتجذر فى المجتمعات وليست قبول المجتمعات كما هى والتعايش معها»، وهى شبيهة بذلك بالدعوة الإسلامية التى تريد أن تفسح المجال أمام

(1) Hedley bull, International Society, London: Blackwell, 1998, P. 32-45.

الدعوة للإسلام فى داخل المجتمعات الغربية، وترى أنه بوجود مجال لممارسة الدعوة فإن العلاقة هى ليست علاقة حرب بل علاقة دار دعوة (وهذه المسألة تدخل فى قضية التقدير السياسى والاستراتيجى وليست مسألة تدخل فى العقائد أو الحلال والحرام) أى إنها مسألة سياسية تعتمد على التقدير المتخصص من أصحاب الشأن فى هذا المجال وهى تقع فى إطار فقه الواقع.

ومن منطلق التصور لمنظومة الهيمنة الذى سبق تقديمه نقول إن توصيف العلاقة مع الغرب بأنها دار دعوة تحتاج إلى تفصيل.

أولا: ليس الغرب كله كتلة واحدة لها مواقف ثابتة تجاه الأمة، فمنها دول لا توجد معها علاقات ومصالح تقوم على (الهيمنة) على العالم الإسلامى، مثل الدول الاسكندنافية التى لا تدعم مصفوفة الهيمنة عبر دعم للنظم المستبدة أو دعم الكيان الصهيونى - على سبيل المثال - بشكل حيوى ومباشر، وعلى هؤلاء قد تنطبق عليهم علاقة (دار الدعوة).

ثانيا: لقد وقعت الحركات الإسلامية فى خطأ استراتيجى لأنها تعاملت مع كل مشروع من مشاريع منظومة الهيمنة الليبرالية على حدة ووفق منطقه وفى إطاره، ولم تتجه إلى التعامل مع منظومة الهيمنة ككيان مترابط، ولذلك بعد سنوات عديدة من العمل الإسلامى نجد أنه كان هناك تقدم أحيانًا لصالح مشروع الإسلام فى بعض المجالات وفى بعض الدول، ولكن لم يؤد ذلك إلى «انتصار» واضح حتى الآن، أى أن المكاسب الجزئية التى تحققت هنا وهناك لم تؤد إلى نصر فى المعركة الكلية، والسبب فى ذلك ليس كائنا فى ضعف أداء الأقلية المهتمة أو «الفئة القائدة» بمختلف رموزها وتياراتها ووسائلها، ولكن الخطأ كان على المستوى الاستراتيجى، فالأقلية المهتمة أو «الفئة القائدة» لم تتعامل مع التحديات وفق منطلقات استراتيجية.

* * *

ثالثا : التكييف السياسى والاستراتيجى للهيمنة الأمريكية على الأمة الإسلامية

التصور الكلى السابق للهيمنة الأمريكية على الأمة الإسلامية والمؤصل سياسيًا لا يدع مجالا للتردد فى تكييفها شرعا على أنها «حالة عدوان» على الأمة بأسرها كما وصفها المفكر والمؤرخ الكبير طارق البشرى، كما أنها استنزاف لما تبقى من الأمة من قيم وأعراف ومؤسسات وثروات وإعلان حرب على أى محاولة للتحرر والنهوض، ومرحلة جديدة من الاحتلال للعالم الإسلامى.

وبهذا التكييف للهيمنة الأمريكية تعد الولايات المتحدة الأمريكية عدوا محتلا للأمة ترمى إلى مسخ ذاكرتها وهويتها، وبالتالى تنطبق عليها أحكام العدو المحتل من وجوب مقاومتها والتصدى لها بكل الوسائل والإمكانيات.

البعد الاستراتيجى لمقاومة الهيمنة الأمريكية: كما أن مقاومة الهيمنة الأمريكية فريضة شرعية هى كذلك ضرورة استراتيجية للأمة، وذلك لأن نجاح أى مشروع نهضوى للأمة مرهون بالتعامل المباشر مع التحدى الخارجى المعيق، وذلك يتمثل فى إحداث خلخلة فى النظام الدولى الآسر للأمة بالتصدى لرأس هذا النظام ومركز الثقل فيه ـ أى الولايات المتحدة ـ ومشروعه المهيمن تصديا مباشراً ونوعيا، فبدون تحقيق هذا البعد تظل الأمة فى حالة الأسر الجماعى.

والتصدى المباشر والنوعى لمركز الثقل (الولايات المتحدة الأمريكية)، يعنى تبنى استراتيجية المقاومة ضد عدو الأمة (الولايات المتحدة الأمريكية) بأبعادها المختلفة المعروفة، إلى أن تزول هيمنته عن الأمة وتنتهى حالة الأسر الجماعى وتسنح الظروف لتحقيق مشروع نهضة الأمة.

ومن غير تبنى استراتيجية المقاومة الشاملة والنوعية هذه لا يمكن تحقيق نقلة نوعية للأمة من مرحلتها الغثائية الراهنة، ذلك لأن أى استراتيجية أخرى كالتربية أو الدعوة أو العمل السياسى أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ مع أهميتها ـ ستكون قاصرة، ولن تستطيع أن تحقق النتيجة الكاملة لأنها غير موجهة بشكل

مباشر ضد «مركز الثقل» ومشروعه المهيمن وإنها هى موجهة ضد آثار المشروع المهيمن ومظاهره وبالتالى لا يمكن أن تحقق إلا نتائج جزئية وغير مستقرة لأنها نتائج محدودة فى إطار النظام الدولى الذى تفرضه الهيمنة الأمريكية ووفق آلياتها مما يجعل النتائج لا تشكل تهديدات حقيقة لمشروع الهيمنة إذ يمكن التعامل معها وتطويقها بل وتوظيفها أحيانا لصالح مشروع الهيمنة ولو بطريق غير مباشر، فكثيرا ما يستعمل صاحب المشروع المهيمن المشاريع الإغاثية بل وحتى الحوارية والدعوية لتحسين صورته، وإكساب أهدافه الخبيثة شرعية، وتحجيم الجماعات المقاومة لمشروعه، وكسر شرعيتها وتشويه مواقفها.

والواقع أن تحديد مركز الثقل والتوجه إليه من أهم المبادئ وهى فكرة محورية فى الاستراتيجية تنسب لكلاوسويتز Clauswitz مفادها «أن الخصم يجب الاشتباك معه فى «مركز الثقل» والذى يمثل ضربه تفكيكا لكل بنية القوة، وبالرغم من أن مركز الثقل يختلف من خصم لآخر، فإنه يجب تحديد مصادر قوته إلى أقل عدد من المصادر الممكنة والأفضل أن يكون مصدراً واحداً، ويرى كلاوسويتز «يجب بعد ذلك تركيز العمليات على مركز الثقل وأن يصبح ذلك هو الهدف الأول من العمليات والاشتباكات، وأن عدم الالتزام بهذا المبدأ لن يؤدى إلى هزيمة» ومن الأمثلة على هذا النوع من الفشل هى الحرب الأمريكية على فيتنام يقول Harry Summers أن سبب فشل الولايات المتحدة فى فيتنام كان هو استثناء ضرب شمال فيتنام بكونها مركز الثقل لأنها كانت الداعم الفعلى لمقاتلى "Veit Cong"والسبب فى عدم ضرب شمال فيتنام كانت تعود لأسباب سياسية تشمل التخوف من تدخل الصين والاتحاد السوفيتى مباشرة كطرف فى الصراع، ولذا لم نسع لضرب هانوى عاصمة شمال فيتنام ولم نضرب جيشها ولم يكن هناك «رأى عام» داخل شمال فيتنام يمكن تأجيجه مما أدى إلى التعامل مع الفيات كونج فى جنوب فيتنام ككيان منفصل عن شمال فيتنام بدلا من التعامل معهم كأداة لشمال فيتنام، ولذا اخترنا مركز ثقل لم يكن له وجود، وتأكد ذلك لاحقا عندما تم تدمير الفيات كونج بصورة شبه شاملة ولكن لم يؤد ذلك لوقف الحرب والتى استمرت بنفس الوتيرة.

كذلك فإن خطأ تيارات المقاومة للمشروع الأمريكى هو «عدم تحديد مركز الثقل الرئيسى» الذى يدعم كل المشاريع الاستعمارية من تفتيت للأمة والترويج للتغريب والمشروعية البديلة ودعم للاستبداد والمشروع الصهيونى«، فمنهم من اختار العمل الثقافى والفكرى للحفاظ على الهوية، ومنهم من اختار مناهضة الصهيونية عبر لجان مناهضة والعمل السياسى وهكذا، ,كذلك ذلك يحقق مكاسب جزئية، ولكنه حتى فى الدول التى تحقق فيها نجاحا واضحا أكثر من غيرها مثل السودان وإيران التى جاءت بحكومات إسلامية لم تستطع أن تنطلق بمشروعها بسبب العامل الخارجى والحصار الدولى.

ولذلك يجب التفكير فى عمل المقاومة الكلى على مسارين:

الأول: المسار الاستراتيجى الأعلى والذى يصب فى التعامل مباشرة مع المعادلة الدولية من خلال تفكيك «مركز الثقل» باعتباره الحلقة التى تمسك بقية الحلقات الأخرى من المشاريع الاستعمارية الخمسة.

الثانى: المسار «الدفاعى» والعمل الإسلامى ذى الصبغة الجماهيرية الذى يصب فى مواجهة فروع المشروع فى إطار المجال ذاته من عمل ثقافى وإعلامى وسياسى وتربوى، وهذا المسار طبيعته دفاعية لأنه لا يمكن أن يحقق النصر النهائى المبين.

وإذا تساءلنا عن طبيعة «مركز الثقل» الذى يجب تفكيك منظومة هيمنته، فالجواب هو أن مركز الثقل هو الذى ورث مشروعى الهيمنة الأوروبية والبريطانية بالذات وهو الذى يمد المشروع الصهيونى بأسباب البقاء وهو الذى يدعم الاستبداد وهو الذى يمتلك وسائل الإعلام الدولية التى تروج لمفاهيم التغريب ونماذجه الاجتماعية، وهو الذى يدعم «الدعوة» الليبرالية بمؤسسات ومنظمات دولية عبر الأمم المتحدة من قضايا تتعلق بالمرأة ولاطفل والتعليم والتنمية وفق مفاهيم ومؤشرات تنمية تساهم فى تسويق القيم الليبرالية أو على الأقل تساهم فى تفكيك البنى الاجتماعية الأصيلة ـ باختصار ووضوح فإن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى تمثل «مركز الثقل»، إن إقرار هذه النظرة الكلية تمثل نظرة

استراتيجية شاملة تنطلق منها التفاصيل الأخرى ولكنها استراتيجية لا يمكن أن تنجح إلا بوجود «ضوابط» يتفق عليها الطيف الإسلامى على الأقل فى المرحلة الراهنة. وهذه الضوابط يمكن أن تكون :ـ

١ ـ عدم قيام عمل إسلامى ملتزم بطابع محدد بسحب البساط من عمل إسلامى ملتزم بطابع ووسائل أخرى، فسحب الشرعية من عمل إسلامى ـ أيًا كان شكله ـ هو إضعاف للاتجاه ككل ـ مهما بدا محقا فى نظر بعض الفئات.

٢ ـ التركيز على محورية مواجهة «مركز الثقل» قدر الإمكان بالوسائل التى يتسم بها كل عمل إسلامى وفقا لطبيعته سواء كان ذلك بالوسائل الثقافية، والتأكيد على أن أى نشاط ذى طابع سياسى أو ثقافى أو فكرى لا يمكن أن ينجح ويحقق أهدافه كاملا من غير تحرير «الداخل» من العامل الخارجى، فتفكيك معادلة «مركز الثقل» فى الهيمنة من شأنها فتح مجالات أرحب فى التعاون والتقارب والتضامن وتخفيف وطأة تفتيت الأمة، وكذلك من شأنها تخفيف الدعم للاستبداد، كما أن هذه الاستراتيجية من شأنها المساهمة فى إعلاء مرجعية الإسلام، كما أن عملية التعامل مع النموذج من شأنه أن يطفئ بريق الثقافة الغربية بادعاءاتها الفكرية ومظاهرها السلوكية ونمط حياتها الذى أصبح يستشرى داخل المجتمع الإسلامى، ولا شك أن «تفكيك» مركز الثقل من شأنه تخفيف الدعم للمشروع الصهيونى وترجيح الكفة لصالح عملية تحرير فلسطين.

٣ ـ يصبح كذلك ضمنيا حليفا لهذا المشروع كل من يريد كسر شوكة الهيمنة الدولية للولايات المتحدة بغض النظر عن عقائده ومشروعه الخاص به، ويأتى التنسيق مع التيارات المقاومة بغض النظر عن نقاط الاختلاف معها أولى قبل غيرها فى التنسيق لذلك المشروع، وترتيب أوراق المقاومة مع الأطراف المختلفة تتحدد وفق قدرة الأطراف على المقاومة، ولا تعتمد على عقائدها، وبالتالى يصبح التنسيق والتعامل مع هذه الأطراف هو شرط هام

فى التعـامل مع الوضع «الداخلى» وإن لم يكن شـرطا سـابقـا على نجـاح المشروع، وبالتالى يتم الاستفادة من كل القوى ?بمختلف توجهاتها ـ التى تهدف إلى التصدى للمشروع الأمريكى المهيمن.

٤ ـ عدم الالتفات إلى المكاسب الجزئية أو الآنية ولا إلى الخسائر الجزئية أو الآنية وعدم الانشغال بها على حساب المكاسب ذات البعد الاستراتيجى.

٥ ـ تحديد الخصم الأساسى الذى تجب مقاومته فى هذه المرحلة وعدم فتح جبهات متعددة (يستفاد من سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد الهجرة إلى المدينة وتعامله مع الأصناف المختلفة وتركيزه المرحلى على قريش).

٦ ـ توجيه الخطاب الإعلامى فى صالح مشروع المقاومة لتحقيق التعبئة اللازمة ومواجهة التخذيل والتيئيس.

٧ ـ محاولة كسب الرأى العام العالمى ما أمكن ومراعاته فى الخطاب الإعلامى الخارجى.

٨ ـ توظيف الروح المعنوية الإيمانية فى مشروع المقاومة.

٩ ـ العمل على كسب الرأى العام الأمريكى للضغط على الحكومة الأمريكية فى صالح هدف مشروع المقاومة، وإفهامه أننا الطرف المعتدى علينا وأننا لا نتقاتل بسبب اختلاف الدين أو الحضارة وإنما لحماية أنفسنا، من عدوان الإدارة الأمريكية.

١٠ ـ التمييز بين الخطاب الإعلامى الداخلى والخطاب الإعلامى الخارجى من ناحية مراعاة كسب الرأى العام الإسلامى فى الأول وعدم تأليب الرأى العام الغربى فى الثانى.

* * *

رابعًا: مقاومة المشروع الأمريكى فى المنطقة: كتلة المقاومة والتغيير وواقع الأقلية المهتمة

بالرغم من أن منظومة الهيمنة والتى تتكون المشاريع الاستعمارية الخمسة التى أسلفنا ذكرها قطعت شوطا كبيرا فى مأربها إلا أنها لم تحقق مطامعها بشكل كامل، لقد فشلت فى القضاء على فكرة «مشروع الإسلام» يقول مارشال هودجسون عن استمرار وجود «الرؤية» لمشروع الإسلام:

«إن هذه الرؤية لم تختف وأن المشروع لم يتخل عنه بعد، وأن هذه الآمال والجهود لا تزال حية فى العصر الحديث، وأن الإسلام كعقيدة والثقافة التى يكون الإسلام قلبها تستقى أهميتها الفريدة ووحدتها من هذه الرؤية ومن هذا المشروع، ويدعو هودجسون إلى فهم طموحات أى أمة وآمالها من خلال النظر إلى مجموعة التقاليد والقيم والثقافة بما تحتوى من معايير ثقافية وتوقعات أساسية basic expectations ومعايير لإضفاء الشرعية على ما هو مقبول ومنع الشرعية عن ما هو مرفوض .norms of legitimating

ويرى أن أى حضارة لها «قيم تأسيسية» formative values تميزها عن بقية الحضارات وتؤثر هذه القيم على دائرتين فى المجتمع: الدائرة الأولى تشمل عموم المجتمع ـ من الفلاحين إلى الطبقات العليا المتعلمة ـ التى تفاعلت عبر القرون بدرجات متفاوتة مع قيم الحضارة التى تنتمى إليها وتجد تعبيراتها فى الفن والأدب والإنجازات العلمية.

أما الدائرة الثانية فهى ما يسميها «الأقلية المهتمة» و«هم أولئك الذين أخذوا على عاتقهم وكمهمة رسالية تحقيق مثاليات التراث وقيمه باعتباره المحرك الأساسى لهم، وهم عادة ليسوا أصحاب السلطة المباشرين، ولكنهم فى كل منعطف هم أصحاب المبادرات الثقافية والذى فى الإطار الذى يبلورونه تصنع عادة الخيارات الثقافية».

ويحدد ألبرت حورانى بصورة أكثر هوية ودور «الأقلية المهتمة» فى مجتمعاتنا العربية والمسلمة وذلك فى مقدمة كتابه «الفكر العربى فى عصر النهضة». . «فى

قلب عملية التطور يقف التراث الحى لأهل السنة والجماعة ـ وهى مجموعة من المسلمين المهتمين منصبة ذاتيا ولا يجمعها رابط تنظيمى وتتمتع بشرعية ذاتية ـ تؤمن بالوحى الذى نزل على محمد وتريد الحفاظ عليه من غير تغيير فى ظل متغيرات الزمن، تسترشد به أمام المشاكل الجديدة التى يصنعها التغيير، تدافع عن الإسلام وتستقى دلالاته ليس برفض ما هو جديد ولكن من خلال التمييز بين ما يمكن وما لا يمكن استيعابه فى الإسلام».

فالأقلية المهتمة ـ أو «الطائفة» وفق قول الرسول ـ «ما تزال طائفة من أمتى. . . » تشكل إذن خط الاستمرار التاريخى للرسالة التى أنزلت على الرسول ﷺ وهى سابقة لنشأة الدول كمشروع سياسى وتتجاوز حدودها، وسبق أن تطرقنا لدور العلماء التاريخى فى الدفاع عن الأمة وعن دور الحركات الإسلامية التى تسعى لإعادة فرض «التفاهم التاريخى» الذى تم إلغاؤه مع ترسيخ منظومة الهيمنة، ولكن التعبير عن وجودها استمرار للخط التاريخى للأمة يجد نفسه فى الدائرة الثانية الأعم من الأمة أيضًا.

أسلفنا القول أن عملية توسع المجتمع الدولى حملت منطق المواجهة كحالة مستمرة مع الأمة وفى قلبها الأقلية المهتمة، ولكن لم نفصل بعد من هم الفاعلين فى الساحة الدولية من منظور.

تمارس المجتمعات الإسلامية بصورة عامة أفعالا متعددة للحفاظ على الهوية ولكننا نتحدث بالتحديد عن الأقلية «المهتمة» إن أهم ما يميز الأقلية المهتمة هو حملهم للوعى الأصيل للأمة السابق للوعى الذى تكون كنتيجة للمشاريع الاستعمارية وأنهم كرسوا أنفسهم لحمل مشروع الأمة فى ظل الطغيان الاستعمار الغربى الليبرالى. . وبالرغم من أنه لا يمكن حصر الناشطين فى إطار الأقلية المهتمة على مجموعة بعينها، ولكن بصورة عامة فإن أهم الفاعلين فى الأقلية المهتمة هم علماء الأمة والحركات الإسلامية وأصحاب الأعمال الثقافية والتعليمية الأصيلة، لقد اتسمت علاقة «الأقلية المهتمة» مع المجتمع الدولى ومشاريعه الاستعمارية بالمواجهة.

ولقد قطع المشروع الاستعمارى القديم المتجدد شوطا كبيرا بمكوناته الخمسة بيد أن الانتصار النهائى لم يُكتب له حتى الآن، فمثلا تجزئة الأمة إلى دول قطع شوطا كبيرا ولكن لا تزال هناك بعض المنظمات التى ترمز إلى الوحدة مثل الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامى بالرغم من دورهما الفعلى المحدود إلا أن وجودهما يظل له أهمية رمزية لفكرة الوحدة التى لا تزال تختلج مشاعر الأمة، وكذلك مرجعية الأمة المتمثلة فى القرآن والسنة، وإنجازات الحضارة الإسلامية لا تزال هى مرجعية لعموم الأمة الذين لا يزالون يحتفظون بـ«ذاكرته التاريخية» لمسار الحضارة الإسلامى الذى تكونت نواته الأولى فى المدينة المنورة وتوارثته الأجيال وأصبح جزءا من مكون هوية الأمة. وكذلك فهى لم تسلم للاستبداد بشكل كامل وتبدى مقاومة تتراوح ما بين المعارضة السلمية والمقاومة العنيفة، وهى كذلك لم تسلم للتغريب وإن كانت المواجهة الراهنة هى فى صالح التغريب، أما المشروع الصهيونى فى إسرائيل لا يزال استقراره والتطبيع معه هو مطلب المجتمع الدولى لأن استقراره هو جزء من استقرار السلام الأمريكى فى الشرق الأوسط، إن استقرار المشروع الصهيونى هو جزء من «وعد السلام» الذى أرادت الدول الاستعمارية إقامته فى مطلع القرن الماضى ولكن المشروع الصهيونى لم يهنأ بالاستقرار ولم يجلب السلام الليبرالى نظرا لما أبدته الأمة وفى قلبها الأقلية المهتمة ـ من مقاومة حقيقية ما زالت مستمرة.

وهكذا فإن هذا المشروع الاستعمارى لم يتحقق بعد أكثر من مائة سنة لأن استقراره يتطلب القضاء على الأقلية المهتمة الحاملة لوعى ما قبل الاستعمار ـ «الوعى المدينى» الذى تأسس فى المدينة المنورة والذى لا يزال يحمل فكرة الأمة ومشروع الأمة ـ والقضاء عليها هو شرط أساسى فى إقامة شرق أوسط جديد، أو إعادة رسم خرائط المنطقة وفق المشروع الإمبراطورى الأمريكى وفق ما أعلنه وزير الخارجية كولن باول أو من سيأتى بعده ـ فهذه الأقلية المهتمة ومعها الأمة ككل تمثل خط المقاومة الأخير للمشاريع الاستعمارية الخمسة التى يعبر عنها المشروع الليبرالى الاستعمارى الأمريكى فى المنطقة فى تجلياته المعاصرة.

* * *

وهو الأمر الذى يجعله مشروعًا متماسكًا وموثوقًا به من الناحية المنهجية. إذ ثمة جدل علمى وفقهى وواقعى حول هذه القضية يمكن أن ننقل هنا المعالم الأساسية عبر منهجية الحجة ونقيضها، وذلك على النحو التالى:

*** الحجة الأولى:**

يرى المعترضون أن المقاومة تعتبر نوعًا من إعلان الجهاد ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وهو أمر لابد فيه من إذن ولى الأمر، وليس لآحاد الناس الحق فى ذلك، ويقدم المؤيدون نقيض الحاجة الأولى التى يعتبرونها مردودة من وجهين: «الوجه الأول: مسألة الإذن فى الجهاد متعلقة بجهاد الطلب لا جهاد الدفع، والواقع أن الولايات المتحدة عدو محتل آسر للأمة بأسرها أو على الأقل أقطار منها، وعليه فالجهاد المعلن ضدها جهاد دفع هدفه التخلص من حالة الأسر الجماعى للأمة، وجهاد الدفع ثمة إجماع على وجوبه بدون إذن الإمام، والوجه الثانى: الواقع أن الهيمنة الأمريكية على الأمة الإسلامية تمثل عدوانًا على الأمة بأسرها، فالقضية لا تتعلق فقط ببلد من البلدان الإسلامية لكى تربط بولى الأمر فى هذا البلد أو ذاك وإنما تتعلق بالأمة جميعها، وبما أنه لا يوجد فى عصرنا خليفة يمثل الأمة جميعًا فالذى يقوم مقامه فى هذه الحالة هم العلماء المسلمون الذين يعبرون عن ضمير الأمة الجمعى، ويحملون لواء الوعى الأصيل ويكرسون أنفسهم لحمل مشروعها فى مواجهة الطغيان الليبرالى والتأله الفرعونى فى الأرض.

ويؤيد ذلك ما قاله ابن عباس وغيره فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩]، أن أولى الأمر هم «العلماء» لأن الأمر للشرع وعلماء الإسلام واجبهم أن يبينوا أمر الله للقوة التنفيذية «السلطان» أو «الخليفة» الممثل للأمة، فإن لم يكن للأمة السلطان الذى يمثلها انتقل الأمر إلى الأمة، وذلك مثل الزكاة التى كان يقوم بها السلطان وفق برنامج شامل وهادف فلما سقط السلطان الشرعى (الخليفة) انتقل وجوب أداء

الزكاة إلى الأمة بالصور المعروفة الآن . . ومع عدم وجود السلطان الشرعى فلا يمكن للإسلام أن يرضى بإسقاط التكاليف عن الأمة بل إن مهمة إيجاد السلطان الشرعى هى واجب الأمة وليس السلطان هو الذى يوجد الأمة.

*** الحجة الثانية:**

يرى المعترضون أن إعلان المقاومة ضد الهيمنة الأمريكية فى ظل التفوق العسكرى والتقنى الأمريكى الهائل يترتب عليه مفاسد عديدة وخسائر كبيرة فى الأرواح والأموال والثروات ويقدم المؤيدون: نقيض الحجة الثانية: التى يعتبرونها مردودة من وجهين:

الوجه الأول: إن مفسدة الهيمنة الأمريكية على الأمة وآثارها التى بيناها سابقًا أشد من أى مفسدة أخرى ولو كانت القتل، ذلك أن الهيمنة الأمريكية تعد فتنة عن الدين، والله سبحانه يقول: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]. . ويقول سبحانه ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ذلك أن «الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما فى الحياة الإنسانية، ومن ثم فهى أشد من القتل، أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة، ويستوى أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلى، أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله، وتزين لهم الكفر به أو الإعراض عنه»[1].

والوجه الثانى: إن مقاومة الهيمنة الأمريكية هو جهاد واجب لدفع العدوان وتحرير الأمة فلا ينظر فيه إلى عتاد المسلمين وعددهم فى مقابل إمكانيات عدوهم، لأنه جهاد ضرورة لا جهاد اختيار، كجهاد المسلمين الكفار يوم أحد ويوم الخندق، فإن الكفار يومئذ كانوا أكثر عددًا وعتادًا من المسلمين بأضعاف.

*** الحجة الثالثة:**

يرى المعترضون أن تبنى استراتيچية المقاومة ضد الولايات المتحدة بأبعادها المختلفة تعرض المدنيين والأبرياء للقتل، وهؤلاء لا يجوز قتلهم ويقدم المؤيدون نقيض الحجة الثالثة: التى يعتبرونها مردودة من أربعة أوجه:

(١) سيد قطب «فى ظلال القرآن» القاهرة، دار الشروق ١٩٨٤، جـ١، ص ١٨٩.

الوجه الأول: ينبغى أولاً تحديد الذين لا يجوز قتلهم فى ديننا حتى لا تلتبس الأمور. . وهؤلاء هم الذين لا يشاركون فى العدوان على المسلمين بشكل من الأشكال، أما الذين يشاركون فى العدوان بشكل مباشر (كالمقاتلين) أو بشكل غير مباشر (كصانعى القرار السياسى والمنظرين للعدوان وواضعى المخطط والمشاريع العدوانية، والداعمين للعدوان ماديًا أو معنويًا) فهؤلاء ليسوا أبرياء ويجوز قتلهم. فقد روى أبو داود والنسائى والبيهقى من حديث سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ قال: أمر رسول الله ﷺ بقتل أربعة وامرأتين) وهاتان المرأتان جاريتان لعبد الله بن خطل كانتا تغنيان بسب رسول الله ﷺ وكذلك يجوز قتل النساء والأطفال والشيوخ إن كانوا غير متميزين بحيث يصعب تمييزهم عن غيرهم، ولا سيما فى حالة المباغتة للعدو، فقد بوب الإمام البخارى بابًا فى صحيحه بعنوان «أهل الدار يبيتون فيصاب الولدان والذرارى»، كما بوب الإمام مسلم بابًا فى صحيحه بعنوان «جواز قتل النساء والصبيان فى البيات من غير تعمد».

والوجه الثانى: استراتيجية المقاومة للهيمنة الأمريكية لا تتعمد قتل الأبرياء كهدف بحد ذاته، ولكن الضرورة أحيانا تلجئ إلى ذلك لاسيما وأن الصراع غير متكافئ، وللضرورات أحكامها، والنهى عن قتل الأبرياء محمول على التعمد والقصد، يقول ابن قدامة فى المغنى: «فإن قيل قد نهى النبى ﷺ عن قتل النساء والذرية، قلنا: هذا محمول على التعمد لقتلهم»، بل قد أفتى حجة الإسلام الغزالى فى المستصفى بجواز قتل الأسرى المسلمين إذا تترس بهم العدو لاقتحام أرض الإسلام. علمًا أن هؤلاء من المجاهدين وما زالت قلوبهم مع المسلمين، ولكن لا خيار أمام المسلمين إلا ذلك.

والوجه الثالث: هدف استراتيجية المقاومة هو إحداث خلخلة فى النظام الدولى الآسر للأمة بالتصدى لمركز الثقل فيه تصديًا مباشرًا ونوعيًا وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه بدون ضرب أهداف حيوية فى مركز الثقل وهذه الأهداف ليست بالضرورة عسكرية، وبالتالى يكون استقصادها أمرًا تحتمه ضرورة المرحلة من الصراع ـ لاسيما مع عدم التكافؤ فى القدرات العسكرية ـ ومن هذا المنطلق تصبح

هذه الأهداف مشروعة لصد العدوان الأمريكى على الأمة بغض النظر عمن كان فيها لأنهم تبع للأهداف بالضرورة، وقريب من هذه الحالة الفترة التى أعقبت الهجرة النبوية والتى حاول فيها الرسول ﷺ اختراق قوافل لقريش فى الطريق بين مكة والشام إما بإرسال السرايا، مثل: سرية حمزة بن عبد المطلب التى اعترضت قافلة لقريش يقودها أبو جهل، وسرية سعد بن أبى وقاص التى اعترضت عيرًا لقريش، أو الخروج بنفسه، مثل: خروجه ﷺ على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى «بواط» معترضًا عيرًا لقريش يقودها أمية بن خلف، ومحاولة النبى ﷺ للتعرض لقافلة لقريش بقيادة أبى سفيان بن حرب والتى كانت سببا لغزو بدر . . فقوافل قريش كانت أهدافا حيوية مشروعة للنبى ﷺ بغض النظر عمن كان فيها ولم تكن هذه القوافل بطبيعة الحال أهدافا عسكرية وإنما كانت تشكل عصب الاقتصاد لقريش.

والوجه الرابع: إن الذين يطرحون مثل هذا الرأى يتناسون أن المدنيين والأبرياء فى الحروب الأمريكية فى الماضى والحاضر يتعرضون للقتل البشع، فصورة الحروب النظيفة صورة خيالية لا يوجد مثال واحد للاستشهاد به، وما يجرى فى العراق وأفغانستان وفلسطين شاهد على هذه الحقيقة.

*** الحجة الرابعة:**

يرى المعترضون أن تبنى استراتيچية المقاومة ضد الهيمنة الأمريكية تؤدى إلى الحرمان من مكاسب كبيرة وتراجع فى الإنجازات التى تم تحقيقها، ويقدم المؤيدون نقيض الحجة الرابعة: تتمثل فى أن المكاسب التى يخشى عليها تعد مكاسب هامشية فى مقابل مكسب التخلص من حالة الأسر الجماعى للأمة الذى هو هدف المقاومة، ولا سيما أن هذه المكاسب تظل فى إطار دول التجزئة وفى إطار الأسر الجماعى للأمة أى تحت الوصاية الأمريكية، ثم إن هذه المكاسب مرحلية، فإذا تصورنا تمكن الأمريكان من الهيمنة الكاملة وإنجاز كل مشاريعها وأهدافها فإن هذه المكسب سوف يتم القضاء عليها، وعلى الذين يراهنون عليها (ومصير زعماء الشمال فى أفغانستان مثال واضح) فأى مكسب يبقى فى ظل مشروع الصهيونية فى قيام دولة إسرائيل الكبرى فى ظل الأهداف المعلنة من مشاريع

الهيمنة الثقافية والسياسية وحتى الاجتماعية من التغريب الشامل إلى تغيير خارطة المنطقة . . وما خفى أعظم هذا هو مجمل الجدل السياسى الشرعى الدائر حول هذه القضية البالغة الأهمية والحساسية حاولنا رصده، كما حاولنا أن نقدم تصوراً استراتيجيا وتاريخيا لمشروع الهيمنة على الأمة مركزين على أن الخط الأخير فى الدفاع ومنبع الإنجاز هو «الإرادة» كما يقول كلاوسويتز «ضرب الإرادة هو الهدف الأساسى من الحرب، وبقاء الإرادة يعنى بقاءً يعنى أن انتصار الخصم ليس شاملاً ومستقراً» ولنا عبرة من النهضة الأوروبية ذاتها، لقد قامت النهضة الأوروبية على ركيزتين هما، الثورة الصناعية والتى تمثل انطلاقًا العلم والمعرفة[١]، والثورة الفرنسية والتى تمثل إعادة ترتيب الأوضاع السياسى. وهى تشكل المرجعية السياسية الراهنة للمجتمع الدولى التى قامت على مبادئها السياسية دول أوروبا، وأهم مبدأ رسخته الثورة الفرنسية هو حق «تقرير المصير» والذى يعطى الأمم حق الانفصال لتكوين دولة خاصة بها، وأضاف الألمان إليها مبدأ أن حدود الأمة هى اللغة وبالتالى أى أمة تتميز بلغة معينة يحق لها تكوين دولة خاصة بها، ولكن إنجاز الثورة الفرنسية الكبير يكمن فى «التهيئة النفسية» التى سبقت الثورة وترسخت بفضلها فى مناطق أخرى، فهذه التهيئة النفسية أطلقت العنان لقوة الإرادة والإنجاز لدى الناس ليتخلصوا من الاستبداد الذى تمثل فى الكنيسة وأمراء الإقطاع، ولذلك فإن القومية فى التحليل النهائى تعنى أن حق «تقرير المصير» هو حق تقرير الإرادة و«القومية» قبل كل شىء هى تعليم ممارسة حق تقرير المصير بصورة مناسبة[٢].

«من لا يحصر نفسه فى حدود معينة وعلى عكس ذلك، ويضحى بكل شىء بما فى ذلك أغلى ما تم وهبه للساكنين هنا فى الدنيا، أى الحياة ذاتها، لا يتوقف

(١) الثورة الصناعية بدأت من تجارب علمية وعملية بسيطة نسبيا وضعت نظرياتها لاحقا وتطورت مع الزمن إلى ما نراه اليوم، وإن لم نكن معنيين بهذا الجانب فى هذه الورقة، إلا أن الملاحظة التى يجب إبداؤها هى أ، الانطلاق العلمى فى هذا الزمن لا يعنى البداية من الصفر ولا يعنى استحالة ردم الفجوة على الأقل فى بعض الجوانب ولا يعنى استحالة ابتداع طرق للتغلب على تقنيات الخصم.

(2) Elie Kedourie, Nationalism., London: Blacwell, 1998, P. 76.

أبداً عن المقاومة، وسوف ينتصر بدون شك على الخصم الذى هدفه فى الحياة أكثر محدودية»[1].

وكما نقلت الثورة الفرنسية المجتمع من حالة سكون وتبعية وأطلقت الإرادة، كذلك كان دور الاتجاهات الإسلامية المعاصرة والتى تنتمى لخط المقاومة، و«سيظل هذا المنهج الإلهى، الذى يمثله «الإسلام» فى صورته النهائية، كما جاء بها محمد ﷺ لا يتحقق فى الأرض وفى دنيا الناس، بمجرد تنزله من عند الله لا يتحقق بكلمة «كن» الإلهية مباشرة لحظة تنزله، ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه ولا يتحقق بالقهر الإلهى على نحو ما يمضى ناموسه فى دورة الفلك وسير الكواكب. إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر، تؤمن به إيمانا كاملا، وتستقيم عليه ـ بقدر طاقتها، وتجتهد لتحقيقه فى قلوب الآخرين وفى حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك، تجاهد الضعف البشرى، والهوى البشرى فى داخل النفوس وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف فى وجه الهدى، وتبلغ ـ بعد ذلك كله ـ من تحقيق هذا المنهج إلى الحد الذى تطيقه فطرة البشر والذى يهيئه لهم واقعهم المادى. على أن تبدأ بالبشر من النقطة التى هم فيها فعلا، ولا تغفل واقعهم، ومقتضياته فى سير وتتابع مراحل هذا المنهج الإلهى.. ثم تنتصر هذه الجماعة على نفسها أو على نفوس الناس معها تارة، وتنهزم فى المعركة مع نفسها أو من نفوس تارة.. بقدر ما تبذل من الجهد، وقدر ما تتخذ من الوسائل المناسبة للزمان ولمقتضيات الأحوال. وقبل كل شىء.. بمقدار ما تمثل هى ذاتها من حقيقة هذا المنهج، ومن ترجمته ترجمة عملية فى واقعها وسلوكها الذاتى[2].

---

(١) هذه القضية هى محور كتاب «محاضرات» للمفكر القومى الألمانى فيخته بعد هزيمة ألمانيا أمام نابليون فى جينا، وكان فيخته معجباً بالثورة الفرنسية والتى خلقت قوة جماعة انصهرت بالدولة ولم يؤمن بأن الإصلاح الإدارى أو إصلاح القوات المسلحة كان سيؤدى الغرض بل كان يؤمن بأن ذلك هو الحل، وهذه هى مشكلة الدولة فى العالم العربى حيث يوجد انفصام بين الأمة والدولة حيث تسعى الدولة إلى بناء مرجعية بديلة كما أسلفنا؟

(٢) المرجع السابق، ص٢٥، وص ٧٧.
سيد قطب، معالم فى الطريق، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٤.

الفصـل الثالـث

الأبعاد الثقافية للاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة

- أولا : بروز الاهتـمام بالأبعـاد الثـقـافـيـة فى دراسـات العـلاقـات الدولية: المؤشرات الأساسية:
- ثانيًا: الاتجـاهات الأسـاسـيـة لإدراك الأبعـاد الثـقـافـيـة للاستراتيجية الأمريكية

بات واضحًا أن الأبعاد الثقافية تحتل محوراً أساسيًا فى الاستراتيچية الأمريكية تجاه المنطقة العربية إن لم تكن المدخل الأساسى للهيمنة عليه ولكن السؤال الذى يطرح بهذا الصدد : هو هل هذه الأبعاد الثقافية تمثل غطاءً أيديولوجيًا للمصالح الأمريكية، ومن ثم تقدم تبريرا فكريا لاستخدام القوة العسكرية ومنطق التدخل والاحتلال؟ أم أنها تملك درجة ما من الاستقلالية من جانب ، والتكامل من جانب آخر أى أنه يحدث نوع من « تكامل المفاهيم » بين القوة الصلبة والعسكرية مع مفاهيم القوة اللينة والناعمة التى تسعى لاكتساب القلوب والعقول فى سبيل تأكيد ودعم هيمنتها وتحقيق أهداف استراتيجيتها فى المنطقة العربية؟

* * *

أولا : بروز الاهتمام بالأبعاد الثقافية فى دراسات العلاقات الدولية : المؤشرات الأساسية

إذ أنه من اللافت للانتباه أن القضايا الاقتصادية والسياسية قد باتت قضايا تقليدية أمام البزوغ الجديد للقضايا الثقافية والفكرية، التى بدأت تظهر فى أعقاب الحرب الباردة، حيث صار «الثقافى» متغيراً معترفًا به من المنظور الغربى الذى كان منصبًا ومركزاً على البعد الأمنى العسكرى فى الخمسينيات والستينيات، ثم على البعد الاقتصادى فى السبعينيات والثمانينيات. إلا أنه فى التسعينيات من القرن العشرين حدثت عملية مراجعة شاملة فى دراسات

العلاقات الدولية. هذه النقلة تعتبر من أهم سمات وانعكاسات مرحلة ما بعد الحداثة؛ وثمة إشارات تدل على أن الأبعاد الثقافية قد صارت هى الأبرز على الساحة العالمية للدراسات السياسية والاستراتيچية فى الاهتمام العلمى والأكاديمى والسياسى ومنها : ـ

١ ـ الحروب التى جرت فى البوسنة وكوسوفا والشيشان وأفغانستان خلال العقد الأخير من القرن العشرين والتى شاركت فيها الإدارات الأمريكية بشكل أو بآخر وبرز فيها الطبيعة الثقافية والدينية.

٢ ـ بروز قضية «المرأة والطفولة» ووضعها فى إطار دينى وأخلاقى، ووقوف الكنيسة الكاثوليكية مع جمعيات المجتمع المدنى الإسلامية فى الكثير من المؤتمرات الدولية بهذا الصدد.

٣ ـ صعود اليمين الدينى المسيحى الإنجيلى والصهيونى فى الولايات المتحدة وإسرائيل؛ وبروز قوته المالية والسياسية والتعبوية .

٤ ـ الجدل الكبير الذى ثار «صراع الحضارات» منذ ثارت المقولات التى قدمها صامويل هنتنجتون فى بداية التسعينيات من القرن العشرين والردود المختلفة من العديد من الجهات والتى استمرت بشكل أو بآخر حتى الآن لدرجة أن البعض يرى فى سياسات الإدارة الأمريكية بعض التطبيقات لهذا الأمر . . .

٥ ـ وجود مؤشرات ملحوظة على تدخل بعض الهيئات الأمريكية فى السياسات والبرامج التعليمية مثل مؤسسة «راند» وغيرها، خاصة فى المواد المتعلقة بالثقافة العامة، مثل الدين والتاريخ واللغة العربية، وقد اعتراف بعض القيادات العربية والإسلامية الفكرية والتنفيذية بذلك بوضوح وصراحة، إذ لا يمكن فصل ذلك عن الإطار الكلى لاستراتيچياتها فى المنطقة. .

٦ ـ زيادة تفاعل العالم من خلال ثورة الاتصالات وآثار العولمة والتى تحركت فى اتجاهين يبدوان متناقضين الأول تعزيز التوجه العولمى والتنميط من ناحية، ومن ناحية أخرى بروز الوعى بالمحلية وبالإقليمية وزيادة الوعى بالهوية.

٧ ـ تآكل القــوة المعنوية لدى الغــرب وخـاصــة الولايات المتـحــدة ـ والإدارة الأمريكية الحـالية لبوش، ومنطقه الجدى فى تقسيم العالم إلى معسكرى «الأخيار» و«الأشرار». فى الفترة الأخيرة.

٨ ـ تداعيات العولمة بعد نهاية الحرب الباردة، واقترانها بإحياء البعد القيمى والقومى لدى الكثير من الشعوب، وفكرة البحث عن «عدو» جديد خاصة بعد سقوط المعسكر الاشتراكى والشيوعى.

٩ ـ التحديث الاقتصادى الشديد، واتساع الفجوة التكنولوجية بين الشمال والجنوب؛ بين من يعرف ومن لا يعرف.

١٠ ـ تبلور مفهوم «القوة الناعمة» Soft Power؛ وتوظيفه على نطاق واسع فى الكثير من الممارسات السياسية ـ خاصة كغطاء لممارسات القوة الخشنة والفظة. Hard Power

ثانيًا: الاتجاهات الأساسية فى إدراك الأبعاد الثقافية للاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة:

تركزت الاتجاهات التى تترجم الإدراك الأمريكى بتنوعاته المختلفة حول هذه القضية البالغة الأهمية « الأبعاد الثقافية فى الاستراتيچية الأمريكية تجاه العالم الإسلامى» إلى الأنواع الأربعة التالية وهى :ـ

* الاتجاه الذى يتناول « الاستراتيچية الأمريكية » كمنطق إمبراطورى، وهيمنة جديدة عالمية على النحو الذى قدمناه فى الفصل السابق.

* الاتجاه الذى يتناول الأبعاد الثقافية فى العلاقات الدولية والنظريات المختلفة المفسرة لها، على النحو الذى نتعرض له فى هذا الفصل.

* الاتجـاه الذى يتناول العـدوان الأمـريكى على العـالم المنطقـة العـربيـة والإسلامية بعد أحداث سبتمبر على النحو الذى قدمه المفكر الكبير طارق البشرى فى دراسته المنشورة حول العدوان على الأمة.

* الاتجاه الذى يتناول مشاريع الإصلاح والتغيير الثقافى الأمريكى فى المنطقة العربية والإسلامية ـ على النحو الذى تقدمه العديد من الدراسات.

ويمكن أن نتناولها تفصيليًا على النحو التالى:

أولا: ـ الاتجاه الذى يتناول «الاستراتيجية الأمريكية» كمنطق إمبراطورى، وهيمنة جديدة عالمية: ـ

يرى هذا الاتجاه فى الدراسات أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر كانت عاملاً مسرعًا فقط للتوسع الإمبراطورى الأمريكى، إذ أنه يفترض بأن هذا التوسع كان دائمًا مسايرًا ومواكبًا للتاريخ الأمريكى. فالقوة أو العسكرة الأمريكية ليست إلا مكونًا أساسيًا من مكونات النموذج الأمريكى ثلاثى العناصر (القوة ـ الثروة ـ الدين/ القيم)؛ وهو ذلك النموذج الذى أثبت حضوره عبر التاريخ؛ بيد أن إدارة بوش الابن ـ التى تولت زمام الحكم منذ عام ٢٠٠٠ ـ قامت بتجسيد هذا النموذج بشكل واضح وبارز، بسبب طبقتها اليمينية المتشددة، سياسيًا ودينيًا. وقد تجلى هذا التجسيد ـ خاصة ـ فى ظل مرحلة تاريخية، انعكس فيها التوهج الأمريكى، حيث صار النموذج الأمريكى نموذجًا منتصرًا، أو بعبارة أخرى: إمبراطورية ممتددة.

ويؤكد هذا الاتجاه أن الخبرة الأمريكية فى التوسع بناء على قوتها الذاتية التى لم يتوافر مثلها فى أية دولة أوروبية ـ أورثت الإدارات الأمريكية المتعاقبة ـ عبر التاريخ الأمريكى ـ شعورًا بالاختلاف والتميز و«الاستثناء» وهو« لفظ له دلالته فى الفكر الأمريكى» عن القوى الأوروبية فى إطار تعاملها مع الخارج. ففى حين كانت أوروبا تتوسع فى إطار توازن القوى الدولية، كانت الولايات المتحدة ترى نفسها مساوية للنظام الدولى؛ بل فوق النظام الدولى؛ ومن ثم ترى أن مصلحتها القومية هى الأولى على جميع مصالح الدول الأخرى. وهى المصلحة القومية الأمريكية التى تريد الهيمنة على العالم فى ثلاث نواح: عسكريًا، واقتصاديًا، وثقافيًا. وبذلك نعود مرة أخرى إلى الثالوث الأمريكى. ويؤكد هذا الاتجاه على أن «الرسالة» الأمريكية هى نفسها المصلحة القومية الأمريكية؛ والعكس صحيح.

فالولايات المتحدة ترى فى ذاتها القائد الذى سيحرر العالم من خلال السيطرة عليه، بالأدوات الأمريكية الثلاث: الثروة، والقوة، والقيم/ الدين. بلغة أخرى، هى ترى فى ذاتها المخلص الذى سينقذ العالم؛ ومن ثم ترى نفسها ملزمة باستخدام جميع الأساليب والطرق الممكنة من أجل تحقيق هذه الغاية «والرسالة السامية»؛ فمن استخدام القيم إلى استخدام التجارة طواعية، إلى استخدام القوة إذا لزم الأمر. وهى بذلك تتقلد أدواراً ثلاثة: العسكرى، والتاجر، والمبشر. وهى الأدوار ذاتها التى كانت أوروپا تمارسها تجاه العالم فى القرن التاسع عشر قرن السيطرة الاستعمارية المباشرة ـ إلا أن الفارق بينهما يكمن فى أنه بينما كانت أوروپا تؤدى هذه الأدوار فى ظل توازن دولى بين قوى أوروپية متعددة فإن الولايات المتحدة تؤدى هذه الأدوار وهى خارج لعبة التوازن الدولى؛ وهو ما يعكس المنطق «الإمبراطورى» والنظرة «الاستعلائية» للرؤية الأمريكية تجاه العالم عبر قرنين من الزمان، منذ نشأتها فى القرن الثامن عشر.

ويرى هذا الاتجاه أن الإدارة الأمريكية الحالية ـ ومنذ أن تسلمت مسئولياتها ـ تعد تعبيراً عن التيار اليمين المسيحى بشقيه الدينى والسياسى. فهى تعبر عن اليمين السياسى بسياساته الاقتصادية والاجتماعية، وعن اليمين الدينى برؤاه «المانوية» للعالم القائمة على ثنائية الخير والشر، كذلك الالتزام بتحقيق الإرادة الإلهية فى تنقية أمريكا والعالم من الشر. وهى تحمل فى طياتها كلا الاتجاهين: الاتجاه الذى يعود إلى قيادة الرئيس ويلسون المتفاخر باستثنائية أمريكا، والاتجاه الذى يعود لقيادة الرئيس روزفلت المؤيد لاستخدام القوة من أجل تعميم هذه الاستثنائية. بعبارة أخرى فإن الحركة «البندولية» للسياسة الخارجية الأمريكية تراوح بين مبدأين: مبدأ «القوة» الذى أرساه روزفلت، ومبدأ «تمثيل القيم الأمريكية» الذى أرساه ويلسون. وقد يبدو أن هناك فارقًا بين الاتجاهين، إلا أنه ليس جوهريًا؛ فالبعد الاستراتيچى فى نهاية الأمر واحد؛ وهو تحقيق السيادة الأمريكية الكونية، ويوضح هذا الاتجاه أن الحزب الجمهورى يرى أن هدفه الأسمى هو تحقيق المصلحة القومية المباشرة للولايات المتحدة، وأن القيم تأتى تابعة لتلك المصلحة. ومن أهم القيم التى روجت لها الإدارة الأمريكية ـ بعد

إسدال الستار عن الحرب الباردة ـ السوق« و«الديمقراطية» ، مستخدمة هاتين القيمتين فى رسم شكل عالم ما بعد الحرب الباردة على قاعدة الرأسمالية الدولية ؛ على أن يتم ذلك فى سياق إعادة تعريف المصلحة القومية الأمريكية بشكل مفصل . بمعنى آخر : أن يفرض على الدول فرضًا اتباع النموذج الأمريكى فى «السوق» وفى «الديمقراطية» ؛ وأنه لا يوجد طريق آخر للتحديث والتقدم سوى اتباع الاستثنائية الأمريكية .

وتذكر بعض الكتابات فى هذا الاتجاه أن المهام التى ركزت عليها إدارة بوش الابن من أجل إعادة تحديد المصلحة القومية الأمريكية كان من ضمنها ـ كما قالت كوندوليزا رايس ـ تجديد علاقات قوية ووثيقة مع الحلفاء الذين يشاطروننا القيم الأمريكية ، ويمكنهم بالتالى المشاركة فى حمل عبء نشر السلام والازدهار والحرية . « ويوضح هذا الاتجاه أن هذه المهام تعكس تكرارًا للمفاهيم التقليدية التى طالما حرصت الإدارات الأمريكية المتعاقبة على إبرازها والعمل بمقتضاها ، وهى أنه هناك «قيما أمريكية» لابد من نشرها بمساعدة الحلفاء الذين ينتمون لهذه القيم ؛ مما يعنى ضمنًا وجود قيم أخرى .

والرؤية الأمريكية للعالم يندرج تحتها ـ بجانب تحقيق السيادة فى كافة المجالات ، وتحقيق المصلحة القومية الأمريكية بغض النظر عن السبل ، والعديد من المدلولات ثقافية ؛ مثل تعميم النموذج الأمريكى على الجميع ، وتعميم النظرة الأحادية الأمريكية للتاريخ وفرضها على جميع الديانات والقوميات . ومن أجل إنزال هذه الرؤية على أرض الواقع ، ستتحرك الإدارة الأمريكية فى ظل ثلاثة محاور : المحور الحضارى الدينى الثقافى ، والمحور الجغرافى السياسى ، ومحور استخدام القوة بكافة أنواعها .

وتخلص بعض الكتابات فى هذا الاتجاه إلى حقيقة مفادها أن الإدارة الأمريكية تستخدم شعار حرب «الخير والشر» وهو شعار ثقافى وقيمى ودينى لتعبئ الجماهير الأمريكية ، وتثير حميتهم تجاه أمنهم القومى «المهدد» ، ومن ثم يتحقق لديها المبرر لعسكرة إمبراطوريتها فى أنحاء العالم ، والذى سوف يفضى

إلى إنعاش الاقتصاد الأمريكى؛ وهو ما يريده الحزب الجمهورى الحاكم الذى يسعى إلى تأمين الداخل ومن ثم تأمين استقرار حكمه.

ثانيا: الاتجاه الذى يتناول الأبعاد الثقافية فى نظرية العلاقات الدولية والتفسيرات المختلفة لها:

يؤكد هذا الاتجاه من الدراسات على العودة الى التأكيد على الأبعاد الثقافية فى بناء نظريات العلاقات الدولية ومن أبرز الكتاب الغربيين الذين تناولوا هذه الدراسات «جورج فيجل» و«بارى روبين» و«جوناثان فوكس» و«جيف هينز». ونستطيع أن نرصد بايجاز رؤية «جورج فيجل»، رئيس مركز «السياسة والأخلاق العامة»، الذى يؤكد على أن العالم يتجه إلى اللاعلمانية Unsecularization of the world حيث ساد الدين ـ فى أواخر القرن العشرين ـ كظاهرة اجتماعية فى جميع أنحاء العالم. ففى الولايات المتحدة نفسها، ظهر المجتمع الأمريكى المتدين بالرغم من توقعات المفكرين العلمانيين بعكس ذلك. وفى الاتحاد السوفييتى السابق، لم يكن للشيوعية أن تسقط إلا من خلال جهود الكنائس الأرثوذكسية، وكذلك الأمر فى بولندا، ورومانيا، وبلغاريا. وفى العالم العربى اندلعت ما عُرف ظاهرة «الإسلام المسلح» ـ مع تحفظنا على المصطلح ـ وأكد ـ والكلام ل«فيجل» ـ نستطيع أن ندحض المقولة التالية: كلما ازداد التمدن والتحديث ازدادت العلمانية. فالدين له الآن دور فعال على الساحة الدولية؛ ولذلك، فعلينا استثماره فى حل الأزمات السياسية بالوسائل السلمية.

وأما «بارى روبين»، فتتمثل وجهة نظره فى أنه كلما زادت المدنية والثقافة والتعليم، صار الناس أكثر حرصًا وبحثًا على هوية أو أيديولوجية تمثلهم. وكلما زادت الأزمات المصاحبة للمدنية، زاد الطلب على الدين كحل لتلك الأزمات. إن التجربة أظهرت بوضوح أن الدين لا تتضاءل أهميته فى حياة البشر وفى حياة الدول؛ وإنما العكس هو الصحيح. والأمثلة كما يدلل «روبين»:

١ ـ بزوغ الأصولية الإسلامية الراديكالية «الجذرية» فى كافة أنحاء العالم الإسلامى بل والعالم أجمع. . . .

٢ ـ الممارسات السياسية للمسيحية، وخاصة الكنيسة الكاثوليكية، وتحولها من القوة المناهضة للتغيير إلى قوى مؤيدة لتحقيق الديمقراطية والعدل الاجتماعى من خلال الطرق الثورية والإصلاحية. ولا ننسى أن الكنيسة الكاثوليكية استطاعت الحفاظ على بقائها طيلة الحكم الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى.

وأما «جوناثان فوكس»، فقد انتقد الدراسات النظرية التى أهملت عنصر الدين فى بنائها، ورأى فى ذلك خطراً على مصالح الدول الغربية. وهو يرى أن الدين يؤثر على العلاقات الدولية عبر ثلاثة طرق: ـ

١ ـ تأثر السياسات الخارجية بالتوجهات الدينية لدى صناع القرار

٢ ـ اعتبار الدين مصدراً للشرعية فى تأييد الحكومة أو سحب الثقة منها.

٣ ـ تخطى الأمور الدينية المحلية للحدود الدولية، ومن ثم تحولها إلى أمور دولية، وهو ما يسميه بالـ "Spillover Effect"، أو الأثر المتعدى للحدود الدولية.

و«جيف هينز» فقد أكد رأيه بقوله أنه «منذ تسعينيات القرن العشرين، يصعب علينا أن نجد دولة واحدة، لا يلعب فيها الدين دوراً محوريًا، يكاد يصل إلى أعلى أولويات الأجندة السياسية؛ حتى فى الدول التى كانت دومًا تعرف بانتهاجها للمبادئ العلمانية. فهناك إذن إحياء عالمى للدين. وأن«هناك علاقة بين إحياء الدين فى العلاقات الدولية وبين العولمة. فمن المعتقد ومن المفترض أيضاً، وأن العولمة هى التى أدت إلى سقوط الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى.» وأن «عودة الدين إلى الساحة السياسية العالمية كان مع اندلاع الثورة الإيرانية فى عام ١٩٧٩؛ تلك الثورة التى برهنت لجميع الشعوب أن الحداثة لا يصاحبها بالضرورة ظهور العلمانية وبعد ذلك، انحسرت الأيديولوچيات الشيوعية والاشتراكية، الأمر الذى ترك الناس فى فراغ فكرى وعقلى، ليعود الدين مرة أخرى ليملأه.» وهو فى النهاية، ينتقد فرضية «هنتنجتون» و«فوكوياما» التى تقول بأن جميع الثقافات السياسية غير المسيحية فى العالم الثالث تحبذ وتؤيد

النظم السياسية غير الديمقراطية. ولا ننسى طبعًا ـ فى هذا السياق ـ أن نذكر «رودنى ستارك» و«وليام بينبريدج» اللذين قاما بإلقاء مبدأ العلمانية فى مقبرة «النظريات الفاشلة».

أما عن كيفية تأثير الثقافة على تشكيل السياسة الخارجية، فقد كان Ole Holsti أول من أسهم فى إنشاء وتدشين الفكر القائم على الربط بين صناعة القرار من جهة، وبين رؤية صانع القرار وفهمه للعوامل الموضوعية من جهة أخرى. بمعنى آخر، «هولستى» يُعتبر أول من أسهم إسهامًا كبيرًا فى المزج بين السيكولوجية واتخاذ القرار. صحيح أن «سيندر» Synder قد أشار من قبل إلى العوامل النفسية فى نظرية اتخاذ القرار، إلا أن «هولستى» هو الذى أعطى تلك العوامل مكانة مركزية. ورؤية صانع القرار .cognitive system وتعنى cognition كل العمليات الذهنية والرؤى الذاتية لكل ما يدور؛ ومن ثم فهى تتضمن الأيديولوچية -ideol ogy، والقيم values، والإدراك .perception وكان التساؤل المطروح هو: على أى مستوى ندرس ال cognitive elements أو العناصر الذهنية؟ هل على مستوى القيم؟ أم على مستوى العقيدة؟ أم على مستوى الإدراك؟ أم على مستوى الأيديلوجية؟ وللإجابة على هذا التساؤل، اجتاز «هولستى» مرحلتين؛ المرحلة الأولى قام فيها بالتركيز على «الإدراك» كمفتاح لاتخاذ القرار؛ وفيها قدم «هولستى» دراسة عن الحرب العالمية الأولى، مدللاً كيف كان عامل «الإدراك» مركزيًا فى صناعة قرار الدخول فى الحرب. أما المرحلة الثانية فقام فيها بتحويل التركيز من «الإدراك» إلى «العقيدة» (حكم ذاتى يتضمن وصف سياسة تجاه ظاهرة معينة) باعتبارها هى المستوى المعرفى الأدق والأنسب لقياس الرؤية الذهنية لصناعة القرار. وقد تم تقسيم العقائد إلى صنفين: العقائد الفلسفية -phil osophical beliefs، والعقائد المتعلقة بالاستراتيچية والتكتيك -instrumental be liefs. ثم طُرح التساؤل: كيف يتم دراسة العقائد السياسية؟ فتم تطوير أداة لقياس العقائد السياسية من خلال code book يتضمن عشر عقائد، نستطيع من خلالها معرفة النسق العقيدى لمتخذ القرار. يسهل عليه التنبوء باختيار البدائل لاتخاذ القرار.

والعقيدة يقصد بها الحكم الذاتى الذى يطوره الفرد أو الجماعة لتقييم ظاهرة معينة، أو تحديد السياسة الواجب اتخاذها تجاهها. وهى من أهم الموضوعات التى درست فى مجال البيئة النفسية للقائد السياسى. والسبب فى ذلك أن الفرد مجبر على تكوين عقائد سياسية كسبيل للتعامل مع البيئة المعقدة التى تحتوى على آلاف المتغيرات، وملايين المعلومات المعقدة المتناقضة. فالفرد ـ المعروف بطاقاته ومهاراته المحدودة وسط هذه البيئة المتناقضة ـ مضطر إلى خلق منطق معين لنفسه، ليربطه بهذه البيئة؛ ومن ثم تبسيط البيئة الموضوعية. باختصار، العقيدة تلعب هنا دوراً «الفلتر»، a filtering process to simplify the environment.

والعقائد تتطور بوعى أو بدون وعى لدى كل فرد، بما فيه القائد السياسى. وهى تشكل نسقًا مع بعضها البعض، يُسمى النسق العقيدى. ولذا، فهناك دائمًا ميل من قبل القائد السياسى إحداث علاقة بين المعلومات وبين النسق العقيدى. ولكن ماذا لوجاءت المعلومات مضادة للنسق العقيدى؟ ماذا يفعل الرئيس حينئذ؟ تقول نظرية السياسة الخارجية أن هناك سبع أدوات: ـ

١ ـ تجاهل المعلومة . . .

٢ ـ البحث عن معلومة أخرى تتفق مع النسق العقيدى . . .

٣ ـ إعادة تفسير المعلومة المتناقضة لتتفق مع النسق العقيدى . . .

٤ ـ التقليل من قدر المعلومة وخطورة تعارضها مع النسق العقيدى . . .

٥ ـ تقسيم المعلومة المتناقضة إلى عناصر معينة. . .

٦ ـ الطعن فى مصدر المعلومة المتناقضة . . . .

٧ ـ القبول بهذه المعلومة وإحداث تغيير فى النسق العقيدى.

ولكن غالبًا ما يتم استخدام الأدوات الستة الأولى، بينما يُغض الطرف عن الأداة السابعة.

وبهذا الصدد نتساءل حول طبيعة العقائد الفلسفية والأدائية للإدارة الأمريكية وكيفية بلورتها فى رسمها لسياستها الخارجية تجاه العالم الإسلامى؟ وكذلك

السؤال حول النسق العقيدى الذى شكله الساسة الأمريكيون، وكيفية قيامهم بإحداث علاقة بين ذلك النسق وبين المعلومات التى يتلقونها بصدد قضايا العالم الإسلامى والحركات الإسلامية . . .

ثالثا : ـ الاتجاه الذى يتناول العدوان الثقافى الأمريكى على العالم الإسلامى بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ :

يؤكد هذا الاتجاه من الدراسات على أن الأبعاد الثقافية غدت واضحة فى الاستراتيجية الأمريكية التى تتم ممارساتها فى أشكال متنوعة من العدوان على المنطقة العربية والعالم الإسلامى، وترى هذه الدراسات أن ثمة أبعادًا أربعة للمتغير الثقافى : ـ

الأول: يرى أن الثقافة تتحرك جنبًا إلى جنب مع المصالح فهى تُستخدم كمحرك مع باقى المحركات الاقتصادية والعسكرية . ومن ثم تستخدم الإدارة الأمريكية البعدين ـ الثقافى (الرخو) والمادى (الصلب) ـ لضمان نجاح عدوانها على العالم . ويندرج تحت هذا التوجه من يتبنى نظرية «الثالوث الأمريكى»، ومن يرى أن التكنولوجيا والرأسمالية الأمريكية تأتى إلى المنطقة العربية والإسلامية محملة بالأفكار والمفاهيم الغربية . كما أن الثقافة تلازم بقية المصالح ؛ بل يمكنها التحرك فى العلن مخفية وراءها المصالح الحقيقية .

أما الثانى: يرى أن الثقافة محرك أصيل فى الاستراتيچية الأمريكية تجاه المنطقة العربية والإسلامية ؛ فهناك من يرى فى البعد الثقافى جزءًا أصيلاً وأساسيًا من إعادة رسم خريطة المنطقة العربية والإسلامية وفقًا للاستراتيچية الأمريكية . بل يراه كامنًا فى الاستراتيچية الأمريكية من قبل أحداث سبتمبر ؛ وما كانت الأخيرة إلا لحظة كاشفة لتسليط الضوء على هذا البعد . و من يؤكد على أن الفجوة الأساسية بين المسلمين والغرب إنما تتمثل فى الفجوة الثقافية . و فى القلب من هذا الاتجاه ما أكده «صاموئيل هنتنجتون» من الصراع والصدام الثقافى والحضارى بين الغرب والإسلام؛ باعتبار أن البعد الثقافى له الأولوية فى التفسير؛ والذى يؤمن بوجود صراع بين الذهنية الإسلامية التوحيدية الأحادية

المنغلقة وبين الذهنية المنفتحة المؤسسة على التعددية والعلمانية . ثم يأتى بعده «برنارد لويس» و«فرانسيس فوكوياما» و«جوديث ميلر» و«جين كريكبا» و«عاموس بيرلموتر» و«مارتن كرامر» و«دانيال بابير» ؛ وهم جميعًا ينتمون إلى التيار الذى يرى فى الإسلام ذاته خطرًا على الثقافة السياسية الديمقراطية .

وأما الثالث : فيرى أن البعد الثقافى ليس إلا وهمًا مصطنعًا لإخفاء المصالح الأمريكية . ومن ثم يرى أن «الصدام الثقافى» أكذوبة ليس لها أى أساس من الصحة ؛ ومن ثم يركز على أنه ليست هناك مشكلة فى الثقافة الإسلامية ؛ وإنما المشكلة فى الجماعات الراديكالية التى تمثل فئة قليلة من سواد المسلمين ؛ و بل يرى البعض فى البعد الثقافى مجرد فخ ، يحاول الغرب حفره للمسلمين للإيقاع بهم فى فكرة «الصراع» ، واستنزاف جهودهم من خلالها ؛ وهناك من يرى استغلال الحكومات العربية والإسلامية للحوارات الثقافية حول الإسلام والغرب ؛ لكونها تصرف الشعوب عن الواقع الذى تتخبط فيه المجتمعات العربية والإسلامية ؛ ولكونها تشغلها عن المعارك الداخلية الحقيقية للإصلاح ، وتوجهها فى النهاية صوب معارك خارجية ثانوية . فالواقع السلبى ـ الذى هو أساس المشكلة ـ يتم ستره عن قصد من قبل الإدارة الأمريكية ومن قبل الحكومات التى تواليها ، لإبراز الصورة السلبية التى ليست هى أساس المشكلة .

والرابع : يذهب إلى أن وزن البعد الثقافى فى العلاقات الدولية والاستراتيچية الأمريكية قد ازداد بعد أحداث سبتمبر ؛ وأنه صار أكثر عمقًا مما كان الوضع عليه قبل ذلك ؛ إذ بات الفكر الإسلامى وأحيانًا الإسلام ذاته محل هجوم وليس فقط «الأصوليين» أو «المتطرفين» . .

وبالتالى فإن السؤال الذى تطرحه كتابات هذا الاتجاه تدور حول تحديد الملامح الثقافية فى الاستراتيچية الأمريكية تجاه المنطقة العربية والعالم الإسلامى ، وطبيعة واتجاهات هذه الأبعاد الثقافية فى تلك الاستراتيچية والجدل المثار بصددها فى دوائر صنع القرار ، وما حولها من الدوائر سواء فى العالم الإسلامى أو الغربى .

رابعا : ـ الاتجاه الذى تتناول مشاريع الإصلاح والتغيير الثقافى الأمريكى فى العالم الإسلامى:

ينطلق هذا الاتجاه من الافتراض القائل بأن العمليات العسكرية الأمريكية لم تحقق الأهداف المرجوة فى العالم الإسلامى؛ الأمر الذى يحتم إيجاد حرب طويلة المدى وأوسع نطاقًا، بحيث تشمل الإرهاب بأشكاله المتعددة. وتؤمن هذه الدراسات بأن المشكلة بين الإسلام والغرب إنما هى مشكلة ذات طبيعة تاريخية، تحتاج إلى صراع طويل المدى الذى يحتاج بدوره إلى حل ثقافى، كما يفترض «مايكل أو. هانلون». وهو حل يتضمن آليات كثيرة، مثل القمم الرئاسية، والجامعات، ومراكز الأبحاث، ومراكز الإنترنت الأمريكية، وتعريف الأمريكيين على الثقافة الإسلامية «المعتدلة»، وبرامج مشتركة بين العالمين، الإصلاح التعليمى فى العالم الإسلامى.. إلخ. ومن الذين يتحدثون أيضًا على شاكلة «أو. هانلون»، «بيتر سينجر» و«ديفيد فروم» و«ريتشارد بيرل» و«ماثيو ليفيت» و«ألكسندر تى. جاى. لينون».

إن هذه االدراسات ترى بأنه هناك وسائل أخرى ـ غير العسكرية والاستخباراتية والقانونية ـ للقضاء على شبكات الإرهاب؛ وهى الوسائل «الناعمة» «الرخوة» التى تنصح هذه الدراسات بإدراجها من ضمن استراتيچية موسعة لمقاومة الإرهاب. وتشتمل هذه الوسائل على الدبلوماسية الشعبية وعلى المعونات الخارجية، كما ذكر «ألكسندر تى. جاى. لينون» فى كتابه The Battle for Hearts and Minds: Using Soft Power to Undermine Terrorist Networks. بلغة أخرى، إن هذه الدراسات تفترض وتؤمن بمحدودية القوة العسكرية الأمريكية فى مقاومة «الإرهاب»، ومن ثم بفشل الدولة القومية الأمريكية فى اقتلاع جذور «الإرهاب». وقد أدرجت بالفعل الإدارة الأمريكية ـ من ضمن استراتيچيتها الشاملة ضد الإرهاب ـ شن «حرب الأفكار» من خلال تشبيه الإرهاب بالرق والاستعباد والقرصنة والقتل الجماعى؛ ومن خلال تأييد الحكومات «المعتدلة» خاصة فى العالم الإسلامى؛ ومن خلال تأييد مسلمى

أوروپا «المعتدلين» «الليبراليين»؛ وأخيراً من خلال استخدام دبلوماسية فعالة تعمل على تسهيل التدفق الحر للمعلومات والأفكار التى تنادى بالحرية. وأخيراً، فإن هذه الدراسات تنظر إلى «الحرب على الإرهاب» على كونها نسق معرفى، ينظر من خلاله صانعو السياسة الأمريكية إلى العالم؛ وأنها حرب أفكار تدور بين الفكرى الأمريكى الليبرالى الرأسمالى والإسلامى الحضارى، كما كانت الحرب الباردة تدور بين الفكرى الرأسمالى والشيوعى.

وبالتالى فإن السؤال الذى يعكس محورية الأبعاد الثقافية فى الاستراتيچية الأمريكية يثير قضايا من قبيل: مشاريع إصلاح البنية الثقافية والمناهج التعليمية، والإقرار بقبول الحوار مع التيار الإسلامى . . إلخ.

* * *

بعض المصادر الأساسية حول هذا الفصل:

* Lennon, Alexander T.J. The Battle for Hearts and Minds:Using Soft Power to Undermine Terrorist Networks. CSIS, 2003.
* Kepel, Gilles. The War for Muslim Minds:Islam and the West. Cambridge:Belknap, 2004.
* Roy, Oliever. Globalized Islam: The Search for a New Ummah. New York:Columbia University, 2004.
* Hehir, Bryan and Michael Walzer. Liberty and Power: A Dialogue on Religion and U.S. Foreign Policy in an Unjust World. Brookings Institute, 2004.
* Lifting up the Poor: A Dialogue on Religion, Poverty, and Welfare. Brookings Institute, 2003.
* One Electorate under God- A Dialogue on Religion and American Politics. Brookings Institute, 2004.
* Rabasa, Angel and Sheryl Benrad and others. The Muslim World after 9/11. Rand, 2004.
* Mamdani, Mahmood. Good Muslim, Bad Muslim: America, the Cold War, and the Roots of Terror. 2004.
* Hoffman, Bruce and others. Countering the New Terrorism. Rand, 1999.
* Frum, David and Richard Perle. An End to Evil: How to Win the War on Terror. New York: Random House, 2003.
* O Brien, Peter. "Is Europe Unable to Assimilate Its Growing Islamic Minority" ULCA International Institute, May 2004.
* Lueders, Michael. "Assimilation: Eine Soziale Frage", Frankfurter Rundschau, December 2004.

* Buchta, Wilfried. "Terrorismusdebatten im Islam", Orient-Journal, Spring 2004.

* Beck, Martin. "Palaestinensische Selbstmordattentate", Orient-Journal, Spring 2004.

* Gerges, Fawaz. "America and Political Islam: Clash of Cultures or Clash of Interests", Carnegie Institute, 2002.

* O - Hanlon, Michael E. "No Long-Term Gains Against Terror Yet", Brookings Institute, Sep.2004.

* Civil Democratic Islam: "Partners, Resources, and Strategies", Rand, 2004.

* Rumsfield, Donald. "Transforming the Military", Foreign Affairs:Vol.81, No.3, 2002.

* Singer, P.W. "The U.S. and the Islamic World", Brookings Institute, 2002.

* Powell, Colin. "A Strategy of Partnership", Foreign Affairs, Jan/Feb. 2004.

* Jenkins, Brian Michael. "Redefining the Enemy: The World Has Changed, But Our Mindset Has Not", Rand, 2004.

* Hoffman, Bruce. "Redefining Counterterrorism: The Terrorist Leader as CEO", Rand, 2004.

* Singer, P.W. "The War on Terrorism: The Big Picture", Parameters, Summer 2004, pp.48 - 141.

* Telhami, Shibley. "The Ties That Bind: Americans, Arabs, and Israelis After September 9/11 ", Foreign Affairs, Mar/Ap. 2004

الفصل الرابع

ظاهرة الأفغان العرب: الجذور التاريخية لتنظيم القاعدة وبدايات مقاومة المشروع الأمريكى(*)

- أولاً: تحديد مفهوم وظاهرة الأفغان العرب
- ثانيا: أسباب نشأة الأفغان العرب
- ثالثا: الرؤى الفكرية والخريطة التنظيمية للأفغان العرب
- رابعًا: ممارسات حركة الأفغان العرب وخريطة العنف السياسى
- خامسا: أبرز عمليات العنف السياسى للأفغان العرب فى البلدان العربية:
- سادسًا: الأفغان العرب والولايات المتحدة الأمريكية

(*) نشرت كدراسة بعنوان «ظاهرة الأفغان العرب . . نحو تحديد علمى للمفهوم»، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، مركز البحوث والدراسات السياسية، (سلسلة أوراق بحثية رقم ١٣٨، ٢٠٠٠م)، وقد نشرت بعد ذلك فى موقع Islamonline.net وتناقلتها - فى حينه - العديد من المواقع، وكذلك فى جريدة القاهرة المصرية.

تمهيـد

كانت بداية ظاهرة الأفغان العرب مع انتهاء الحرب الأفغانية ١٩٩٢م، حيث كان على المتطوعين العرب الذين اشتركوا فى الجهاد الأفغانى ضد الروس، والذين قدرت بعض المصادر أعدادهم بحوالى ستة آلاف - ليسوا كلهم ممن تحولوا فيما بعد أفغانًا عربًا بالطبع - أن يبحثوا عن ساحات أخرى غير أفغانستان؛ لتصريف الرصيد المعنوى والدينى، ولتوظيف الطاقات والخبرات الجهادية والقتالية فيها.

أما المصطلح المعبِّر عن الظاهرة فقد كان أسبق ظهوراً؛ إذ ظهر فى سياق الأحداث الجزائرية ١٩٩٠م، حيث تناقلت أجهزة الإعلام أخباراً عن أحداث عنف سياسى قامت بها مجموعات من الشباب الجزائرى تدرَّب فى أفغانستان، وأطلقت عليهم «الأفغان الجزائريون»، ثم تردَّد المفهوم فى بلاد أخرى مرتبطًا بأحداث عنف سياسى مماثلة، ومنذ ذلك الوقت والظاهرة مُثارة يرتفع الاهتمام بها مع كل حادثة من حوادث العنف السياسى، ثم يخبو مرة أخرى، غير أنها موجودة؛ ولذلك هى محل دراسة وموضع اهتمام من جهات متنوعة، الاهتمامات تبدأ من المراقبين والإعلاميين، وأجهزة الأمن، ورجال السياسة والاستراتيچية، بالإضافة إلى الباحثين والمحللين السياسيين. والجدير بالذكر أن هذا الاصطلاح فيما يبدو مقبولاً أو على الأقل لم يَسْعَ الأفغان العرب لنفى إطلاقه عليهم أو استخدامه فى التعبير عنهم، وهو ما يعطى المشروعية العلمية

فى استخدامه بوجه عام، دون تحميله بالضرورة بكل دلالات السياق الذى ظهر فيه.

ونقصد بالأفغان العرب «مجموعات من المجاهدين العرب من غير الأفغان الذين شاركوا فى الجهاد ضد السوفييت والحكم الشيوعى فى كابول، والذين اتجهوا لمقاتلة حكومات بلادهم أو حكومات دول أجنبية، بعد أن انتهت مبررات الجهاد الأفغانى، ويمكن تسميتهم «مجاهدون بلا حدود» أو «مقاتلون عبر الدول» أو «المقاتلون متعدِّدو الجنسيات»، وهم من الظواهر التى برزت بعد انتهاء الحرب، وكانوا أحد المتغيرات المهمة التى ساعدت على انهيار الاتحاد السوفييتى، وتطوَّرت فى إطار المتغيرات المتعلقة بما يطلق عليه ظاهرة العولمة؛ ولذلك فلم يقيموا اعتباراً يُذكر لظاهرة السيادة المرتبطة بفكرة الدولة القومية، ومن ثَم لا يعتبرون الحدود السياسية بين بلاد العالم الإسلامى أو حتى على المستوى العالمى حائلاً عن نصرة القضايا العادلة من وجهة نظرهم، ومن ثَم يتجهون لنصرة إخوانهم المسلمين عامة، ومن تيارات العنف خاصة الذين يتصورنهم يتعرضون للإبادة، أو واقعين تحت ضغوط خارجية أو داخلية، ويتجهون لمحاربة ما يرونه قوى الظلم والشر على المستوى العالمى.

فالأفغان العرب بالأساس خلاصة ما تبقَّى من المجاهدين غير الأفغان الذين احتضنتهم معسكرات بيشاور، وجلال آباد، وقندهار، ومعسكرات الحدود الباكستانية ـ الأفغانية ما بين ١٩٧٩ ـ ١٩٩٢م، ووفقًا لما يذهب إليه البعض فإن الأفغان العرب ـ رغم اختلاف جنسياتهم ـ يشكِّلون نوعًا من التنسيق فيما بينهم، يصل إلى ما يمكن تسميته «بالدولية الأممية» أو «الجيش الأممى»، وبالتالى أصبح لهم وجود مستقل عن دولهم، الأمر الذى يمكن معه إدراجهم فى دائرة الفواعل أو القوى فوق أو عبر القومية (Trans-NationalActors) فى إطار العلاقات والتفاعلات الدولية، والتى تملك إلى حد ما نوعًا من التأثير على هذا المستوى حسب التحديد العلمى لمفهوم القوى الشعبية الفاعلة على المستوى الدولى.

أولا: تأسيسًا على ما سبق يمكننا أن نحدد مفهوم وظاهرة الأفغان العرب ـ علميًا وفق المؤشرات الثمانية التالية:

١ ـ الأفغان العرب ليسوا من المواطنين الأفغان بل من الشباب العربى والمسلم الذى التحق بالمجاهدين الأفغان، وبعد عودتهم إلى بلادهم ـ أو بلاد أخرى ـ اتجهوا إلى ممارسة أعمال العنف السياسى والقتال، مستفيدين من خبرتهم ومهاراتهم العسكرية التى اكتسبوها أثناء الحرب وبعدها فى أفغانستان، وبالتالى لا مجال للخلط بينهم وبين حركة طالبان أو أية مجموعة من مجموعات الأفغان..

٢ ـ ينتمى معظم الأفغان العرب إلى أجيال شابة، أى من فئة عمرية غالبًا ما تتراوح بين ٢٠ ـ ٣٥ عامًا، وهذا يعنى أنهم عندما ذهبوا إلى أفغانستان ربما كانت أعمارهم تتراوح بين ١٥ ـ ٢٠ عامًا، وهى مرحلة تكوين فكرى، حيث عاشوا سنوات عدة فى المعسكرات الأفغانية فى الثمانينيات ومطلع التسعينيات، وتدرَّبوا على الأسلحة الخفيفة والثقيلة، إلى جانب الخبرات العملية المتنوعة، إضافة إلى تلقينهم جرعات مكثَّفة من الأفكار التى تركز على استخدام القوة لإحداث التغيير المطلوب، وهذه إحدى الاستراتيچيات التى تستند إليها فلسفة الجماعات الإسلامية العنيفة. ويرى بعض علماء النفس أن هؤلاء الشباب عندما يقدمون على تنفيذ عملياتهم لا يراودهم أدنى شك فى أخلاقية عملهم، وأنه مبرر دينيًا؛ بسبب عمليات «غسيل الدماغ»، والتلقين الفكرى والمذهبى التى تعرضوا لها فى هذه السن المبكرة فى معسكرات التدريب الأفغانية وسط أجواء الحرب، فقد تشكَّلت عقولهم، ووجهت سلوكياتهم بناء على هذه العمليات التى قام بها، خاصة بعض قادة حركتى الجهاد والجماعة الإسلامية المصريتين خاصة، وقادة الفكر السلفى الجهادى عامة.

٣ ـ تأسَّست البنية التنظيمية المنتجة لظاهرة الأفغان العرب على جانبين الأول: الجانب الإغاثى، فالمتطوعون العرب فى إطار الإغاثة «الإسلامية» شكَّلوا القطاع الأكبر، وقدَّموا العون للاجئين الأفغان المقيمين على الحدود الباكستانية ـ

الأفغانية، أو داخل أفغانستان ذاتها، ويقدِّر البعض عددهم فى بداية التسعينات بـ١٣ ألف متطوع من الأطباء والمهندسين والمدرسين وغيرهم، والثانى: الجانب القتالى يمثِّله مجموعات المتطوعين المقاتلين الذين دعَّموا الفصائل الأفغانية الذين جاءوا من معظم البلاد العربية، إضافة إلى متطوعين من أقليات إسلامية فى بلدان أوروپية وآسيوية، وقد تلقُّوا تدريبهم على أيدى عناصر تنتمى إلى الجماعات العنيفة فى بلدانها، وطبقًا لأحد التقديرات حول أعدادهم فإنها قد تصل إلى نحو ٦ آلاف شخص.

٤ ـ تلقَّت عناصر الأفغان العرب المقاتلة ثلاثة أنواع من الإعداد خلال سنوات الحرب الأفغانية وما تلاها، تتمثل فى إعداد عسكرى واستخباراتى وأيديولوجى، فعلى صعيد الإعداد العسكرى تلقّوا تدريبات تتصِّل بخوض حرب استنزاف، ما يتطلبه ذلك على مستوى العمليات العسكرية من القدرة على القيام بأعمال حرب العصابات، والمدن، والتفجيرات بمختلف مستوياتها، والقنص، والاغتيال، وغير ذلك، أما الإعداد الاستخباراتى فيتصِّل باستكمال الجوانب السابقة من استطلاع، ورصد، ومراقبة، واتصال، وتبادل معلومات، وتلقِّى التكليفات. أما الإعداد الفكرى والأيديولوجى فيركِّز على التلقين الدينى، وتوصيل مفاهيم ومضامين معينة، تتعلق بالتعامل مع الحكومات، والمجتمعات، والقوى السياسية والدينية المختلفة.

٥ ـ أسفرت خبرة الحرب الأفغانية عن آثار متعددة ترجمت الملامح الهيكلية للوليد الجديد ـ الأفغان العرب ـ من أهمها: من ناحية أولى: إقامة علاقات واسعة مع الجماعات الإسلامية العنيفة على مستوى عالمى، ومن ناحية ثانية: إقامة شبكة علاقات واسعة بأثرياء العرب الذين قاموا بتمويل عمليات القتال فى أفغانستان، ومن ناحية ثالثة: استخدام البيئة الأفغانية كفرصة للتدريب العسكرى، ومن ناحية رابعة: تطوير علاقات واسعة مع الحركات والأحزاب الأفغانية الذين وفَّر بعضهم مظلَّة الحماية على هذه العناصر، وحال دون تسليمهم لحكومات، مثلما فعل الحزب الإسلامى بقياد قلب الدين حكمتيار،

وحركة طالبان الحاكمة فى أفغانستان حاليًا.

٦ ـ انعكست الخبرات السابقة للجماعات الإسلامية العنيفة فى الجهاد على ملامح أداء الأفغان العرب بعد ذلك خاصة فى تقويته، وتكامل أبعاده، وتتمثل الخبرة فى خمسة عناصر: الأول: إعداد «الطليعة المجاهدة» أو الكادر القتالى ذى المهارات العالية. والثانى: القدرة على التخطيط المحكم، وجمع المعلومات عن الأهداف، ومسرح العمليات وعناصره الثابتة والمتغيرة، والقدرة على متابعة الهدف. والثالث: تطوير القدرات الاتصالية الداخلية والخارجية. والرابع: تطوير نظام الأمن التنظيمى الصارم، والربط بين القيادات فى الداخل والخارج. والخامس: استخدام الكادر «الجهادى الطليعى» المدرَّب فى أفغانستان وإعادة زرعه داخل الدولة المستهدفة، سواء لتولى قيادة بعض العمليات أو المشاركة فيها مع عناصر أخرى بما لديها من خبرات واسعة، الأمر الذى ظهر فى عملياتهم العنيفة ضد حكومات بعض الدول العربية وضد أهداف أمريكية.

٧ ـ لا يدخل فى نطاق ظاهرة الأفغان العرب كل من شارك فى الجهاد الأفغانى من «المجاهدين العرب»، فكثير من المجاهدين العرب المشاركين فى القتال ضد السوفييت عاد إلى بلاده، واندمج بعضهم فى الحياة السياسية العامة، وقد نجحت حكومات عربية عدة، مثل: اليمن، والأردن، ودول خليجية فى استيعاب معظم مواطنيها الذين شاركوا فى الجهاد.

٨ ـ يدخل ضمن الأفغان العرب قادة الحركات الإسلامية العنيفة الذين مكثوا فى أفغانستان لفترات ممتدة، والكثير من المتطوعين العرب حتى وإن لم يشاركوا فى القتال، فالذى يجمعهم مع وجودهم بداية فى أفغانستان تقارب رؤاهم الفكرية والحركية، ودعوتهم لاستخدام العنف لتغيير الحكومات، ولمحاربة قوى الكفر العالمى وفق تصورهم، حتى وإن لم يمارسوا أنفسهم القتال. ويرى البعض أنه لا ينبغى المبالغة فى حجمهم؛ إذ يعتقد أن نسبة الجماعات الجهادية المنظمة التى شاركت فى الجهاد الأفغانى من العرب الذين توجهوا إلى أفغانستان ضئيلة من حيث العدد، وإن كانت مرتفعة المهارة من الناحية النوعية، وإن البعض الآخر

يشير إلى النجاح الواسع الذى تلاقيه هذه الظاهرة فى الانتشار، والتعمق الأفقى والرأسى، أى من حيث الكمية والعدد، أو من حيث النوعية، والكفاءة، والعدة.

ثانيا: أسباب نشأة الأفغان العرب

تشكَّلت بدايات ظاهرة الأفغان العرب فى إطار تفاعل متغيرات دولية، وإقليمية عربية وإسلامية، وداخلية أفغانية تدور حول الحرب الأفغانية، وما ارتبط بها بداية بحدوث الانقلاب الشيوعى عام ١٩٧٨م، وتدخل القوات السوفييتية بالاستدعاء؛ لدعم الانقلاب فى مواجهة الفصائل الإسلامية «المجاهدون الأفغان» التى قادت العمل المسلح ضد حكومة الانقلاب والقوات السوفييتية، وقد بدأت الولايات المتحدة فى مساندة مجموعات المجاهدين فى إطار عملية استنزاف ضد الاتحاد السوفييتى، فقامت بتقديم الدعم السياسى والمادى، وأطلقت وسائل الإعلام الأمريكية على المجاهدين الأفغان اسم «المقاتلين من أجل الحرية» (Afghan Freedom Fighters).

وعلى مستوى الإطار الإقليمى العربى والإسلامى بدأت بعض الحكومات بتقديم مساعدات متنوعة، وعلى المستوى غير الرسمى سمحت بحركة تطوع من مواطنيها لدعم أفغانستان، دخل فى إطارها أعداد من أعضاء وقيادات الجماعات الإسلامية العربية المعتدلة والعنيفة لأسباب مختلفة منها قناعات جهادية من ناحية، أو للهروب من أحكام قضائية تصدرها المحاكم العسكرية ومطاردة السلطات لهم لتنفيذها من ناحية أخرى.

وسوف نتناول فيما يلى الإطارين المحلى والإقليمى الذى شهد مولد الظاهرة وشكل ملامحها الأساسية، وبعد ذلك نتناول الإطار الدولى الذى شهد معظم تفاعلاتها.

الإطار المحلى . . القضية الأفغانية وتداعياتها فى الحرب الأهلية :

مثَّلت القضية الأفغانية فى لحظة تاريخية معينة نموذجًا فريدًا لقضية إسلامية تجد خصائصها وفقًا لأحد الباحثين فيما يلى :

١ ـ قضية شعب مسلم وقع تاريخيًا فى منطقة الدوامات العنيفة لصراع القوى الكبرى البريطانية والروسية، ثم الأمريكية والسوفييتية، وعرف عنه المقاومة العنيفة لكل أشكال هذا الوجود وعدم الاستسلام . .

٢ ـ حالة جهاد شعبى ضد غزاة يمثلون إحدى القوتين الكبريين، حينئذ استخدموا عناصر محلية كمقدمة لقهر هذا النضال والجهاد .

٣ ـ صراع بين شعب يتمسك بإسلامه ضد قوى مصمِّمة على اقتلاع الطابع الإسلامى من حياته ومن حياة الأجيال القادمة .

٤ ـ صراع ذو طابع دينى يجرى فى إطار أوسع بين القوى المناهضة للإسلام، والعالم الإسلامى كله، ومن هذه الزاوية فالقضية هى محاولة اقتطاع دولة إسلامية من الحظيرة الإسلامية وإدخالها إلى دائرة الشيوعية حينئذ .

فى إطار التفاعلات الفكرية والتنظيمية والعسكرية للقضية الأفغانية، خاصة فى مراحلها الأخيرة جاء مولد ظاهرة الأفغان العرب أو البذور الأولى لها، بحيث يمكن ربط مولدها بداية بتلك الأحداث، خاصة مع بداية الحرب الأهلية، وإن كانت تطوراتها وتبلورها فيما بعد قد ارتبط بتفاعلات أقوى على المستويين الإقليمى والدولى، حتى وصول حركة طالبان إلى السيطرة شبه الكاملة على الأوضاع فى أفغانستان . .

الإطار الإقليمى العربى والإسلامى : ـ بناء على الرؤية والإدراك السابق للقضية الأفغانية كقضية إسلامية جاء الدعم من الإطار العربى والإسلامى، ويمكن رصده على المستويين التاليين :

١ ـ المستوى الرسمى : تمثل الدعم السياسى بداية فى ردود الفعل الإقليمية الإسلامية والعربية الرسمية والتى جاءت ملتقية مع الاتجاه العام فى الأمم المتحدة،

وأدى هذا التوافق بفضل الدعم الأمريكى إلى استصدار قرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة بإدانة الغزو ومطالبة موسكو بسحب قواتها فوراً، وفى هذا الإطار انعقدت دورة طارئة لوزراء خارجية الدول الإسلامية فى إسلام آباد بناء على طلب بنجلاديش خلال الفترة من ٢٧ ـ ٢٩ يناير ١٩٨٠م تم فيها إدانة الغزو السوفييتى، والمطالبة بالانسحاب الفورى، ومقاطعة دورة الألعاب الأولمبية فى موسكو، ووقف عضوية حكومة كابول فى منظمة المؤتمر الإسلامى؛ بسبب تواطئها مع الغزاة، والمطالبة بقطع العلاقات معها، ومساندة اللاجئين الأفغان، واستمرت القضية الأفغانية تتصدر اجتماعات وقمم منظمة المؤتمر الإسلامى، ويلاحظ أنه على الرغم من ظهور حركة الجهاد بعد الغزو بقليل والسماح لقادته بعرض القضية أمام المؤتمرات الإسلامية، فإن ظهورها رسميًا فى سجلاتها لم يلحظ إلا فى مؤتمر فاس الوزارى فى يناير ١٩٨٦م؛ ليقرر المؤتمر مساندته للمقاومة الأفغانية فى تحرير بلادها، والحفاظ على استقلالها وهويتها الإسلامية.

وقد قرَّر المؤتمر الوزارى الإسلامى فى الرياض عام ١٩٨٩م بمبادرة وجهود سعودية مكثَّفة أن تحل حكومة المجاهدين محل حكومة كابول فى مقعد أفغانستان فى المنظمة، وذلك دون الاعتراف بحكومة المجاهدين، وبأنها بديلاً عن حكومة كابول، وهو موقف وسط استهدف فيما يبدو الضغط على موسكو. ورغم أن الدعم الرسمى العربى والإسلامى كان حالة عامة، فإن الدور الذى لعبته كل من الباكستان والسعودية كان محوريًا فى هذا الإطار، فقد تحملت باكستان العبء الأكبر سياسيًا وعسكريًا وإنسانيًا فى القضية الأفغانية، حيث فتحت أراضيها خاصة فى بيشاور لحكومة المجاهدين، واستقبلت حوالى خمسة ملايين لاجئ أفغانى. وقد تعرَّضت المدن الباكستانية الحدودية للقصف السوفييتى، وتحوَّلت مناطق من أراضيها إلى ساحات قتال بين أطراف الصراع الأفغانى فيما بعد من شكلت البيئة التى ولدت فى أجوائها ظاهرة الأفغان العرب.

أما الحكومة السعودية فقد ساندت الجهاد الأفغانى وتولت مهمة الدعم المادى واللوجستى عبر علاقات مباشرة بدرجة واسعة، وفى هذا الصدد أيضًا قدمت

مصر أيضًا بعض السلاح والذخيرة والمعدات العسكرية عبر الهيئة العربية للتصنيع، كما قدمت دعمًا سياسيًا رسميًا، كما سمحت بجمع التبرعات، وسهَّلت مهمة التطوع أمام من يريد من المواطنين، والواقع أن المستوى غير الرسمى هو الأساس فى نشأة الظاهرة كما سنرى، لكنه استفاد بدرجة كبيرة من الدعم الذى تم تقديمه على المستوى الرسمى، والذى جاء فى بعض الأحيان عن طريق مؤسسات شبه رسمية وحكومية تولَّت العمل الإغاثى بالأساس، وكان أبرزها: الهلال الأحمر السعودى، ولجنة الدعوة الإسلامية، والهلال الأحمر الكويتى، وهيئة الإغاثة الإسلامية، ورابطة العالم الإسلامى، ولجنة البرّ الإسلامية، والهلال الأحمر الإماراتى، والوكالة الإسلامية للإغاثة (إسراءَ)، ومكتب الخدمات العربى، وهى منظمات شبه رسمية حكومية ـ باستثناء الأخير ـ وقد تمَّت الموافقة على تأسيس فروع لها فى بيشاور، وهى تعتبر امتدادًا لمنظمات خارج أفغانستان تعمل تحت إشراف دولها، وبالتنسيق معها، ومع وجود شعبى غير رسمى، حدث نوع من الخلط لدى بعض المحللين بين العاملين فى هذه المؤسسات والعرب الذين قدموا للمساعدة فى القتال والجهاد والذين أصبح يطلق على كثير منهم الأفغان العرب، وقد استمر العمل الإغاثى فى أفغانستان على الرغم من انتهاء الحرب؛ نظرًا لاستمرار مشكلة اللاجئين. ولكن وجود عناصر من المجموعات المقاتلة فى بيشاور، ويعمل بعضها فى إطار مؤسسات الإغاثة سرعان ما أثار قلقًا لدى السلطات الباكستانية والحكومات العربية، وتم تقليص هذا الوجود حتى أنها صُفِّيت تقريبًا فى أعقاب حادث تفجير السفارة المصرية فى إسلام آباد فى نوفمبر ١٩٩٥م.

٢ ـ المستوى غير الرسمى الذى ساهم فى نشأة ظاهرة الأفغان العرب:

يُعَدُّ هذا المستوى أساس نشأة الظاهرة، ويمكن أن نقسمه **إلى قسمين: الأول:** فى مجال الإغاثة، والتعليم، والإعلام. **والثانى:** فى ميدان القتال، وبالطبع لا يمكن نفى وجود علاقة ما بين البعدين، فلا شك أن من بين من تواجدوا فى ميدان القتال والعمل العسكرى من كان يحرص على أن يكون له

دور فى العمل الإغاثى، بل وممارسة دور إعلامى، كما أن بعض العاملين فى مجال الإغاثة يمكن أن يكونوا تلقوا تدريبًا عسكريًا؛ نظرًا لطبيعة عملهم فى ساحة المعارك فى بعض الأحيان، الأمر الذى أدى إلى صعوبة التمييز فى الأحيان بين الفريقين، إلا أنه يبقى من الضرورى والمفيد التمييز بين هذين القسمين، فالقسم الأول يغلب عليه الجانب الإغاثى، وشاركت فيه حركات إسلامية معتدلة، وبخاصة الإخوان المسلمين، وكثير من الدعاة المستقلين. . أما القسم الثانى الذى ركَّز على القتال والتدريب العسكرى فيمكن أن نرصد فيه جانبين أيضًا: أحدهما المتطوعون العرب من أجل نصرة القضية الأفغانية، ومعظمهم غير مرتبط بتنظيمات، والثانى: أعضاء الجماعات الإسلامية العنيفة الذين أدركوا أهمية القضية الأفغانية كساحة للتدريب وممارسة العمل العسكرى استعدادًا للجهاد مستقبليًا ضد حكومات بلادهم أو القوى العالمية المحاربة للإسلام. . .

العلاقة بين القسمين الإغاثى والقتالى وفَّرت ـ ولو بشكل غير مباشر ـ البيئة الملائمة لظهور الأفغان العرب، كأحد الآثار غير المباشرة للحرب الأفغانية وما رافقها وأعقبها من تداعيات، **ولفهم ذلك يمكن أن نفصل بعض الشىء فى القسمين من العمل فى إطار القضية الأفغانية.**

(أ) القسم الأول: العمل الإغاثى غير الرسمى: ـ يمكن أن نرصد دور نقابة الأطباء المصرية التى كان يسيطر على مجلس إدارتها حينئذ جماعة الإخوان المسلمين، والتى قدَّمت الدعم المادى عن طريق جمع الأموال، وإرسال نخبة من الأطباء ذوى الكفاءة، وقد أمدَّت النقابة المؤسسات الإسلامية الإغاثية الحكومية منها والشعبية بطاقات بشرية كبيرة من الأطباء، وكانت النقابة قد بدأت جهودها منذ عام ١٩٨٤م، واستمرت حتى أوائل التسعينيات.

كما قدَّم الإخوان المسلمون أشكالاً أخرى من الدعم المباشر، مثل: جمع التبرعات، والأموال، وإرسال مستشارين لقادة الجهاد، وإرسال مدرسين وأطباء من كافة أنحاء العالم، وتنظيم الندوات واللقاءات مع الجماهير. كما وفَّروا زخمًا

إعلاميًا من خلال الصحف والمجلات التى يصدرونها أو القريبة منهم، مثل: «الدعوة» و«لواء الإسلام» المصريتين، و«الإصلاح» الإماراتية، و«المجتمع» الكويتية، ومن خلال المراكز الإسلامية المنتشرة فى أوروبا وأمريكا، وكذلك أسَّسوا مؤسسة إغاثية «لجنة الدعوة الإسلامية» اهتمت بإنشاء المدارس والمعاهد فى المخيمات وفى بيشاور، وأنشأت معاهد عليا مثل المعهد «الشرعى»، وجامعة فى ضواحى بيشاور أطلق عليها جامعة «الدعوة والجهاد»، وعلى صعيد الدور السياسى حرص الإخوان على الالتقاء بقادة الجهاد الأفغانى دوريًا لتوحيد صفوفهم، وقد نجح المرحوم كمال السنانيرى عام ١٩٨٠م فى جمع قادة المنظمات الأفغانية فى مكة المكرمة، حيث وقَّعوا وثائق تنازل عن قياداتهم لمنظماتهم، واستعدوا للانضمام إلى تنظيم واحد هو «الاتحاد الإسلامى لمجاهدى أفغانستان» الذى جمع المنظمات المتصارعة ورأسه عبد ربِّ الرسول سيَّاف، ولكنه تمزَّق بعد شهور، وتُوفِّى السنانيرى فى السجن بمصر فى ظروف غامضة بعد إلقاء القبض عليه ضمن حملة اعتقالات رموز المعارضة المصرية فى آخر عصر السادات ١٩٨١م، وقد استمر الإخوان فى القيام بدور الوساطة، وتقريب وجهات النظر بين فصائل المجاهدين، وبينهم والحكومة الباكستانية، فقد قام المرحوم صلاح شادى فى ١٩٨٩م بجهود من هذا القبيل عقب توقيع باكستان اتفاقية جنيف فى أبريل ١٩٨٩م والتى رفضتها الفصائل الأفغانية.

(ب) العمل العسكرى والنشأة الحقيقية للأفغان العرب: مثلت الحالة «الأفغانية» حالة نموذجية لاستقطاب المتطوعين من جميع أنحاء العالم؛ نظرًا لما تمثله من تطبيق لفريضة دينية «الجهاد»، وكان لكثير من العلماء فى مصر والسعودية وباكستان وأفغانستان دور كبير فى تعبئة المتطوعين، وبخاصة من العرب للجهاد فى أفغانستان؛ إذ وجَّه شيخ الأزهر حينئذ، وعلماء مسلمون مثل عبد العزيز بن باز، وسعيد حوى، وعبد الله علوان، والمطيعى، وعبد المجيد الزندانى نداءات بضرورة دعم الجهاد الأفغانى، واعتبروا ذلك فرض عين «وقد تدفَّق آلاف المتطوعين وأكثرهم من العرب للجهاد فى أفغانستان، وإذا كان معظمهم التحق بأعمال الإغاثة، فإن بضعة آلاف منهم توجهوا لجبهة القتال.

وقد زادت المشاركة العربية فى النصف الثانى من الثمانينيات، خاصة فى الفترة من ٨٦ – ١٩٨٨م، وبلغت ذروتها خلال عامى ١٩٨٧م و١٩٨٨م، حتى وصل وفق بعض التقديرات إلى ألفين. وأبرز المعارك العسكرية التى شارك فيها العرب مشاركة ملموسة هى معركة «جاجى» التى وقعت عام ١٩٨٧م، كما كان العرب يقاتلون فى هذه المعركة بوحدات مستقلة، ثم جاءت بعدها معارك «جلال آباد» التى استشهد فيها حوالى ٧٠ عربيًا، وكذلك معركة «مأسدة الأنصار» ١٩٨٧م، وهى موقع أنشأه أسامة بن لادن للشباب العربى الداعم المجاهدين الأفغان، وقد كان البُعْد المعنوى أيضًا من أبرز أدوار المجاهدين العرب، وبذلك أعطوا بعدًا نوعيًا وكيفيًا للجهاد، وكانت وجهة نظرهم ضرورة الاشتراك فى الجهاد الكشميرى حال الفراغ من الجهاد الأفغانى. ومن جانب آخر كان للوجود العربى سلبياته، ومن أبرزها نقل الخلافات والصراعات بين الجماعات الإسلامية إلى أفغانستان، فمثلاً التراشق بين التيار العنيف والمعتدل، فقد كان تنظيم الجهاد يرى أن الإخوان المسلمين يميلون إلى السلام والدعة ويبتعدون عن القتال، وأنهم يتَّجهون فى دعم المجاهدين إلى أعمال الإغاثة والخدمات. أما الجهاد والجماعة الإسلامية المصرية والسلفيون، فكانوا يعتقدون أن القتال مع المجاهدين الأفغان هو الطريق الوحيد لدعم الأفغان. وكانت تلك نقطة بداية ظهور «الأفغان العرب»، وتحول «المجاهدين العرب» إلى «الأفغان العرب».

التحول من «المجاهدين العرب» إلى «الأفغان العرب».. ثمَّة بعدان رئيسان أسهما فى تحول «المجاهدين عرب» إلى «أفغان عرب»:

أولهما: خروج القوات السوفييتية من أفغانستان فى عام ١٩٨٩م، ثم سقوط الحكومة المدعومة من الاتحاد السوفييتى فى كابول فى أبريل عام ١٩٩٢م، والذى تم على إثره تفجر صراع عنيف وحرب أهلية ما زالت قائمة منذ يناير ١٩٩٣م. بدأت بين حكمتيار وربَّانى وأحمد شاه مسعود إلى أن جاءت حركة طالبان، فاكتسحت الفريقين معًا، وسيطرت على معظم الأراضى الأفغانى لأسباب ليس هنا موضع تفصيلها، وقد نجم عن ذلك أن فقد وجود المتطوعين العرب مبرراته،

فلم يَعُد هناك جهاد يمكن دعمه، وإنما حرب أهلية وفتنة بالمفهوم الإسلامى، وعندما شارك المتطوعون العرب فى هذه الحرب الأهلية، فإنهم لم يصيروا «مجاهدين عربًا» وإنما «أفغانًا عربًا»، وصار دورهم فاقدًا للمبرر الشرعى ـ وفق الرؤية الفقهية الإسلامية ـ، وكان هؤلاء فى الفترة التى سبقت مباشرة سقوط نظام كابول وحكم نجيب الله فى أبريل ١٩٩٢م قد توزعوا على الفصائل الأفغانية ـ وفقًا لبعض المصادر ـ حزب إسلامى (حكمتيار) ٦٠٠ عربى، واتحاد إسلامى (سياف) ٥٠٠ عربى، وجمعية أهل الحديث (مولاى جميل الرحمن) ٣٠٠ عربى، وفى القتال بين الفصائل الأفغانية سقط عشرات قتلى من بين الموجودين فى صفوف حكمتيار أثناء المواجهة مع قوات الجمعية الإسلامية بقيادة برهان الدين ربَّانى وأحمد شاه مسعود. وقد ناصروا حكمتيار عندما رفع شعاره الداعى إلى إقامة دولة إسلامية، بينما كانوا يعتبرون أحمد شاه مسعود ضد ما يرونه المشروع الإسلامى، وفى النهاية استقر البعض منهم فى أفغانستان يقاتلون مع فصيل ضد الآخر؛ لضمان الإقامة فى حماية ذلك الفصيل أو ذاك، وخاصة بعد انقطاع الأمل فى العودة إلى بلادهم.

ثانيهما: قدوم بعض قيادات حركتى «الجهاد والجماعة الإسلامية المصرية إلى أفغانستان منذ منتصف الثمانينيات، مدركين أهميتها كساحة وفرصة تاريخية للتدريب المسلح، وقد ساعد على ذلك أن نفس الفترة شهدت تراجعًا فى دور الإخوان القيادى فى الساحة الأفغانية بعد وفاة «السنانيرى» فى المعتقل بمصر، واغتيال «عبد الله عزام» بسيارة مفخَّخة، إضافة إلى خروج السوفييت كما أسلفنا، الأمر الذى صبَّ فى مصلحة قادة حركات العنف، وأدى إلى ظهور وتبلور ظاهرة الأفغان العرب، فقد كان أيمن الظواهرى من أوائل قيادات تنظيم الجهاد الذين وصلوا إلى أفغانستان (يناير ١٩٨٥م) بعد الإفراج عنه فى مصر، ويُعَدُّ مؤسس الوجود الجهادى فيها، والذى تحوَّل إلى الأفغان العرب فيما بعد، والتقى الظواهرى بأسامة بن لادن وهو مليونير عربى سعودى كان يرغب فى دعم الجهاد الأفغانى، ولم يكن يتبنَّى فى البداية منهج العنف والتغيير بالقوة كالظواهرى، بل كان أقرب إلى رؤية الإخوان المسلمين، وكان عبد الله عزَّام قد

دعاه لتأسيس معسكرات للمجاهدين، ومنها معسكر «الخلافة» الشهير الذى مرَّ به كل الأفغان المصريين، كما شهدت الفترة من ٨٧ ـ ٩٤ نزوحًا جماعيًا لكثير من قيادات الجهاد والجماعة الإسلامية إلى أفغانستان، مثل: رفاعى أحمد طه (١٩٨٧م)، ومحمد شوقى الإسلامبولى، ومصطفى حمزة (١٩٨٨م)، وهكذا أصبحت السيطرة على المتطوعين العرب شبه مطلقة للجماعات الإسلامية العنيفة. وقد كان المصريون يتجمعون فور وصولهم إلى بيشاور فى «بيت الأنصار» أو «بيت القاعدة»، ثم يتم توزيعهم بعد ذلك على المعسكرات المختلفة فى الأراضى الأفغانية، وقد أصرَّت الجماعة الإسلامية المصرية على إقامة معسكر خاص بها قبل نهاية الحرب، هو «الخلافة» فى عام ١٩٨٩م، وهو ما يؤكد على تفكير الجماعة فى توظيف هذه الأوضاع، والتدريب على عمليات لا علاقة لها بالقتال فى الجبهة الأفغانية. كما كانت التجربة الأفغانية فرصة لالتقاء العناصر العربية والتنسيق فيما بينها، ولعلَّ قيام سوريين وفلسطينيين بتدريب العناصر العربية، وهو ما يؤكد مدى قوة العلاقات بين هذه المجموعات، وقد استفادت عناصر «الأفغان المصريين» من هذه العلاقات فيما بعد، وبصفة خاصة مع عناصر «الأفغان اليمنيين»، حيث شكَّلت اليمن محطة أساسية للعناصر المصرية فى طريق العودة، كما تورَّطت عناصر يمنية فى نقل تكليفات من الظواهرى إلى أتباعه فى مصر المتهمين فى قضية «طلائع الفتح»، حسبما أشارت تحقيقات القضية. كما شاركت عناصر مصرية فى عدد من عمليات العنف التى جرت فى اليمن عام ١٩٩٤م، وحادث خطف السياح الأجانب فى نهاية ١٩٩٨م ومطلع ١٩٩٩م، وقد سبق التعرض لتأثير خبرة التجربة الأفغانية على «الأفغان العرب»، خصوصًا فيما يتعلق بشبكة العلاقات والاتصالات الوثيقة بين مجموعات تنتمى إلى التيار الجهادى السلفى مختلفة من بلدان متعددة، وصلت إلى حد تشكيل ما يعتبره البعض «بالأممية الإسلامية» أو «الجيش الأممى الإسلامى»، وما استفادته عناصر الأفغان العرب من خبرة قتالية، وتكوين كادر قتالى محترف، كما مر وقدمنا فى تعريف الأفغان العرب.

ثالثا: الرؤى الفكرية والخريطة التنظيمية للأفغان العرب

يصعب القول بوجود رؤية فكرية كلية متماسكة خاصة بالأفغان العرب تميزهم عن بقية الفصائل الإسلامية التى تستخدم العنف السياسى أو الجهاد وفق إدراكاتهم فى التعبير عن مواقفهم، فهم بداية كغيرهم من التيارات الإسلامية يقولون بمرجعية القرآن الكريم والسنة الشريفة ـ وفق فهم السلف الصالح ـ فى تحديد مواقفهم وتصرفاتهم وأفعالهم، ولكن ذلك لا يعنى عند الممارسة العملية وحدة أو حتى عدم تناقض فى تلك المواقف والأفعال، واعتقاد كل جماعة أنها تمثل الموقف الشرعى الصحيح والأجدر بالاتباع.

(أ) الرؤى الفكرية للأفغان العرب..

يمكن أن يرصد وجود رافدين أساسيين شكَّلا معا الرؤى الفكرية للأفغان العرب:

الرافد الأول: يتمثل فى الخلفية الفكرية التى انحدروا منها، أى الإطار الفكرى للجماعات التى كانوا ينتمون إليها سابقًا قبل أن يتبلوروا فى طور تنظيمى جديد هو الأفغان العرب، وبشكل عام فإن أبرز ما يميزهم هو انتمائهم إلى خط فكرى سياسى يطلق عليه الاتجاه الجهادى السلفى. . .

الرافد الثانى: يتمثل فى عملية التنشئة السياسية والتلقين والشحن العقائدى الذى تلقوه فى أثناء الحرب الأفغانية وفى أعقابها، والذى سبق الإشارة إليه؛ إذ أنه فى بداية الحرب الأفغانية تكامل الدور الذى لعبته أدوات الإعلام العربى والإسلامى مع الدور الذى قام به العلماء الرسميون وغير الرسميين الذين أصدروا الفتاوى حول الجهاد فى أفغانستان وفرضيته، ولعبوا دورًا مهمًّا فى الدفع بحركة التطوع، وفى أثناء العمل العسكرى كان يجرى إعداد مواز لا يقل أهمية فى النواحى الفكرية والعقائدية والعبادية؛ لشحن الشباب ودفعهم للشهادة، وإذا كان البعض يرى أن بعض قادة الفصائل الأفغانية كان متأثراً بالتراث الفكرى للإخوان، مثل برهان الدين ربانى وعبد رب الرسول سيَّاف،

و«صبغة الله مجددى» الذى التقى قادة الإخوان فى الخمسينيات، وتدرَّب معهم على السلاح أثناء قتال الإنجليز فى منطقة السويس، فإن القسم الأكبر كان أقرب إلى التيار السلفى الجهادى مثل حكمتيار وبقية قيادات الفصائل، وقد تلازمت هذه العملية حتى بعد انتهاء الجهاد فى أفغانستان والدخول فى دوامة الحرب الأهلية، وحتى سيطرة حركة طالبان على معظم أراضى أفغانستان؛ وفى إطار هذه التنشئة تم تعميق معانى الاستشهاد، والمؤامرة الموجَّهة من أعداء الإسلام للقضاء عليه. . وقد تفاعل الرافدان فى إطار المصادر الفكرية للأفغان العرب لتشكيل الملامح الأساسية لهذه الرؤية، ولا شك أن مصادر الفكر الجهادى توجد جذورها فى قراءات وتفسيرات معينة لاجتهادات ابن تيمية، وابن عبد الوهاب، وابن رجب الحنبلى، وغيرهم من علماء السلف، ومن المعاصرين فى أفكار سيد قطب، وأبو الأعلى المودودى، وقد طوَّرت جماعة الجهاد فى مصر رؤيتها عبر إعادة إنتاج وتأويل أفكار المرحوم سيد قطب حول «الحاكمية» و«الجاهلية» و«العصبة المؤمنة» من خلال رؤية معينة مدَّتها على الواقع فأنتجت فلسفة المواجهة، ومعالم التغيير الثورى، والحركة الإسلامية، والعمل الحزبى إلخ، وبلورت الجماعة الإسلامية فى مصر رؤيتها فى أصناف الحكام وأحكامهم، وحكم الطائفة الممتنعة عن شعيرة من شعائر الإسلام، والقول الفصل فى حكم العذر بالجهل إلخ، وقبل ذلك هناك الرؤى المضمنة فى كتيب «الفريضة الغائبة» الذى كان الأساس الذى تمَّ حوله بلورة العمل الذى قاد إلى مقتل الرئيس السادات ١٩٨١م، وأطلق عليه تنظيم الجهاد فيما بعدك ودون دخول فى تفاصيل فقهية وتأصيلات شرعية، **فإننا نستطيع أن نرصد الملامح والعناصر الأساسية للرؤى الفكرية للأفغان العرب فى التالى:**

١ ـ تعتبر الحكومات القائمة فى جميع بلدان العالم العربى والإسلامى هى أنظمة غير شرعية، توالى أعداء الإسلام من اليهود والنصارى، وتعادى شريعة الإسلام والذين يدعون لتطبيقها. .

٢ ـ يُعَدُّ الجهاد والقتال هو الوسيلة الأساسية لتغيير هؤلاء الحكام والحكومات، وجهادهم فرض عين على جميع المسلمين حتى يتم تغييرهم.

٣ ـ يجب رفض التعامل مع مؤسسات الدولة، مثل دخول البرلمان، أو إقامة أحزاب سياسية؛ لأن ذلك يؤدى إلى تدعيم دولة الكفر ولا يحطمها، ولكن يمكن دخول بعض المؤسسات مثل المؤسسة العسكرية؛ لكى يتم توظيف قدراتها فى الإطاحة بهذه الأنظمة.

٤ ـ تؤمن بعض فصائل الأفغان العرب بأسلوب الانقلاب العسكرى للاستيلاء على السلطة، وتؤمن أخرى بأسلوب الثورة الشعبية، فى حين ترى ثالثة الدخول فى عمليات عنيفة ضد هذه الأنظمة من قبيل الضغط عليها لتحقيق أهدافها . .

٥ ـ يُعَدُّ مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قضية محورية فى منهجية الأفغان فى التعامل مع قضايا الدولة والمجتمع فى آن واحد، وهى ترى أن تطبيق المبدأ يباح لآحاد المسلمين ودون أذن من السلطة المخْتصة، ما دامت قد تحققت شروطه الشرعية . .

٦ ـ تختلف فصائل الأفغان العرب فى موقفها من المجتمعات العربية والإسلامية، فالبعض يرى أن هذه المجتمعات كافرة مرتدة، والبعض الآخر يكتفى بوصمها بالجاهلية والتى لا تمتد إلى الاعتقاد، ولكن تشمل التصورات، والتشريعات، والعادات والتقاليد، والبعض الثالث يراها على الأصل وهو الإسلام، ولكنها تحوى نخبًا معاونة للحكام علمانية وعميلة تأخذ نفس الحكم الشرعى للحكام، وفى هذه الحالة تُعَدُّ الشعوب مغلوبة على أمرها فى ظل هذه الحكومات غير الشرعية.

٧ ـ ترى هذه الجماعات الفئات السابقة بوصفها طوائف ممتنعة عن تطبيق شعائر وشرائع الإسلام؛ ومن ثم فإنها ترى ضرورة محاربة هذه الطوائف، وناقشت بعض الفصائل ما أسمته حكم الترُّس، فإذا تخفَّت أو ترَّست الطائفة الواجب شرعًا قتالها وراء أخرى وجب قتال الجميع، ولو كانت الفئات المترَّس بها من الجماعة المسلمة فإنهم يقتلون ويبعثون على نياتهم . .

٨ ـ تبنِّى فصائل الأفغان العرب مواقفها من المخالفين على أساس قواعد الولاء للذين آمنوا والبراء من الذين كفروا، ويشملون جميع غير المسلمين، وهم غالبية أهل الأرض، ويقسمونهم وفق مقاييس الفقه إلى محاربين ومعاهدين. . . إلخ، وهم يعتبرون العالم الغربى وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية من المحاربين الذين يجب محاربتهم . .

٩ ـ تختلف فصائل الأفغان العرب فى تحديد العدو الرئيسى، ففيما تراها بعض الفصائل فى الأنظمة الحاكمة فى بلدانها التى انحدرت، وذلك امتدادًا للخط الجهادى التقليدى فى أن قتال العدو المباشر والقريب أولى من قتال البعيد وغير المباشر، بينما تراه فصائل أخرى فى اليهود والنصارى (إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، باعتبارهما العدو الأساسى والأخطر)، فى حين تراه فصائل ثالثة فى العدو الحالّ فى أية منطقة تتم فيها عملية محاربة للمسلمين أو الأقليات الإسلامية، كالوضع فى كشمير، أو البوسنة، أو الشيشان، أو ألبانيا. . . إلخ. .

١٠ ـ يرفض الأفغان العرب الجاهلية الغربية الحديثة لماديتها وكفرها، فالديمقراطية فكرة جاهلية، تمخضت عن تطور المجتمع الأوروبى على طوال تاريخه منذ زمن الإغريق، وهى تسعى لتحكيم منهج الأغلبية ولو كان باطلاً، ودون وضع ضوابط، فالديمقراطية تعطى البشر الحق المطلق فى التشريع؛ ولذلك فليس هناك علاقة مطلقًا بين الديمقراطية والشورى.

١١ ـ يرفض الأفغان العرب الفكرتين الوطنية والقومية باعتبارهما روابط أرضية جاهلية، وأنه لا جنسية للمسلمين إلا فى عقيدتهم، وبناء على ذلك فإنهم لا يقرُّون بفكرة المواطنة باعتبارها أساس الانتماء ومعيار تبادل الحقوق والواجبات، ويتمسكون بفكرة عقد الذمَّة باعتبارها أساس التعامل مع الأقليات داخل الكيان والدولة الإسلامية.

١٢ ـ يرى الأفغان العرب العلمانية فكرة غربية تتناقض مع الإسلام، ودين جديد أُريدَ له أن يحلَّ محلَّ الإسلام، ومن ثَم فإن القوانين الوضعية كفر بواح .

١٣ ـ يتفاوت الأفغان العرب فى القضايا الخلافية الفقهية، ولكنهم على كل الأحوال يميلون إلى الأخذ بالدليل الشرعى وفق فهم السلف الصالح، مهما كان مفوتًا لمصلحة ظاهرة ونفس القضايا الخلافية يتمسك بها الأفغان العرب، فنشرة الأنصار على سبيل المثال كانت ترفض نشر الصور على صفحاتها، والبعض منهم يتشدد فى الأخذ بسنن الهدى الظاهر، ولكن الغالبية لا تأخذ به لاعتبارها تقيم فى دار حرب، وتعيش حالة حرب وجهًا دائمة ضد قوى الكفر العالمى . . .

وهكذا تتواصل أفكار الأفغان العرب بصورة تكاد تكون تكرارية لفكر الحركات الإسلامية الجهادية، وذلك طبيعى؛ لأنهم امتداد لهذه الحركات، بل إن قادتها هم نفس قادة الأفغان العرب، والذين أسهموا فى بناء هياكلهم وأطرهم التنظيمية لمحاولة نقل بعض هذه الأفكار ـ وهى وفق تصوراتهم أحكامًا شرعية واجبة التنفيذ ـ إلى واقع الممارسة العملية.

(ب) الأطر والهياكل التنظيمية للأفغان العرب..

بداية تتنوع الخريطة التنظيمية لجماعات الأفغان العرب وتتعدد هياكلها، ويعود غياب الإطار التنظيمى الواحد إلى تعدُّد المنظمات والجماعات التى ينتمون إليها، فكثير منهم كما رأينا ينتمون إلى تنظيمات قديمة نشأت فى بلادها الأصلية قبل الانخراط فى الحرب الأفغانية، مثل الجماعة الإسلامية والجهاد، وآخرين غير منضوين تحت أية أطر تنظيمية أصلاً، كما أن هناك تنظيمات نشأت، ثم سرعان ما اندثرت مثل جماعة «الخلافة» و«التكفير والهجرة» وجماعة «الفطرة»، بالإضافة إلى ذلك هناك منظمات وجمعيات غرضها الدعاية أو العمل كغطاء لتنظيم غير شرعى، وهناك جماعات قطرية لها مثل جيش عدن، والجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا) فى الجزائر؛ ويمكن أن نرسم خريطة تنظيمية مبسطة **على النحو التالى:**

١ ـ الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد: نشأ التنظيمان فى مصر فى السبعينيات عبر سلسلة من التطورات التنظيمية، وكان أبرز محطاتها عام ١٩٨١ عندما

انضمت «الجماعة الإسلامية» فى جامعات الصعيد إلى المجموعات «الجهادية» فى القاهرة بقيادة محمد عبد السلام فرج مكونين تنظيم الجهاد الذى نفذ عملية اغتيال السادات وأحداث أسيوط ـ فى حين انضمت ذات الجماعة فى بقية الجامعات بالوجه البحرى إلى جماعة الإخوان المسلمين ـ ولكن هذه الوحدة لم تستمر طويلاً، حيث انقسم التنظيم إلى مجموعتين هما: الجماعة الإسلامية بقيادة الدكتور عمر عبد الرحمن ـ المسجون فى أمريكا ـ وجماعة «الجهاد» بقيادة عبود الزمر ثم الظواهرى بعد ذلك، وذلك بسبب الخلاف حول القيادة وأسلوب العمل، وفى فترة لاحقة منذ ١٩٨٥ أدرك الطرفان أهمية أفغانستان كقاعدة للعمل والتدريب العسكرى، فبدأت كوادر التنظيمين فى التدفق عليها، وكما رأينا كان الظواهرى من الأوائل ثم تبعه باقى القيادات، وأثناء الجهاد ضد السوفيت قويت العلاقة بين التنظيمين، وبينهما وبين أسامة بن لادن، ويمكن القول إنه حتى عام ١٩٩٦ لم يكن هناك أى حديث بين قادة الجماعات المصرية عن توحدها تحت مظلة بن لادن، ولكن تركزت الجهود على توحيد صفوف الجماعة والجهاد على أساس وحدة الأهداف خاصة أن الخلاف غير جوهرى؛ إذ يدور حول إحدى المسائل الشرعية وهى «العذر بالجهل» وأخرى تنظيمية حول مسألة «الإمارة والشورى»، وعلى الرغم من عدم حسم هذه الخلافات فقد تم التوصل إلى نوع من التنسيق المشترك بين الطرفين بسبب كثرة تواجدهما معا فى أفغانستان والسودان.

وقد شهد عاما ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨ ازدياد شقة الخلاف بين الطرفين بسبب إعلان قادة الجماعة فى مصر مبادرة وقف العنف، والتى تم تبنيها رسميًا فى ٢٥ مارس ١٩٩٩ من قبل الجماعة، وبسبب الموقف من توحيد تنظيمات الأفغان العرب تحت مظلة «الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين»، وكان القيادى رفاعى أحمد طه المقيم فى أفغانستان قد وقع عن الجماعة الإسلامية على وثيقة إعلان تلك الجبهة فى فبراير ١٩٩٨ إلى جانب تنظيم الجهاد وتنظيم أسامة بن لادن، ثم عاد لينفى التوقيع وصلة الجماعة الإسلامية بالجبهة قبل الضربة المزدوجة التى وجهت إلى السفارتين الأمريكيتين فى نيروبى ودار السلام فى

٨ أغسطس ١٩٩٨ بعشرة أيام، وقد احتدم الخلاف أكثر بصدور تصريحات واضحة من الشيخ عمر عبد الرحمن وعشرة من قياداتها التاريخية فى شهر أكتوبر ١٩٩٨ يهاجمون فيها تلك الجبهة، ويدعون إلى تشكيل جبهة أخرى مضادة لها تعتمد الأساليب السلمية فى الدعوة للإسلام والدفاع عنه.

٢ ـ الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين: ظهرت فى فبراير ١٩٩٨ وقد حمل البيان التأسيسى توقيع أسامة بن لادن (القاعدة) وزعيم الجهاد أيمن الظواهرى وجماعتين من باكستان وأخرى من بنجلاديش ومسؤول شورى «الجماعة الإسلامية» رفاعى أحمد طه الذى انسحب بعد ذلك، وتضمن البيان فتوى «توجب على المسلمين قتل الأمريكيين ونهب أموالهم أينما كانوا»، وقد أعلن «الجيش الإسلامى لتحرير المقدسات» مسؤوليته عن تفجير السفارتين الأمريكتين، ويسود اعتقاد أنه الجناح العسكرى للجبهة، وعصب هذا التنظيم يتمثل فى تحالف أسامة بن لادن والظواهرى، وتختلف التقديرات حول قوة هذا التنظيم وعدد أتباعه المنتشرين فى جميع أنحاء العالم من الأفغان العرب.

٣ ـ المنظمات الدعائية: وهى تعمل فى مجال الدعاية والإعلام للأعمال التى تقوم بها جماعات العنف والأفغان العرب وأحيانًا حركة طالبان، ومن أبرزها «المكتب الدولى للدفاع عن الشعب المصرى» القريب من تنظيم الجهاد ؛ والمرصد الإعلامى الإسلامى، القريب من تنظيم طلائع الفتح، والذى يبدو أنه صار على خلاف مع الجهاد، وهما يقومان بوظيفة التغطية الإعلامية ولا توجد دلائل واقعية على علاقة تنظيمية بالأفغان العرب، ويديرهما قيادات إسلامية مصرية جهادية لاجئة فى بريطانيا. .

العلاقة بين تنظيمات الأفغان العرب: بداية ينبغى التمييز بين فكرة تأسيس تنظيم عالمى، وبين تحققها عمليًا فى هيكل واضح المعالم، وهذا الأخير كما يرى البعض غير متحقق فى الواقع سوى فى «الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين» التى تضم عدة تنظيمات أبرزها الجهاد والقاعدة، ولكنها لا تضم كل الأفغان العرب، فهناك أعضاء الجماعة الإسلامية المصرية وهم خارج الجبهة،

وأعضاء الجماعة الإسلامية الجزائرية، وهم منشغلون بمواجهة الحكومة الجزائرية قبل الصراع مع الأمريكان. فالعائق الأساسى أمام وجود تنظيم هرمى عالمى يتمثل فى تفاوت ظروف الجماعات الإسلامية فى كل بلد، الأمر الذى يجعل مهمة تأسيس تنظيم واحد أمرًا فى غاية الصعوبة، بل إنه داخل البلد الواحد استحال توحيد التنظيمات مثل الجهاد والجماعة الإسلامية، وتعد الجبهة الإسلامية العالمية خطوة متطورة على صعيد هذا العمل، ولكنها لا تكفى للقول بوجود هيكل تنظيمى كامل للأفغان العرب. من جهة أخرى فإن غياب هذا التنظيم الهرمى لا ينفى وجود تنسيق بين تنظيمات وجماعات الأفغان العرب. فهناك تنسيق على المستوى الفكرى وتبادل للأدبيات والكتب التى تترجم الاجتهادات النظرية والمواقف السياسية، ولا يمكن استبعاد حدوث لقاءات تنظيمية بين قيادات الأفغان العرب، والخلاصة أن الجبهة الإسلامية العالمية من أكثر الخطوات تطورًا على صعيد إيجاد هيكل تنظيمى متكامل، ولكنها مازالت حديثة -ساعة كتابة هذه الدراسة- ويصعب الحكم على مدى فعاليتها وقدرتها على الاستمرار فى مواجهة الضغوط الأمريكية كما سنرى فيما بعد.

رابعًا: ممارسات حركة الأفغان العرب وخريطة العنف السياسى

تعطى ممارسات فصائل الأفغان العرب مؤشرًا على طبيعة بنيتهم الفكرية والتنظيمية، ويمكن أن نرصد منها ستة مسارات يجمع بينها سمة غالبة هى استخدام العنف والقتال لتحقيق أهداف وغايات سياسية معينة يرونها من أولويات حركتهم **على النحو التالى:**

أولاً: محاولة الأفغان العرب إعلان إقامة خلافة إسلامية: فى حين خرجت المجموعات الأساسية من الأفغان العرب المقاتلين خارج أفغانستان، فقد بقيت رموز منهم فى أفغانستان فى حين اتجهت مجموعات أخرى للاستقرار فى منطقة الحدود الأفغانية الباكستانية بجوار بيشاور وهى مناطق تضعف قدرة الحكومة الباكستانية على التدخل والسيطرة، وفى عام ١٩٩٢ قررت مجموعة منهم يطلق

عليهم «جماعة الخلافة» التفكير فى الأمر، وقد أدت المشاورات بينهم إلى خلاف كبير قاد إلى **انقسامهم إلى فريقين:** أحدهما يدعو إلى مبايعة حكمتيار أمير الحزب الإسلامى خليفة للمسلمين، والثانى يعارض ترشحيه لعدم شرعية تعامله مع إيران، وتحالفه مع حزب الوحدة الشيعى مما أدى إلى انقسامات وتوزع الأفغان العرب على الفصائل الأفغانية حسب ولائهم، ولكن الجماعة سرعان ما أرادت الدخول فى مشروع لإعلان «الخلافة الإسلامية» عمليا والبدء بتجربة ميدانية على الحدود الباكستانية ـ الأفغانية، وحمل لواء هذه الفكرة شاب فلسطينى، ولكنه تنازل عنها بعد جدل فقهى؛ نظرًا لكونه غير قرشى، ومن شروط الخلافة ـ حسب الرؤية النصية للأفغان العرب ـ أن يكون الخليفة قرشيًا؛ ولكن سرعان ما تجمعت المجموعة الساعية إلى إعلان الخلافة مرة أخرى حول أفغانى أردنى ترجح توافر الشرط فيه، فوقع الاختيار عليه وأعلن نفسه خليفة للمسلمين، وبدأ بتعيين الولاة على العالم الإسلامى، وأخذ أنصاره يبحثون عن منطقة يعلنون فيها دولتهم، فأقنعوا رجال القبائل على الحدود الباكستانية ـ الأفغانية الذين وافقوا على تأييدهم طمعًا فى المال، ونكاية فى الحكومة الباكستانية، وقد استقرت المجموعة فى مناطق «ثيرا» التابعة لـ «حزم أو بمتسى» على الحدود، والبعيدة عن سيطرة الحكومة الباكستانية، والتى تتيح إمكانية الحصول على دعم وتأييد قادة قبائل المنطقة المعارضين للحكومة الباكستانية، وعلى رأسهم زعماء قبيلة «أفريدى» مالك نادر خان زاكخيل وحاجى جل بات خان، ولكن سرعان ما دبت الخلافات والصراعات بين الطرفين، وخاصة بعد مقتل الزعيمين القبليين، ولعبت الاستخبارات الباكستانية دورًا رئيسيًا فى تفجير الصراع وتأليب رجال القبائل ضد الأفغان العرب، وأسفرت المعارك عن سقوط ١١ قتيلاً من الأفغان العرب من بينهم الخليفتين المتنازل عنها والمعلن، و قد حاول حكمتيار التوسط بين الطرفين على الرغم من انشغاله بالحرب مع ربانى، وتم وقف المعارك مقابل انسحاب الأفغان العرب من مناطق القبائل والاتجاه إلى داخل الأراضى الأفغانية.

ثانيا: اشتراك الأفغان العرب فى الحرب الأهلية الأفغانية إلى جانب حكمتيار ثم التحالف مع طالبان: على الرغم من أن معظم الأفغان العرب قرروا أن مهمتهم انتهت فى أفغانستان بسقوط الحكومة الشيوعية، إلا أن عدداً منهم انخرط فى الحرب الأهلية بين الفصائل الأفغانية، خاصة إلى جانب قلب الدين حكمتيار زعيم الحزب الإسلامى، وكما رأينا وصل عدد المقاتلين العرب إلى جانبه إلى حوالى ٦٠٠ مقاتل. وكان حكمتيار قد دعا الأفغان العرب الذين استقروا فى بيشاور إلى دخول أفغانستان بعد أن بدأت السلطات الباكستانية فى ملاحقتهم؛ مما دفع حكومة ربانى إلى عقد اتفاقات أمنية مع حكومات عربية خاصة مصر لرصد نشاطات الأفغان المصريين، وبعد ظهور حركة طالبان وتمكنها من فرض سيطرتها على معظم الأراضى الأفغانية حدثت عمليات نزوح جماعى للأفغان العرب من باكستان إلى المناطق التى تسيطر عليها «طالبان»؛ ليعيش معظمهم فى منطقة قندهار، وشملت عمليات النزوح كل الأسماء البارزة فى تنظيمى الجماعة والجهاد مثل العقيد محمد المكاوى، والظواهرى، وأسامة بن لادن، والواقع أن ثمة علاقة وثيقة فى الوقت الراهن بين حكومة طالبان والأفغان العرب لعل من أقوى مؤشراتها ما تسبغه حكومة طالبان من حماية على بن لادن ورفضها تسليمه لأمريكا، وإضافة إلى ذلك تقطن بعض فصائل الأفغان العرب فى مناطق قبلية على الحدود الأفغانية الباكستانية التى لا يخضع سكانها لسيطرة الحكومة الباكستانية، وتمكنوا من الاندماج فى مجتمعات هذه المنطقة.

ثالثا: بحث الأفغان العرب عن ساحات قتال جديدة: اتجه فريق ـ كما أسلفنا ـ من الأفغان العرب الذين غادروا أفغانستان أو باكستان إلى البحث عن ساحات قتال جديدة «إسلامية» فى الخارج، فقد انتقل بعضهم إلى المناطق الإسلامية الساخنة فى الاتحاد السوفييتى السابق وبخاصة طاجكستان والشيشان، وكشمير؛ إذ اتهمت الهند بعض عناصرهم بالقيام بسلسلة من التفجيرات فى عام ١٩٩٣ والمشاركة فى عمليات المقاومة ضد جيشها ومن أبرزها عمليات التسلل فى شهر مايو ١٩٩٩، والسيطرة لفترة طويلة على مرتفعات استراتيچية فى جبال الهملايا مما أدى إلى اندلاع الصراع مجدداً.

وكانت البوسنة أبرز محطات وصول الأفغان العرب خلال الفترة من ٩٢ ـ ١٩٩٥ ؛ حيث دخلت مجموعات منهم إليها تحت غطاء لجان الإغاثة التى يديرها أمريكان وأوروبيون مسلمون، ومنذ عام ١٩٩٢ بدأت حالات اللجوء السياسى لقيادات جماعتى الجهاد والجماعة الإسلامية إلى بلدان أوروبا الوسطى التى شهدت تشكيل مراكز لتجميع العناصر الجديدة والقديمة، وتسهيل دخولها إلى البوسنة، بل إن قيادات دخلت بالفعل فقد اعتقل طلعت فؤاد قاسم (أبو طلال القاسمى) فى كرواتيا، ثم اختفى بعد ذلك فى ظروف غامضة وهو من قيادات الجماعة الإسلامية المصرية، وكان أول مؤشر على تحولهم إلى مشكلة البوسنة عندما أعلن على عزت بيجوفيتش أن بلاده لا تحتاج إلى رجال وإنما إلى أسلحة، أما وزير خارجيته فكان أكثر وضوحًا إذ طالب فى عام ١٩٩٣ الأفغان العرب بعدم التدخل فى حرب البوسنة، وقد نص اتفاق دايتون للسلام فى البوسنة على سحب كل القوات الأجنبية فى البوسنة خلال عشرين يومًا خاصة بعد أن روج الصرب لادعاءات مبالغ فيها عن أعدادهم فجعلوها تصل إلى عشرين ألفا، فى حين أنهم فى الواقع لم يتجاوزوا خمسمائة فرد.

ويعتقد البعض أن بناء الوحدات الإسلامية والذى اكتمل فى البوسنة فى ربيع ١٩٩٥، كان على علاقة وثيقة بالأفغان العرب، فتم نشر وحدات استشهادية والتحق بها بوسنيون إلى جانب أفغان عرب، وإن كان البعض يشير إلى أن هذه الوحدات كانت أيضا على علاقة وثيقة بإيران، وقد لجأ بعض الأفغان العرب إلى الجبال والوديان البوسنية، الأمر الذى دفع القيادات العسكرية البريطانية إلى إثارة قضيتهم مع الرئيس البوسنى بيجوفيتش، وطالبت بسحب «المجاهدين الأجانب من قوات البوسنة» لتخفيف الخطر، وأعلنت أنها حصلت على تأييد الرئيس البوسنى، وقد تشددت السلطات الكرواتية والدول المجاورة فأوقفت منح تأشيرات الدخول عبر أراضيها إلى البوسنة حتى لأفراد هيئات الإغاثة الدولية، وتمركز كثير منهم فى ألبانيا وهو ما كشف عن إلقاء السلطات المصرية القبض على تنظيم «العائدون من ألبانيا» فى يناير ١٩٩٩ .

وباختصار فإن حركة الأفغان العرب فى هذا المسار تابعة لمناطق النزاعات والصراعات على المستوى الدولى ؛ حيث يصلون إليها لتقديم ما يعتقدون أنه واجب النصرة لإخوانهم المسلمين المضطهدين أو المعتدى عليهم فى كل مكان يستطيعون الوصول إليه، وبذلك يشكلون قوة أو فاعلاً ذا صفة دولية التأثير فى الأزمات والصراعات التى يكون المسلمون أحد أطرافها على المستوى العالمى. . وبحكم كونهم قوة غير حكومية أو شعبية يصعب التنبؤ بأفعالها وتصرفاتها وردود أفعالها وبالتالى يراها الكثيرون من أهم عوامل عدم الاستقرار على المستوى الدولى.

رابعًا: انتشار الأفغان العرب فى أوروپا وأمريكا وإفريقيا: تحرك الكثير من الأفغان العرب فى اتجاهات متعددة بعيداً عما سبق للمعيشة المستقرة والقيام بواجبات إسلامية دعوية وغير قتالية، فبعضهم انضم إلى منظمات الإغاثة الإسلامية، وبعضهم قرر السفر إلى بلدان أوروپية أو إفريقية، وحاول بعضهم دخول إيران التى رفضت وكذا رفضت فرنسا دخول أفغان عرب من الجزائر وتونس، وسافر بعضهم إلى الولايات المتحدة، والتفوا حول الدكتور عمر عبدالرحمن، وفجروا مركز التجارة العالمى فى نيويورك فى عام ١٩٩٣ كما سنرى. وقد بدأت قيادات حركتى الجهاد والجماعة الإسلامية الانتشار فى عدد من البلاد العربية والأجنبية.

خامسًا: ممارسة الأفغان العرب للعنف السياسى فى بلدانهم الأصلية:

يعد أخطر وأهم مسارات عناصر ظاهرة الأفغان العرب، وفيما يلى سنتناول أبرز عمليات العنف السياسى التى مارسوها فى البلاد العربية:

١ ـ الأفغان العرب والعنف السياسى فى مصر: يقدر البعض عدد الأفغان المصريين بنحو من خمسمائة إلى ألف فرد، استفادوا من التدريبات العسكرية التى تلقوها خلال سنوات القتال والحرب الأفغانية، ومن حصيلة العلاقات التى توفر لهم الدعم المادى والمعنوى فى صراعهم مع النظام السياسى فى مصر.

وكانت مجموعاتهم بدأت تعود إلى مصر منذ عام ١٩٩٢ إلا أن ذلك لا ينفى وجود ممارسات عنف سياسى لأفراد من الأفغان المصريين قبل ذلك فقد كشفت جهات التحقيق فى قضيتى: محاولة اغتيال زكى بدر وزير الداخلية السابق فى ١٦ ديسمبر ١٩٨٩ **والثانية اغتيال الدكتور رفعت المحجوب** فى ١٢ أكتوبر ١٩٩٠ قيام بعض المتهمين فى القضيتين بالسفر إلى أفغانستان واشتراكهم فى القتال هناك، وقد ترافقت مع عودتهم موجة واسعة من الاعتقالات فى صفوفهم؛ إذ تم اعتقال حوالى ١٠٠ عنصر منهم فى الموانئ ونقاط الحدود، بينما تمكن عدد منهم من دخول البلاد، وقد قضت المحكمة العسكرية العليا فى الإسكندرية فى ديسمبر ١٩٩٢ بإعدام ثمانية من تنظيم «العائدون من أفغانستان» الذى يضم قيادات من «تنظيم الجهاد» و«حزب الله» و«الجماعة الإسلامية»، وفى نفس الوقت تصاعدت معدلات العنف بصورة غير مسبوقة بسبب عمليات الأفغان المصريين ونجاح بعضهم فى دخول مصر، وكان أبرزها محاولة اغتيال وزير الإعلام المصرى ووزير الداخلية حسن الألفى السابقين، وقد شهد عام ١٩٩٥ وقوع أربع عمليات عنف كبرى خارج الأراضى المصرية، وهى: اغتيال الملحق التجارى المصرى فى سويسرا فى يناير ١٩٩٥، وإطلاق النار على موظفة دبلوماسية بمدريد فى أغسطس ١٩٩٥، ولم تصدر بيانات تنسب العمليتين إلى الأفغان العرب، وإن كان البعض يؤكد انتساب العمليتين إليهم، **أما الثالثة فهى محاولة اغتيال الرئيس مبارك فى أديس أبابا** (٢٦ يونيو ١٩٩٥) وكانت نقطة التحول التى أظهرت أن المواجهة مع الأفغان العرب انتقلت بؤرتها إلى خارج مصر، مما يعطى لهم عنصر المفاجأة وخضوع العمليات لحسابات أطراف خارجية قد توفر لها دعمًا معينًا، وقد أحدثت محاولة الاغتيال حينئذ توترات بالغة فى علاقة مصر بالسودان وأثيوبيا وباكستان وسرعان ما تم احتواؤه لصالح مزيد من التنسيق والتعاون المتبادل. وقد نفذ محاولة الاغتيال مجموعة من الأفغان العرب المصريين المنتمين إلى الجماعة الإسلامية يقودهم مصطفى حمزة، مما كشف عن تزايد فعالية ومستوى قدرات أعضاء هذه الجماعة الذين تلقوا تدريبات فى أفغانستان.

أما الرابعة فقد كانت تفجير السفارة المصرية فى إسلام آباد فى نوفمبر ١٩٩٥ والذى أشار إلى تحول فى استراتيجية الأفغان العرب العنيفة يتعلق مضمونه بكل من الأهداف والمكان الذى يتم فيه، ويبدو أن وطأة الضربات الأمنية فى الداخل دفعتها إلى التحول للعمل فى الخارج. وإذا كان ذلك يعكس انخفاضًا فى قدرات الأفغان العرب المصريين فى الداخل لكنه يعكس فى نفس الوقت ارتفاعًا فى ذات القدرات فى الخارج مستفيدة من انتشار على المستوى الدولى، إلا أن قوة الأداء فى الخارج قد عادت بنتائج سلبية عليهم؛ إذ ازداد التنسيق الأمنى بين مصر وحكومات أجنبية عدة وبخاصة باكستان والولايات المتحدة. كما تلقى الأفغان العرب أعضاء الجماعات الإسلامية ضربتين قويتين فى نفس العام (١٩٩٥) حيث اختفى أبو طلال القاسمى فى كرواتيا الناطق الإعلامى باسم الجماعة، فقامت بتفجير سيارة مفخخة فى أحد مقار الشرطة فى مدينة ريبكا الكرواتية فى أكتوبر ١٩٩٥ مما شكل تطوراً بارزاً فى عمليات الأفغان العرب، أما الضربة الثانية فقد جاءت بعد إدانة الشيخ عمر عبد الرحمن والمحكوم عليه بالسجن مدى الحياة لتورطه فى الدعوة والسعى لشن هجمات ضد منشآت عسكرية أمريكية ومبنى الأمم المتحدة.

وتشير الضربتان اللتان تلقتهما الجماعة إلى وجود عنصر مشترك بينهما هو دور الولايات المتحدة الأمريكية بينهما، التى اتجهت نحو التشدد فى مواجهة الأفغان العرب؛ حيث تجاوز دورهم الخطوط الحمر فيما يتعلق بالأمن القومى الأمريكى، وهكذا أدى التنسيق الدولى ونجاح قوات الأمن المصرية فى ضبط وكشف العديد من المجموعات إلى تراجع عملياتها داخل وخارج مصر فيما عدا بعض العمليات الخطيرة كان أبرزها حادث الأقصر فى نوفمبر ١٩٩٧، والذى راح ضحيته أكثر من ٦٠ سائحًا. .

وقد استمرت قوات الأمن المصرية فى توجيه ضربات قوية للأفغان العرب، كان أبرزها فى يناير ١٩٩٩ حين ألقت القبض على تنظيم «العائدون من ألبانيا» الذين ينتمى غالبيتهم إلى جماعة الجهاد، وأقلية منهم إلى تنظيم «القاعدة» الذى يتزعمه أسامة بن لادن، وتتضمن القضية ١٠٧ متهمين، يُحاكم منهم فقط ٤٤

حضوريًا والباقون يحاكمون غيابيًا، وأُطلق عليهم اسم «العائدون من ألبانيا»، وأخذت القضية اسمها من كون أربعة من قياداتها قد تسلمتهم مصر من الحكومة الألبانية فى يونيو ١٩٩٨، وعلى رأسهم مسؤول محطة التنظيم فى تيرانا شوقى محمد سلامة عطية، والقيادى إبراهيم النجار الذى حكم عليه بالإعدام. وقد تراجعت عمليات الأفغان العرب فى مصر فى السنتين الأخيرتين تحت الضغوط الأمنية والإعلان عن وقف عمليات العنف السياسى من قبل التنظيمات المكونة للأفغان العرب المصريين بعدما تبين لهم عدم جدواه كأسلوب للعمل والتغيير. . .

٢ ـ الأفغان العرب والعنف السياسى فى الجزائر: شكل الأفغان الجزائريون القوة الثانية من حيث الحجم بعد الأفغان المصريين، وقد بدأ هؤلاء ممارسة العنف السياسى قبل إلغاء نتائج الجولة الثانية فى الانتخابات البرلمانية فى يناير ١٩٩٢ والتى كانت جبهة الإنقاذ الإسلامية على وشك الفوز بها، وقد ترافقت مع موجات العودة من أفغانستان مع هذه الأحداث؛ مما أعطى زخمًا قويًا لحركة الأفغان العرب الذين انضموا إلى الجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا) الأكثر عنفًا فى الجزائر، والتى تأسست فى العام ذاته متأطرة حول جماعة محمد علال المعروف باسم محمد ليفيه (نسبة إلى حى ليفيه فى العاصمة الجزائر)، والذى فرَّ من سجن البليدة فى عام ١٩٨٥، وصعد الجبال مشكلاً النواة الأولى للعمل المسلح فى الجزائر كما تحولت لتأييدها جماعة التكفير والهجرة، التى نشأت فى أفغانستان فى النصف الثانى من الثمانينيات.

وقد توالت قيادات عدة على الجماعة الإسلامية المسلحة بعد نشأتها، منهم عبد الحق العيايدة الذى اعتقلته السلطات المغربية فى يونيو ١٩٩٣، وخلفه جعفر الأفغانى الذى تلقى تدريبه فى أفغانستان حيث أمضى عامين، وشارك فى الحرب ضد السوفييت، وعرف عنه شراسته؛ حيث نسب إلى مجموعته غالبية العمليات التى أودت بحياة الصحفيين والمثقفين، كما كان المسؤول عن خطف أعضاء السفارة الفرنسية، وعن محاولة اغتيال وزير الدفاع السابق خالد نزار، كما اتهم

بعملية تفجير مطار هوارى بومدين عام ١٩٩٣، وقد أعلنت الجماعة المسلحة مسؤوليتها عن مقتل ١٢ كرواتيًا فى الجزائر، كما أنها المسؤولة عن خطف وقتل محمد بو سليمانى أحد كبار قيادات «الإخوان المسلمون» الجزائريين، كما أعلنت الحكم بالإعدام على قيادة جبهة الإنقاذ الموجودة فى الخارج، وقد استفاد الأفغان الجزائريون من علاقاتهم الجيدة مع عدد من فصائل المجاهدين الأفغان للحصول على الأسلحة وتدريب العناصر الجزائرية، وقد امتد نشاطهم لجزائريين ـ وفقًا لتقارير فرنسية ـ إلى داخل الأراضى الفرنسية، حيث افتتحوا معسكرات للتدريب؛ وتشير معلومات نشرتها جريدة «الفيجارو» الفرنسية (٦ نوفمبر ١٩٩٤) إلى تقرير أعده جهاز مكافحة التجسس فى فرنسا جاء فيه أن مائة شاب فرنسى إسلامى تلقوا تدريبات عسكرية فى أفغانستان وباكستان، وقد اتهموا بالقيام بعدة عمليات داخل فرنسا، وبعد الهدنة التى أعلنها الجيش الإسلامى للإنقاذ منذ عام ١٩٩٧، وتراجع العمليات النوعية للجماعة الإسلامية المسلحة، حاولت قيادات «الأفغان الجزائريين» إعادة تفعيل جبهة العنف فى الجزائر عبر قيادة قمر الدين خربان زعيم الأفغان الجزائريين ذى العلاقة الوثيقة بأسامة بن لادن، منذ أن كان خربان مسؤولاً عن مراكز لتدريب «الأفغان العرب» فى بيشاور، وذلك بقصد سحب البساط من التيار الموالى لرابح كبير الذى يدعم الهدنة التى أعلنها «جيش الإنقاذ»، والقيام بتجميع عناصر التيار السلفى، ولهذا الغرض تم تأسيس «المكتب التنسيقى للإنقاذ فى أوروبا» بإيعاز من قمر الدين حزبان فى عام ١٩٩٩، وأسندت رئاسة هذا المكتب التنسيقى إلى أحمد الزاوى، وقد أصبح الأفغان الجزائريون عصب «الجماعة السلفية للدعوة والقتال» من التنظيمات الأكثر قوة وممارسة للعنف فى الجزائر، وتشير العديد من التقارير إلى عمق العلاقة بين الأفغان الجزائريين وحركة طالبان وأسامة بن لادن.

٣ ـ نشاط الأفغان العرب فى السودان والقرن الإفريقى: كانت منطقة القرن الإفريقى مسرحًا لنشاط الأفغان العرب الذين تكثف وجودهم فى السودان والصومال، فقد تدفق الأفغان العرب على السودان بعد سماح الحكومة السودانية بدخول العرب والمسلمين بدون تأشيرة، وقد وصل بن لادن إلى الخرطوم قبل

سقوط كابول فى ١٩٩٢، حيث وصلها فى أول أكتوبر ١٩٩٠، والتقى الدكتور الترابى عدة مرات، وركز مشروعاته فى إقامة بنية تحتية، وحصل على مشروع سد الروصيرص من أكبر السدود السودانية، وطريق التحدى وهو الطريق الرئيسى لربط الخرطوم ـ شندى ـ عطبرة، وقامت شركات بن لادن بشق ترعتى كنانة والرهد، واشترك ابن لادن فى بناء مطار بور سودان الجديد، وقدر البعض استثماراته بحوالى ٥٠ مليون دولارحينئذ، كما يذكرون أنه أسس فى السودان معسكرين أحدهما للجهاد والآخر للجماعة الإسلامية وسرعان ما اكتشفت الحكومة السودانية الورطة التى دخلتها بسبب تدفق الأفغان العرب إلى أراضيها، واتخاذها منطلقًا لممارسة أعمال العنف فى مصر والجزائر، وقد اعترف الكثير من عناصر تنظيم العائدون من أفغانستان بأن بن لادن كان يقوم بتمويل عملية عودتهم سرًا إلى مصر عبر السودان، وقد استفاد مصطفى حمزة من وجوده فى السودان فى التخطيط والإشراف على عملية الاغتيال الفاشلة للرئيس مبارك فى أديس أبابا فى يونيو ١٩٩٥، فتوترت علاقات مصر بالسودان وفرض مجلس الأمن عقوبات على السودان، قرر على إثرها السودان ترحيل جميع الأفغان العرب من أراضيه، فعاد أسامة بن لادن ومصطفى حمزة إلى أفغانستان، وقد تعرض السودان لهجوم جوى أمريكى فى أغسطس ١٩٩٨ عقب تفجير سفارتى أمريكا فى نيروبى ودار السلام، وتم تدمير مصنع الشفاء بحجة أنه ينتج أسلحة كيماوية.

وتتهم فصائل صومالية فى صراعاتها الداخلية الحكومة السودانية بتهجير أعداد من الأفغان العرب إلى الصومال؛ حيث ينشطون فى حركة الاتحاد الإسلامى، إلى جانب أفغان القرن الإفريقى، والواقع أن منطقة القرن الإفريقى أصبحت محط اهتمام الأفغان العرب فى ظل التضييق الشديد عليهم فى دول العالم المختلفة، وكان الإعلان عن غرق أبى عبيدة البنشيرى القائد العسكرى لتنظيم القاعدة الذى يتزعمه بن لادن فى مايو ١٩٩٦ فى بحيرة فكتوريا قد لفت الأنظار إلى توغل الأفغان العرب فى إفريقيا، والذين نجحوا فى تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا فى أغسطس ١٩٩٨، وتشير بعض المصادر إلى اشتراك

مجموعة من الأفغان العرب فى تعقب القوات الأمريكية التى كانت موجودة فى الصومال فى إطار عملية إعادة الأمل فى عام ١٩٩٤، وذلك بالتنسيق مع جماعة محمد فارح عيديد «التحالف الوطنى»، حيث شاركت فى عمليات متعددة ضد القوات الأمريكية مما أدى إلى مقتل حوالى ٢٠ جنديًا أمريكيًا، مما دفع القوات الأمريكية إلى الانسحاب من الصومال.

٤ ـ **الأفغان العرب فى بلاد الشام:** كان أبرز ظهور لعناصر الأفغان العرب فى الأردن مطلع عام ١٩٩٣، عندما وقعت مجموعة من حوادث التفجير فى عدد من دور السينما بالإضافة إلى محاولات اغتيال شخصيات سياسية من الوفدين الأردنى والفلسطينى المشاركين فى مفاوضات السلام، وقد كشف المتهمون نشاطهم فى يناير ١٩٩٣، ويبدو أن هناك تداخلا تنظيميا بين مجموعات الأفغان العرب وما يعرف تنظيم جيش محمد، وفى يوليو ١٩٩٦ اعتقلت سلطات الأمن السورية مجموعة من الأفغان العرب الذين دخلوا سوريا بطرق غير شرعية، من بينهم مصريين وفلسطينيين، وقررت سوريا محاكمتهم داخلها.

٥ ـ **الأفغان العرب والعنف السياسى فى اليمن:** كان للمتطوعين من أبناء اليمن الجنوبى السابق فى أفغانستان وبيشاور معسكرات خاصة بهم، وظهرت فيما بينهم قيادات منها طارق الفضلى، وتردد الحديث فيما بينهم عن نقل الجهاد إلى اليمن المحكوم من قبل الشيوعيين بعد انتهاء الحرب الأفغانية، غير أن الشيخ عبد المجيد الزندانى ـ الذى أصبح فى وقت لاحق من زعماء التجمع اليمنى للإصلاح المعارض ـ كان يتردد كثيراً على بيشاور، وله تأثير كبير على المجاهدين العرب، طلب من «الأفغان اليمنيين» إلغاء أو على الأقل تأجيل مشروع الجهاد فى اليمن بعد الانفتاح السياسى الذى شهدته البلاد، وقد اشترك بعض الأفغان اليمنيين فى مقاتلة القوات الجنوبية أثناء الحرب الأهلية بين اليمن الشمالى والجنوبى فى يونيو ١٩٩٤، وأيضا مارست عناصر «الأفغان اليمنيين» بعض عمليات العنف السياسى، قامت بها منظمة الجهاد الإسلامى تحت زعامة الشيخ طارق الفضلى، وقد استهدفت بعض المنشآت السياحية، ومنها فندق أقام فيه

عسكريون أمريكيون عاملون فى الصومال فى إطار عملية إعادة الأمل، واغتيال بعض قيادات الحزب الاشتراكى الذى كان «متحالفًا» مع موسكو، وأيد تدخلها فى أفغانستان، وقد عقدت السلطات اليمنية صفقة مع الشيخ طارق الفضلى، وانضم فى إثرها إلى حزب المؤتمر الحاكم، واستطاعت الحكومة اليمنية استيعاب مجموعته، وعلى الرغم من ذلك فإن بعض الأفغان اليمنيين عادوا إلى العمل ضد الحكومة اليمنية فى عام ١٩٩٨ فى إطار تنظيم «جيش عدن الإسلامى»، وقد أعلن تأييده لأسامة بن لادن عقب الغارات الأمريكية على أفغانستان والسودان، وأشاد بتفجير السفارتين، وأبرز عملياته خطف رهائن لا نرى داع لتفصيلها حيث حوكم وأتباعه، كما كانت آخر العمليات التى قام بها الأفغان اليمنيون بالتعاون مع الأفغان المصريين ضرب المدمرة الأمريكية كول قرب سواحل عدن كما أسلفنا؛ وتعتبر اليمن أيضًا محطة أساسية للأفغان العرب وبخاصة المصريون منهم، حيث استقر فيه لفترة بعض القيادات أثناء انتقالهم ما بين باكستان والسودان، وأفغانستان ومصر ويذكر أنه بداية من عام ١٩٩٣ تمركزت فى اليمن مجموعات من قيادات الأفغان المصريين كانوا على علاقة بتنفيذ عملية اغتيال رئيس الوزراء المصرى حينئذ.

٦ ـ **نشاط الأفغان العرب فى السعودية:** لم يوجه الأفغان السعوديون نشاطهم ضد الحكومة السعودية التى نجحت فى استيعاب معظمهم، إلا أن الأراضى السعودية كانت ساحة لنشاط الأفغان العرب فى مواجهة القوات الأمريكية، وهذا ما سنعرض له بعد قليل.

سادسًا: الأفغان العرب والولايات المتحدة: التحول من التحالف إلى الصراع

مرت السياسة الأمريكية تجاه الأفغان العرب بمرحلتين متعاقبتين ومتناقضتين، حيث تحولت العلاقة من النمط التحالفى إلى النمط الصراعى، النمط الأول (التحالف) كان مبرره وجود عدو مشترك (الاتحاد السوفييتى)، **ومع زوال خطره بانهياره فقد التحالف مبرراته وتحول نحو العداء أى النمط الثانى.**

١ ـ مرحلة النمط التحالفى والمساهمة غير المباشرة فى نشأة حركة الأفغان العرب وتطورها: ففى المرحلة الأولى التى استمرت طوال عقد الثمانينيات تدخلت الولايات المتحدة بكل ثقلها لدعم المجاهدين الأفغان فى مواجهة الاتحاد السوفييتى لاعتبارات استراتيجية، فقد شهد هذا العقد (٧٠ ـ ١٩٨٠) تقدمًا شيوعيًا فى أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا، كان لا بد من وقفه من وجهة نظر الاستراتيچية الأمريكية، ومن ثم دفع الرئيس الأمريكى السابق رونالد ريجان فى استمرارية منطق الحرب الباردة، وفرض سباق التسلح، وشرع يؤكد كسر التمدد السوفيتى ولو فى منطقة واحدة؛ تمهيدًا لدفعه نحو التراجع، وكانت أفغانستان الساحة الرئيسية للنزال، وعلى ذلك نشأ تحالف عسكرى بين المجاهدين الأفغان والولايات المتحدة لاستنزاف الاتحاد السوفييتى، ولم يكن يدور بخلد صناع القرار فى البيت الأبيض فى حينه ماذا يمكن أن يفعل المجاهدون الأفغان ومؤيدوهم من الأفغان العرب بعد هزيمة السوفييت؛ إذ إنه طوال عقد الثمانينيات كانت واشنطن مزارًا معتادًا لزعماء الجهاد الأفغانى، وأطلقت عليهم وسائل الإعلام الأمريكية كما أسلفنا «مقاتلو الحرية» "TheAfghan Freedom Fighters"، بجانب ثوار الكونترا فى نيكاراجوا، ومقاتلى حركة يونيتا فى أنجولا. وساندت الولايات المتحدة باكستان ورئيسها ضياء الحق الذى دعا المسلمين من كل مكان أن يشاركوا فى الجهاد ضد السوفييت، وبدأ جهاز استخباراتها (سى. أى. إيه) فى تقديم الدعم المالى والتسليحى عبر الجيش والاستخبارات الباكستانية إلى المجاهدين والأفغان العرب، وأقامت المخابرات الأمريكية قواعد عسكرية متطورة ما زال بعضها يعمل بفاعلية فى مجال تدريب وتسليح العرب، ويتركز بعضها فى محيط مدينة خوست على بعد ١٢ كلم جنوب كابول، و ٢٠٠ كلم من الحدود الباكستانية وبالقرب من جلال آباد الشرقية الواقعة على بعد ١٢٠ كلم شرق كابول، ويرى البعض أن الدعم المادى السعودى للمجاهدين الأفغان كان أربعة أضعاف الدعم الأمريكى، كما استفادت المخابرات الأمريكية من جهود الملياردير السعودى «أسامة بن لادن» من أجل تنظيم عملية التطوع وتطويرها، وهكذا فقد التقى الطرفان: الإسلامى

بشقيه الرسمى، وغير الرسمى، والأمريكى على هدف واحد وهو إلحاق الهزيمة بالسوفييت، وقدم كل منهما وسائل الدعم اللازمة، لكن انتهاء الحرب الباردة أدى إلى تغيير الأولويات من الولايات المتحدة والقسم الأكبر من التيارات المسلحة التى ساهمت فى الجهاد الأفغانى، والتى تحولت أفغان عربًا كما أسلفنا فيما بعد؛ فبالنسبة لواشنطن اختفى خطر الاتحاد السوفييتى عدوها الاستراتيچى، وشهدت مؤسسات التفكير وصناعة القرار الإستراتيچى إبان حرب الخليج الثانية وبعدها بحثًا عمن يكون العدو الجديد، وفى حين تحدث «فوكوياما» عن «نهاية التاريخ» حول انتصار الليبرالية الغربية، أكد صموئيل هنتنجتون وجود «صدام الحضارات» وكان يقصد إثبات أن الديمقراطية الليبرالية على النمط الغربى تواجه تحديًا إسلاميًا وكونفوشوسيا، وأن الحروب المقبلة ستدور فى هذا الإطار.

لم تتبنَّ الإدارة الأمريكية رسميًا هذه الرؤية لكونها تدرك جيدًا عائد علاقاتها بدول إسلامية، غير أن ذلك لم يمنعها من أن تصنف الإرهاب فى مقدمة الأعداء الجدد للولايات خاصة الإرهاب الأصولى الذى يقوده الأفغان العرب، والتقت إرادة الولايات المتحدة وكثير من حكومات الدول العربية والإسلامية، والتى بدأت منذ ذلك الوقت تعانى من أحداث العنف السياسى الداخلى التى يقف وراءها الأفغان العرب على اعتبار أن الإرهاب الخطر الذى يتعين التنسيق والتعاون بين الطرفين لمواجهته ـ بل إن «رابين» فى رؤيته حول الشرق الأوسط الجديد طرح نفس الفكرة حول هذا التحدى، كما تجلى فى عقد مؤتمر قمة «مكافحة الإرهاب» فى شرم الشيخ فى فبراير ١٩٩٦ عقب عمليات حماس ضد إسرائيل، ولكن رؤية الطرفين لم تكن متطابقة تمامًا، ففى حين تركز الحكومات العربية جهدها فى مقاومة خطر الإرهاب الداخلى الموجه ضدها، كان تركيز الولايات المتحدة على حماية أمن إسرائيل فى وجه حركات المقاومة الإسلامية دون تمييز بين الإرهاب وحق المقاومة المشروع وفقًا للمواثيق الدولية.

وهكذا تجلى التغير فى الموقف الأمريكى من المجاهدين الأفغان سريعًا بعد خروج السوفييت من أفغانستان، ثم تدعم أثناء حرب الخليج الثانية فى مواجهة

العراق، فبعد الانسحاب السوفييتي فى عام ١٩٨٩ حدث نزاع بين أجهزة صنع السياسة الخارجية الأمريكية؛ فى حين أيدت الخارجية التعاطى مع الملف الأفغانى بالتنسيق والتشاور مع القيادة السوفييتية ـ قبل سقوط الاتحاد السوفييتى ـ دعت الأجهزة العسكرية والاستخبارات إلى دعم الفصائل الأفغانية للقيام بعمل عسكرى حاسم لإسقاط حكم نجيب الله، وبالنسبة للمعونات حدث تخفيض فى قيمة الدعم المقرر للفصائل الأفغانية من ٣٠٠ مليون دولار إلى ٢٥٠ مليون دولار، ثم تقرر قطع هذه المعونات كليًا بالاتفاق مع المملكة العربية السعودية عن الأحزاب التى أيدت غزو العراق للكويت أو التى رفضت التدخل الأمريكى فى الخليج، وتحديدًا الحزب الإسلامى بزعامة حكمتيار والاتحاد الإسلامى بزعامة عبد رب الرسول سياف، وقد صاحب هذا التغير الأمريكى وتبعًا له تغير سعودى وباكستانى انصب فى اتجاه دعم أحزاب أفغانية ضد أخرى، بل والمساهمة فى بروز فصائل جديدة كان أبرزها حركة طالبان، فقد فشلت المراهنة على الحزب الإسلامى بزعامة حكمتيار، ووجدت الولايات المتحدة فى نظام الرئيس برهان الدين ربانى ـ لا سيما بعد الصدام بين حكمتيار وربانى ـ النظام المؤهل للعب الأدوار الأساسية التى تخدم السياسة الأمريكية وأهدافها المتمثلة خصوصًا فى إغلاق معسكرات الأفغان العرب، واعتقال قياداتها التى صارت متحالفة مع حكمتيار(٥٣). وبعد ظهور حركة «طالبان» بدأت الولايات المتحدة وحكومتا السعودية والباكستانية فى المراهنة عليها، خاصة بعد نجاحها فى تقويض نفوذ وقوة حكمتيار. فمنذ ظهور حركة طالبان كان الدعم الأمريكى والباكستانى واضحًا، وذلك عبر تفاهم بين الطرفين منذ عام ١٩٩٤ وهوتاريخ ظهور الحركة، ونموها بصورة سريعة (٥٤)، وامتلكت منذ البداية قوة عسكرية تقدر بحوالى ٢٥ ألف فرد، و٢٠٠ دبابة قتال رئيسية، بالإضافة إلى حوالى ٢٠٠ طائرة، وكان هدف الدعم الأمريكى يتركز فى ضبط الأوضاع فى أفغانستان وتحقيق الاستقرار، ومطاردة الأفغان العرب، ووقف تجارة المخدرات وتحقيق الاستقرار فى أفغانستان تحت حكم قريب أو موال لواشنطن، يساهم فى تقوية السيطرة الأمريكية على الثروة النفطية البازغة فى آسيا الوسطى، وإبعاد إيران عن مشروع

أنابيب النفط والغاز الطبيعى من خلال تهيئة ظروف تتيح تمرير هذه الخطوط من تركمانستان إلى باكستان عبر أفغانستان، وذلك كبديل عن مد خط الأنابيب عبر إيران، التى كانت واشنطن تركز جهودها حينئذ فى حصارها.

وفى بداية ظهور طالبان قوضت نفوذ حكمتيار، وأغلقت معسكرات تدريب الأفغان العرب، وأحرقت حقول المخدرات. وعلى الرغم من ذلك أصرت الحركة على إيواء أسامة بن لادن وأنصاره بعد عودته من السودان، كما قاومت بشدة محاولة أمريكية فى ديسمبر ١٩٩٧ لاعتقاله، حين أرسلت مجموعة من القوات الخاصة إلى باكستان؛ تمهيداً لدخول أفغانستان من مناطق الحدود، إلا أن قوات طالبان منعت القوة الأمريكية من دخول أراضيها. والأكثر من ذلك أن الحركة سمحت لأسامة بن لادن بممارسة نشاط سياسى واسع لمناهضة السياسة الأمريكية، سواء فيما يتعلق بتكوين «الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين» أو تنظيم مؤتمرات عدة للتنديد بالسياسة الأمريكية. ولكن تفجير السفارتين الأمريكيتين فى كينيا وتنزانيا فى ٨ أغسطس ١٩٩٨ جعل قضية إيواء طالبان للأفغان العرب مصدر خطورة بالغ، لاسيما بعد أن قامت واشنطن بتنفيذ عملية قصف صاروخى منفرد ضد معسكرات تابعة لأسامة بن لادن فى أفغانستان فى ٢٠ أغسطس ١٩٩٨ .

ويبدو أن الإدارة الأمريكية كانت تعانى ارتباكًا واضحًا فى الرؤية الاستراتيچية فى أفغانستان منذ البداية، **ويتجلى ذلك فيما يلى:**

(أ) لم يكن الدعم الأمريكى للفصائل الأمريكية الأفغانية مبنيًا على أساس استراتيچية واضحة من أجل تأسيس نظام سياسى مستقر فى أفغانستان، فالولايات المتحدة يبدو أنها لم تكن تهتم بالقدر الكافى بخريطة الأوضاع العرقية والقومية وانقسامات الفصائل وتعددها ومشاكلها المختلفة، ولكنها ركزت جهودها فقط فى مواجهة الخطر الشيوعى، كما أن صانعى القرار فى واشنطن لم يعطوا قضية المتطوعين العرب حقها من الاهتمام خاصة بعد خروج السوفييت؛ ولذلك كان الطبيعى أن يتحول «المجاهدون العرب» إلى «أفغان عرب»،

فالولايات المتحدة فى رأى الكثيرين لم تكن معنية بالأبعاد الداخلية للصراع، وإنما انحصر اهتمامها فى الأبعاد الدولية والإقليمية.

(ب) تردد الإدارة الأمريكية بين خيار: الأول مواصلة الرهان على طالبان باعتبارها الحركة الوحيدة القادرة على بسط سيطرتها وتحقيق الاستقرار، أو إسقاط هذا الرهان والتعامل معها باعتبارها تؤوى الإرهاب وتحميه. وإذا كان الرهان على طالبان من وجهة النظر الأمريكية ـ مفيداً فى حصار إيران وتنفيذ مشروعات نقل البترول عبر أفغانستان دون المرور بإيران، إلا أن استقرار الأمور لطالبان قد يؤدى إلى زيادة المد الدينى والإسلامى فى آسيا الوسطى، مما يهز ويقلق الأنظمة الحاكمة فى تلك المناطق. والخلاصة أن الولايات المتحدة قامت بتوظيف قضية الجهاد الأفغانى فى مواجهة السوفييت خلال الثمانينيات، ولكن انتهاء القضية بخروج السوفييت، وانهيار الاتحاد السوفييتى، أدى إلى تغير الرؤية الاستراتيچية، فيبدو أنه بدلاً من الخطر الأحمر برز الخطر الأخضر الذى تمثله من وجهة نظرها الأفغان العرب.

٢ ـ التحول للصراع بين الأفغان العرب والولايات المتحدة :

بتبلور النشأة الحقيقية للأفغان العرب صارت الولايات المتحدة هدفًا لهجماتهم فى عالم غاب عنه الاتحاد السوفييتى، وتفرد فيه ـ القطب الواحد ـ بالنظام الدولى؛ بالطبع فإن عمليات الأفغان العرب ضد الأهداف الأمريكية لا تعدو عمليا سوى تعبير عن نوع معين من الاحتجاج على السياسات الأمريكية تجاه العرب والمسلمين ووجود إرادات يمكن أن تتجمع لممارسة ذلك، ولا تمثل تهديدا حقيقيا للمصالح الأمريكية؛ ولنتناول **بعض الأمثلة من الممارسات التى قام بها الأفغان العرب ضد المصالح الأمريكية:**

(أ) تنفيذ سلسلة من الهجمات المسلحة على القوات الأمريكية فى الصومال فى عام ١٩٩٣ والتى أدت إلى مقتل ١٨ أمريكيًا بالتعاون مع الاتحاد الإسلامى الصومالى، والتى أدت إلى انسحاب القوات الأمريكية فى نهاية الأمر. .

(ب) تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك فبراير ١٩٩٥ الذى أدى إلى مقتل ستة وجرح حوالى ألف شخص، وخسائر جملتها حوالى بليون دولار، واعتقلت السلطات الأمريكية أربعة فلسطينيين ومصريين وحكمت عليهم بالسجن لفترات طويلة (جملتها أكثر من ألف عام) وكان المنفذان الرئيسيان رمزى يوسف وأحمد عجاج قد تقابلا فى أفغانستان خلال الحرب ضد السوفييت.

(ج) انفجار الرياض ضد مكاتب بعثة عسكرية أمريكية ترتبط بعقود لتدريب الحرس الوطنى السعودى منذ السبعينيات فى نوفمبر ١٩٩٥ أدى إلى مقتل خمسة أمريكيين وهنديين، وإصابة ٦٠ آخرين بجروح، وعمد المنفذون إلى استخدام جهاز تفجير متطور مربوط بجهاز توقيت، مما يشير إلى خبرة عالية وتنظيم جيد، وقد شارك فى التحقيقات ١٩ خبيراً من مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى (أف. بى. آى) واثنان من الخارجية الأمريكية أشاروا إلى ترجيح اتهام الأفغان العرب.

(د) انفجار الخبر فى الظهران فقد وقع فى ٢٥ يونيو ١٩٩٦، وأدى إلى مقتل ١٩ أمريكيين، وإصابة ٣٨٦ شخصًا بجروح بينهم ١٧ سعوديًا و ١١٨ بنغاليًا، و ١٠٩ أمريكيًا و ٤ مصريين وأردنيين، ويعتبر الهجوم الأعنف الذى تتعرض له القوات الأمريكية فى الشرق الأوسط منذ انفجار بيروت عام ١٩٨٣ وقتل فيه أكثر من ٢٤١ جنديًا أمريكيًا.

(هـ) عاد الأفغان العرب بعد انقطاع لمدة عامين تقريبًا متمثلين فى «الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين» التى أسلفنا الحديث عنها إلى توجيه أقوى الضربات ضد الأهداف الأمريكية، ففى ٧ أغسطس تم تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا، والذى أدى إلى مقتل ٢٦٣ شخصًا من بينهم ١٢ أمريكيًا وجرح أربعة آلاف آخرين، وقد أعلن «الجيش الإسلامى لتحرير المقدسات الإسلامية» مسؤوليته عن تنفيذ الانفجار، ويعتقد أنه الجناح العسكرى لتنظيم القاعدة الذى يرأسه بن لادن، ويقدم البعض مؤشرات تؤكد قيام عناصر تابعة «للجبهة الإسلامية العالمية» بتفجير السفارتين منها البيان الذى أعلنه تنظيم

الجهاد قبل وقوع التفجيرات بيومين، وهدد فيه الولايات بالانتقام بعد تسليم الاستخبارات الأمريكية أربعة من ناشطى تنظيم الجهاد إلى السلطات المصرية، وكما سبق القول فإن تنظيم الجهاد يعتبر جزءاً من «الجبهة الإسلامية لقتال اليهود والصليبيين» التى تعتبر الولايات المتحدة «العدو الأول»، ويتحرك من منطلق فتوى توجب قتال الأمريكيين وضرب مصالحهم، إضافة إلى ذلك فإنه من الملاحظ تصاعد الوجود الجهادى فى إفريقيا، فالرجل الثانى فى التنظيم (نائب الظواهرى) على الرشيدى كان مقيمًا فى مومباسا بكينيا ذاتها قبل أن تغرق به سفينة ركاب فى بحيرة فكتوريا فى مايو ١٩٩٦، كان قد حارب فى أفغانستان وقاتل القوات الأمريكية فى الصومال، وقاد عناصر جهادية كثيرة فى حربها ضد الأمريكان فى إفريقيا وله العديد من الأتباع، الأمر الذى يمكن أن يكون قرينة على توافر الكوادر التى قامت بعملية التفجير؛ وقد ردت الولايات المتحدة بعنف على العملية لتستعيد هيبتها أمام الأفغان العرب، وعندما لم ينجح القصف الصاروخى، قررت وضع أسامة بن لادن على قائمة العشرة الفارين والمطلوبين للعدالة الأمريكية، وذلك بعد أن رفضت طالبان تسليمه، وأعلن مدير مكتب التحقيقات الفيدرالى لويس رمزى أن بن لادن ونائبه محمد عودة أبو حفص المصرى لم يغادرا أفغانستان، وأكد أن منظمة القاعدة التى يديرها بن لادن واسعة ولديها القدرة والرغبة على ارتكاب عنف عشوائى واسع، وقد اتهمت الولايات المتحدة الأفغان العرب بالقيام بأعمال إرهابية تشمل قتل عسكريين أمريكيين فى السعودية والصومال ورعايا أمريكيين فى كينيا وتنزانيا.

ويمكن الخروج مما سبق بثلاث دلالات بالغة الأهمية: الأولى: حدوث تحول فى نمط عمليات الأفغان العرب عبر التركيز على تلك العمليات الموجهة للولايات المتحدة الأمريكية، فقد توصلت قياداتهم خاصة الظواهرى وابن لادن إلى عدم جدوى العمليات ضد الحكومات داخل البلاد العربية الأخرى، وجدوى توجيهها ضد المصالح الأمريكية والإسرائيلية؛ حيث تكتسب دعما وتأييداً واسعًا من الشعوب الإسلامية التى يعانى بعضها من الحصار الأمريكى، كما أن توسيع العمليات ضد الأمريكيين والإسرائيليين يعنى توسيع الرقعة التى

يمكن للأفغان العرب أن يتحركوا فيها على المستوى الدولى، **الثانية:** أصبحت الولايات المتحدة تعتبر الأفغان العرب العدو الأول لها وجسدتهم فى قيادة أسامة بن لادن، وفى نفس الوقت فإن الأفغان العرب بدورهم يعتبرونها عدوهم الأكبر الذى يقود الغرب الصليبى والاستعمارى ضد العرب والمسلمين.

ويمكن القول: إن خطر الأفغان العرب رمزى ضخمته الدعاية الإعلامية الأمريكية فى سعيها للبحث عن عدو جديد، فالدعاية حولت الأفغان العرب إلى قطب دولى ينازع الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من عدم منطقية المقارنة بين قوة الطرفين، ولكنه من وجهة نظرنا يمثل ولو فى أحد جوانبه وجود إرادة شعبية إسلامية رافضة للهيمنة الغربية والأمريكية تمارس تأثيراً على المستوى الدولى.

الثالثة: تزايد توتر العلاقات مع الأمريكية ـ الطالبانية، حتى قررت الولايات المتحدة فرض عقوبات اقتصادية على طالبان فى ٦ يوليو ١٩٩٩، معتبرة أن سياسة طالبان تشكل تهديداً غير عادى لأمن الولايات المتحدة؛ لأنها تسمح لابن لادن ومنظمة القاعدة باستعمال أراضٍ تحت سيطرتها، ومازالت العلاقات بين الطرفين تواصل تدهورها.

* * *

[كتبت هذه الدراسة ونشرت قبيل أحداث سبتمبر ٢٠٠١ والتى كانت نقطة تحول فارقة فى حياة النظام الدولى والمشروع الأمريكى وكذلك تنظيم القاعدة، وقد أعقبها الحرب الأمريكية فى أفغانستان وطرد طالبان وإقامة حكومة قرضاى. . وما تزال التطورات مستمرة]. «المؤلف».

* * *

• مصادر الدراسة ومراجعها

أولا: الكتب العربية:

١ ـ د. حامد ربيع، الإسلام والقوى الدولية. . نحو ثورة القرن الواحد والعشرين، القاهرة: دار الموقف العربى، ١٩٨٢ م.

٢ د. حامد عبد الماجد، الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية: دراسة منهجية فى النظرية السياسية الإسلامية، القاهرة: دار النشر والتوزيع الإسلامية ١٩٩٢.

٣ ـ د. حامد عبد الماجد، الأنظمة العربية والحركة الإسلامية ـ مع إشارة خاصة للحالة المصرية، القاهرة: مركز الإعلام العربى، ١٩٩٤م

٤ ـ عصام دراز، العائدون من أفغانستان: ما لهم وما عليهم، (القاهرة: الدار المصرية للنشر والتوزيع،) ١٩٩٣.

ثانيا: بحوث ودراسات منشورة:

١ ـ محمد عبد السلام، الأفغان العرب: صناعة العنف العابر للحدود، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيچية، مجلة السياسية الدولية، ١٩٩٨.

٢ ـ معتز محمد سلامة، انعكاسات الصراع الأفغانى على دول الجوار، فى القضية الأفغانية وانعكاساتها الإقليمية والدولية، د. إبراهيم عرفات (محررًا) جامعة القاهرة؛ مركز الدراسات الآسيوية، ١٩٩٩).

٣ ـ عبد الله الأشعل، المحاولات الإسلامية لمعالجة الأزمة الأفغانية، فى القضية الأفغانية وانعكاساتها الإقليمية والدولية، إبراهيم عرفات (محررًا)، (جامعة القاهرة؛ مركز الدراسات الآسيوية، ١٩٩٩).

٤ ـ ضياء رشوان، مسار وعوائق وقف العنف الإسلامى فى مصر، ملف الأهرام الاستراتيچى، يونيو ١٩٩٩.

ثالثا: تقارير ومقالات وحوارات:

١ ـ تقـرير الحـالة الدينيـة فى مـصـر عـام ١٩٩٥ (القـاهرة: مـركـز الدراسـات السـيـاسـيـة والاستراتيچية بالأهرام، ١٩٩٧).

٢ ـ التقرير الاستراتيچى العربى لعامى ١٩٩٣، ١٩٩٨.

٣ ـ محمد سيد أحمد، الأفغان العرب، الأهرام ١٥/ ٤/ ١٩٩٣

٤ ـ محمد سيد أحمد، تدويل الإرهاب، مجلة الوسط ٢٧ السعودية، ١١/ / ١٩٩٥، مجلة الوطن العربى، عدد ٩٨٩، ١٦/ ٢/ ١٩٩٦.

٥ ـ حوار مع عبد الله أنس، الوسط، ع ٢٣٣، ٦/ ٥/ ١٩٩٦

٦ ـ حوار مع حميد جول، الوسط، ع ٣٣٢، ٨/ ٦/ ١٩٩٨.

٧ ـ حـوار مع سـفـيـر أفـغـانسـتـان فى القـاهـرة سـيـد فـضل الله فـاضـل، الوسط ع ٢٣٤، ٢٢/ ٧/ ١٩٩٦.

رابعًا: مصادر أجنبية:

1- Amin Saikal , The Rabbani Government, 1992- 1996,in William Maley edit.,) Fundamentalism Reborn: Afganistan and Taliban ,New York University Press,1998,pp., 56-59

2 - Shah Tarzy, "Afghanistan in 1991: A Gilmmer Hope." Asian survey. Vol, 32. No, 2. Februery 1992. P, 191.

3 - Edward Grazda , Afghanistan Dairy :1992-2000, London:power house-Book,2000

4 - ABCNEWS.COM, profile of a private terrorist, Osama Bin Laden-

5 - Anthony Davis,How the Taliban became a military ,in William Maley.

6 - Pamela constable, the washington post, August 21, 1998.

7 - Kathy Ganon, Bin Aaden one of FBI's Most Wanted,yahoo.com.

الفصل الخامس

المقاومة العراقية للاحتلال
والمشروع الأمريكى فى العراق (*)

مقدمة: المقاومة العراقية - اتجاهات الرأى العام إزاء قضية الاحتلال
المبحث الأول: تأصيل نظرى معرفي لظاهرة المقاومة الشعبية المسلحة
المبحث الثاني: نشأة المقاومة العراقية
المبحث الثالث: خريطة قوى المقاومة العراقية، والموقف الشعبى
المبحث الرابع: أهداف المقاومة العراقية واستراتيجياتها
المبحث الخامس: ديناميات المقاومة، وتطور عملياتها، وتكتيكاتها
المبحث السادس: السيناريوهات المستقبلية للمقاومة العراقية

(*) نشرت هذه الدراسة تحت «خريطة المقاومة العراقية ومواجهة الاحتلال»، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، العدد السادس، (كتاب: أمتى فى العالم)، ٢٠٠٥ .

مقدمة : المقاومة العراقية ـ إتجاهات الرأى العام إزاء قضية الاحتلال

يتناول هذا الفصل «المقاومة العراقية» باعتبارها تجسيدًا عمليًا لاتجاهات قطاعات أساسية مهمة من الرأى العام العراقى إزاء قضية الاحتلال الأمريكى والممارسات المتعلقة به . .

والواقع أن المقاومة التى شهدها العراق فى أعقاب سقوط مدينة بغداد مباشرة ـ ومازالت مستمرة بدرجة من الدرجات ـ تعتبر القضية المُثارة ـ منذ ذلك الوقت ـ والأكثر أهمية فى تحديد مصير العدوان والاحتلال الأمريكى للعراق[1] .

ننطلق من مسلمة أساسية مفادها أن عملية **«الاحتلال»** تستدعى بدايةَ نشأةَ **«المقاومة»** كردًّ فعلٍ لها، والخبرة التاريخية ناطقة بذلك ؛ فلم يوجد **«احتلال»** إلا ووجدت معه **«مقاومة»**، كما أنهما متناقضان من حيث **«الطبيعة»** و**«الاتجاه»** ؛ فإن استمرار أحدهما يستدعى نفى الآخر فى صراع مصيرى، فما من مقاومة عرفها

(١) راجع الدراسات التى تضع قضية «العدوان» و«الاحتلال» الأمريكى للعراق فى سياقاتها الكلية السياسية، والإستراتيجية، والحضارية : ـ
- طارق البشرى، العرب فى مواجهة العدوان، القاهرة : دار الشروق، ٢٠٠٣م وراجع كذلك عرضًا للكتاب فى مطبوعة : حصاد الفكر، العدد (١٤٣)، فبراير ٢٠٠٤ ص ٢١ ـ ٣٠ .
- نادية مصطفى، وحسن نافعة (محرران)، العدوان على العراق : خريطة أزمة ومستقبل أمة، القاهرة : مركز البحوث والدراسات السياسية، ٢٠٠٣، وراجع كذلك عرضًا للكتاب فى مطبوعة : حصاد الفكر، العدد (١٤٣)، فبراير ٢٠٠٤ ص ص ٩ ـ ١٤ .
- محمد الدورى، اللعبة انتهت : من الأمم المتحدة إلى العراق محتلاً (أجرى الحوار وقدم له جورج فرشخ)، بيروت : الدار البيضاء : المركز العربى الثقافى، ٢٠٠٤ . =

تاريخ أى شعب من الشعوب، إلا وانتهت بنوع وشكل من أشكال الانتصار على الاحتلال؛ وتحقيق الاستقلال . .

ونسعى فى هذا الفصل إلى إنجاز **هدف رئيسى** يتمثل فى استكشاف واقع هذه المقاومة، عبر محاولة توصيف الملامح الأساسية لها فى جوانبها الفكرية، والتنظيمية، والعملياتية . . إلخ، ومن ثم فإن هذه الدراسة تُصنف منهجيًا فى إطار الدراسات الكشفية أو الاستطلاعية "Exploratory, Pilot Study"، وهى نوعية من الدراسات السياسية مهمة فى بابها نظرًا لجدة موضوعها، وكونها ما زالت حالة حية ومثارة باستمرار وبشكل يومى(1)، إضافة إلى ندرة ـ إن لم يكن انعدام ـ الدراسات الميدانية الجادة عنها؛ وبالتالى فإنه لكى نحقق الأهداف

=ـ محمد جمال باروت، عام على احتلال العراق (ملف): حول ندوة «احتلال العراق وتداعياته: عربيًا، وإقليميًا، ودوليًا»، المستقبل العربى: السنة (٢٦)، العدد (٣٠٢)، أبريل ٢٠٠٤ ص ص ٣٤ ـ ٥٤, ومن الرؤى المقاربة لذلك فى الكتابات الغربية راجع: ـ

- Marwan Al kabalan , Anglo- Saxonism and New Colonialism , Gulf News , 21- 12 - 2003.

(١) حول التمييز بين الدلالات المختلفة لهذه المفاهيم من الناحية السياسية راجع الدراسات التالية: ـ

(أ) بصدد مفهوم الإرهاب السياسى: Political terrorism، وفى علاقته بحروب العصابات Insurgency

-,: Political terrorism ,Georgetown university library?s guide to Research: Terrorism and insurgency Ref. HV6431. S349 1988

- Staffan Hansson, Dealing with terrorism and insurgency, http://infogettable.Netessays/antiterrorism-

وبعلاقة المفهومين بما يجرى فى العراق راجع: ـ

ـ Steven Metz, insurgency and counter insurgency in Iraq, The center for strategic and international studies and the Massachusetts institute of technology, the Washington Quarterly, winter 2003- 2004.

وفى علاقته بمفهوم «الأمن» و«المقاومة» راجع: ـ

- Points "project on the insurgency, Terrorism and security" insurgency "what"s in a name"

http://paladin"san- Francisco.com/ inindex.htm

- Militant Islam, http://www.Library.Georgetown.Edu/advisar.

- Iraqi Resistance, from wikipedia, the free encyclopedia. http://en.Wikipedia.Org/wiki/Iraqi- resistance

الكشفية لهذه الدراسة؛ فلا بد من تحديد قضية الدراسة علميا عبر طرح مجموعة من التساؤلات الأساسية، تأتى الدراسة كمحاولة للإجابة عنها.

تتمحور **قضية هذا الفصل** - إذن - حول **«المقاومة العراقية»** لكونها تعكس اتجاهات قطاعات من الرأى العام العراقى إزاء قضية الاحتلال الأمريكى، وتمثل تجسيداً عمليًا لقناعات ومواقف شرائح مهمة من هذا الرأى العام. وفى هذا الصدد نحاول وضع هذه القضية فى السياق التأصيلى النظرى؛ والتى يتم بصددها التمييز بين خمسة مفاهيم أساسية فى نظرية الرأى العام يمكن أن نصوغها فيما يتعلق بموضوعنا فى شكل مجموعة من التساؤلات على النحو التالى:

(١) الإدراكات Perceptions المختلفة بصدد القضية، وتدور حول الإجابة عن السؤالين: ماذا؟ ومتى؟، ومن ثم فإن السؤال الذى يُطرح حول ماذا تواجه قوات الاحتلال فى العراق أى توصيفه وطبيعته، على النحو الذى تدركه كافة الأطراف وبالذات الرأى العام العراقى، وكذلك طبيعة ما تواجهه قوات الاحتلال فى العراق؛ الأمر الذى يتعلق بما يمكن أن نطلق عليه قوة وحُجية المفاهيم «Power of Terminology» فثمة مجموعة من المفاهيم يتم تداولها لتوصيف وتحديد طبيعة ما يجرى تترجمه إدراكات الأطراف المختلفة من قبيل: **«الإرهاب» و«الحرب النظامية» و«العمليات العسكرية» و«التمرد أو العصيان»، و«حرب العصابات»، و«المقاومة الوطنية.. إلخ»**، وأين موضع وموقع **«المفهوم»** الذى يعبر عن الظاهرة التى تحدث فى العراق من ظاهرة «الرأى العام»، وتحديداً من المظاهر العنيفة للظاهرة والتى تفصح فيها عن نفسها إزاء مواقف وأحداث مصيرية محددة، والتى يرتفع فيها العصيان السياسى إلى المقاومة المسلحة - وهو مانتناوله فى المبحث الأول من هذا الفصل، أما **التساؤل «متى؟»**؛ أى توقيت ظهور «المقاومة العراقية» وبروزها؛ ومتى إدراكها على هذا النحو ودلالة هذا الأمر؟؟ فلقد كان ظهورها السريع فى أعقاب الاحتلال مباشرة وفور سقوط مدينة بغداد يعد **«الواقعة» و«الحادثة»** الأبرز طيلة عام ٢٠٠٣ وما بعدها حتى

الوقت الحالى، فلقد أثارت التساؤل حول ما إذا كانت هذه المقاومة تعبيراً عن ردود أفعال طبيعية تجاه الاحتلال الأمريكى بشكل مباشر وسريع؟ أم أنها كانت موضع إعداد، وتنظيم مسبق، وتمثل وتعكس نوعًا من الاستمرارية لما كان موجوداً قبلها من حالة حرب؟؟ يبدو هذا التساؤل مشروعًا بسبب **«توقيت»** الظهور السريع للمقاومة، مقارنة بما حدث قبله مباشرة من سقوط درامى وسريع أيضًا لمدينة بغداد ودون مقاومة؛ وهو الأمر الذى يمثل نوعًا من المفارقة الواضحة التى تحتاج نوعًا محدداً من التحليل والتفسير العلمى؛ وهذا ما نتناوله فى المبحث الثانى من هذا الفصل.

(٢) الاتجاهات Trends & Attitudes، وتدور حول الإجابة عن السؤال: لماذا ثارت الأحداث والوقائع من وجهة نظر أطرافها؟؟ وبالتالى فإن **السؤال** يدور حول الاتجاهات المختلفة إزاء قضية المقاومة العراقية داخل الرأى العام العراقى، باعتبارها قضية مثارة بشكل شبه يومى؛ الأمر الذى يجعلها نقطة استقطاب دائم لهذه الاتجاهات؛ ويطرح التساؤل: لماذا المقاومة بدايةً؟ وبالتالى ما هى استراتيچية المقاومة العراقية؟ وما هى أهدافها الأساسية؟ وما هو برنامج تلك المقاومة العملى فى مختلف المراحل؛ سواء فى ظل الاحتلال أو فى مرحلة ما بعد الاحتلال؟ أى لماذا قامت حركات المقاومة فى العراق وتحديداً ماهى أهدافها، واستراتيچياتها، وبرامجها المختلفة وذلك من زاوية رؤية هذه الحركات لما تقوم به، ورؤية قطاعات الرأى العام العراقى وتقييم الدراسة لذلك؟ ورغم صعوبة الوصول إلى إجابات واضحة ومحددة ولكننا نسعى للوصول إلى الملامح الأساسية لها؛ من خلال تحليل خطابها السياسى والدينى المتضمن فى التصريحات والبيانات الصادرة عن قوة وتنظيمات المقاومة العراقية بمختلف أطيافها السياسية وسوف نتناول ذلك فى المبحث الثالث.

(٣) الأحداث والسلوكيات Behaviors& Events، وتدور حول الإجابة عن السؤال: كيف برزت الأفعال فى شكل أحداث وسلوكيات عملية ميدانية؟؟ **ومن ثم فإن السؤال** كيف برزت عمليات المقاومة العراقية كوقائع وأحداث على

الأرض فى مواجهة القوات المحتلة؟؟ وكيف تطورت من زاوية آلياتها وتقنياتها المختلفة مع مرور الوقت فى سبيل تحقيق أهدافها؟؟

أى أن الأمر يدور حول ديناميات عمليات المقاومة العراقية على الأرض، وتحديد الملامح الأساسية لتطورها من الناحية العملياتية، ومن زاوية تكتيكاتها المختلفة؛ وكيف تطورت هذه العمليات ميدانيًا من الناحيتين **«الكمية» و«النوعية»؟** الأمر الذى يقتضى رصداً لتطور هذه العمليات، وفهمًا للنقلات النوعية الحادثة فى إطارها؛ ومن ثم استكشاف البيئة التى تحدث فيها هذه العمليات؛ أى **«الوسط»** الذى يتفاعل معها سلبًا أو إيجابًا: ماهيته تحديداً وملامحه الأساسية. وفى هذا الصدد يمكن أن نقوم بعملية تصنيف أولية لهذه العمليات لنرصد ملامح تطورها، وكذلك نحدد المعايير التى على أساسها يمكن أن نقوم بعملية التصنيف، وسوف نتناول ذلك فى المبحث الرابع من الدراسة.

(٤) المحددات والأحكام Determinations & Judgments، وتدور حول الإجابة عن السؤال: مَن يفجر القضية والأحداث؟؟ أى أن السؤال يدور حول دلالات استمرارية المقاومة العراقية وتطورها من الناحيتين الكمية والنوعية؛ وهو الأمر الذى جعل منها قضية مثارة بشكل دائم وحالة يومية يتبلور حولها الرأى العام العراقى؛ ومن ثم يطرح السؤال: من يقاوم؟ فالقوى المقاومة ما زالت مجهولة بالنسبة للكثير من الباحثين؛ فالفعل المقاوِم هو الذى يتطور كَميًا ونوعيًا؛ أما القوى والتنظيمات التى تقوم به أو تقف خلفَ تطوره واستمراريته وتصاعده فهى موضع هذا التساؤل الذى يتمحور حول: تحديد ماهية خريطة قوى المقاومة العراقية الفاعلة وطبيعتها؟ وسنحاول الوصول إلى ذلك عبر تحليل مضمون خطابها الإعلامى والسياسى المتضمن فى بياناتها المختلفة، وكذلك ما هى القوى الداعمة للمقاومة فى الساحة العراقية بمختلف أطيافها؟ كما نثير ـ بهذا الصدد ـ معادلة العلاقة بين الداخل والخارج بصدد هذه القضية؟؟ وهذا هو المبحث الخامس من هذا الفصل.

(٥) الفعالية والتنبؤ بالمستقبل Effectiveness & Predications، فالفعالية تدور حول الإجابة عن السؤال حول ما هية البيئة التى تحدث فيه عمليات المقاومة؟ ومدى تفاعلها سلبًا أو إيجابًا مع تلك العمليات؟ وبالتالى تأثيرها على المقاومة ذاتها وتطورها وتحقيقها لأهدافها المستقبلية، وفى هذا الصدد نطرح السيناريوهات المستقبلية المتصورة للمقاومة؟؟ والتى تمثل امتدادًا ـ بشكل أو بآخر ـ للواقع الحالى للمقاومة ماهيتها، شروطها، ومحدداتها الأساسية، وقبل ذلك يجب التساؤل حول الشروط الحاكمة لها. ومواقف الأطراف المختلفة. ويمكن فى هذا الصدد أن نتصور العديد من السيناريوهات ولكننا نركز على أربعة منها تطرح العديد من التساؤلات، والذى نتناوله فى المبحث الأخير من هذا الفصل.

* * *

المبحث الأول

تأصيل نظرى معرفى لظاهرة المقاومة الشعبية المسلحة

تكمن نقطة البداية فى عملية التأصيل النظرى لظاهرة الرأى العام المقاوم فى تحديد الإجابة عن السؤال عن : ماهية ما تواجهه القوات الأمريكية والقوى المتحالفة معها «المحتلة» للعراق، وطبيعته، وتحديد ما هى المفاهيم التى يمكن من خلالها توصيفه، وفهمه، وتحليله؟ وماهية الإطار النظرى العام الذى يمكن من خلاله تأصيل هذه الظاهرة علميًا؟؟

تتعدد الإجابات المقدمة من مختلف القوى الفاعلة فى ساحة العراق ـ إلى درجة التناقض ـ وذلك توصيفًا لما تواجهه قوات الاحتلال؛ مستخدمة عدة مفاهيم من قبيل :

الإرهاب "Terrorism"، و«التمرد أو العصيان »"Insurgence"، وحرب العصابات «"Guerrilla"، والحرب النظامية » "Conventional war"و«المقاومة الوطنية "National Resistance" [(1)]؛ والواقع إن تحديد الظاهرة والإشارة إليها عبر استخدام مفهوم محدد يرتبط بما يُطلق عليه **«قوة المفاهيم أو حجيتها** The power of Terminology" من قبل الأطراف أو القوى التى تستخدمه، ويعنى ذلك من الناحية المعرفية على الأقل ثلاثة أمور[(2)] :

(1) Ahmed. S. Hashim, The Sunni insurgency in Iraq, Middle East institute, http:// www. Mideasti.org/ articles. 19-5-2004.

(2) Ahmed .S. Hashim, opcit, pp. 3-6.

الأول ـ يكشف اختيار مفهوم معين فى التعبير عن الظاهرة عن مجموعة من التحيزات السياسية والمواقف المحددة مما يحدث ويقع فى العراق؛ فمثلاً رؤية الإدارة الأمريكية ـ المحملة بمضامين سياسية يتم توظيفها فى سياقات مختلفة ـ من أنها جاءت للعراق حاملة **«رسالة»** التحرير من **«الاستبداد»** و**«الديكتاتورية»**؛ ومن ثم فإن من يقف فى مواجهتها يقوم بـ**«تعطيل»** هذه المهمة؛ وبالتالى فَهُمْ مجموعة من **«الإرهابيين»** و**«المخربين»** يقومون بعمليات **«إرهابية»**، و**«انتحارية»**.

الثانى ـ يمثل اختيار مفهوم محدد لتوصيف ما يحدث فى العراق فى مواجهة قوات الاحتلال «تحديداً معيَّنًا لطبيعة الحلول المقترحة للقضية أو المشكلة» فوصف ما يجرى فى العراق ـ كما ترى الإدارة الأمريكية ـ بأنه «إرهاب»، ويقف وراءه أنصار النظام السابق ـ خاصة فى بدايات العمليات ـ يعنى توجُّهًا معينًا لحل القضية عبر القضاء عليهم؛ ومن ثم فقد ساد اعتقاد لدى الإدارة الأمريكية أن مقتل عدى وقصى إبنى صدام حسين، وبعد ذلك القبض على صدام وإعدامه بأنه سوف يؤدى إلى هدوء الوضع فى العراق، وهو أمر تكفلت الأحداث بعد ذلك بإثبات عدم صحته، وأن المقاومة فى تيارها العام لا علاقة لها بصدّام ونظامه.

الثالث ـ قد يقود اختيار مفهوم معين لتحديد ما يجرى فى العراق وتوصيفه إلى تشخيص غير سليم؛ ومن ثم يستدعى طريقة خاطئة للتعامل معها. ولعل هذا هو الحادث من قبل مختلف الأطراف فى الساحة العراقية فى الوقت الحالى، فالإشكالية أعمق من أن تكون ترديًا للأوضاع الأمنية، ومسألة التركيبة العراقية والسكانية وكيفية تمثيلها . . إلخ.

ودون الدخول فى تعريفات نظرية ليس هنا موضع تفصيلها؛ فإن الدراسة تذهب إلى أن ما تواجهه «قوى الاحتلال "Occupation Forces" هو نوع من **«المقاومة الوطنية** "National Resistance" ساعية للتحرر من الاحتلال؛ وهو مفهوم «قانونى ـ سياسى» محدد، فضلاً عن كونه دقيقًا ومضبوطًا، ومعبرًا

بوضوح عن طبيعة ما يجرى فى العراق منذ أن وقع تحت الاحتلال، وحتى الوقت الحالى.

ويشير مفهوم المقاومة الوطنية المسلحة للاحتلال إلى **«عمليات استخدام القوة المسلحة أو التهديد باستخدامها ضد قوات الاحتلال العسكرى أو قوى إمدادها المباشرة وغير المباشرة ـ التى تؤدى إلى تقويتها وبالتالى نجاح عملية الاحتلال ـ ويكون ذلك بهدف إلحاق أى قدر من الخسائر بها؛ الأمر الذى قد يدفعها إلى الانسحاب أو التفكير فيه مما يعنى عدم تحقيق أهدافها جزئيًا أو كليًا».**

كما أن هذا المفهوم يصف الحالة العراقية؛ حيث تنخرط أعداد كبيرة بشكل متزايد من مجموعات سياسية ودينية فى عمليات ذات طبيعة قتالية وعنيفة واسعة الانتشار؛ لمقاومة وتحدى وإزاحة الوجود والاحتلال الأمريكى فى العراق.

يحتاج هذا التوصيف المعرفى للمقاومة فى العراق لمزيد من الإيضاح والتحديد لرصد ملامح تطورها، والإجابة على التساؤل: كيف؟ ولو جزئيًا؛ الأمر الذى يسهم بدوره فى تحديد وبلورة المفهوم، ويمكن أن نرصد ذلك فيما يلى[1]:

١ ـ بدأت العمليات المسلحة التى تقوم بها قوى المقاومة فى العراق ـ من حيث الشدة ـ **«منخفضة الحدة ـ Low Level»**؛ إذ كان معدل العمليات اليومى ـ فى البدايات ـ هو اثنتا عشرة عملية عسكرية، ارتفعت تدريجيًا لتصل إلى قرابة الضعف وهى أخذت فى التزايد حتى أن البعض يرى أن المقاومة بدأت تدخل «مرَحلة حرب الشوارع». وكانت حصيلة الضحايا فيها ما بين قتلى وجرحى ـ فى البداية ـ ضعيفة، ومع مرور الوقت تصاعدت. وحسب المصادر الرسمية الأمريكية فإن معدل القتلى اليومى بين جنود الاحتلال يتراوح بين اثنين وثلاثة أفراد، وأضعاف ذلك من بين العراقيين الذين يُستهدفون للاعتقاد بأنهم متعاونون مع قوات الاحتلال أو مؤسسات الحكومة الانتقالية؛ التى يُنظر إليها ـ على نحو واسع ـ على أنها من صنائعه، وثمة مصادر متعددة ترجح ارتفاع عدد جنود الاحتلال القتلى إلى أضعاف الأرقام المعلنة.

---

(١) المقاومة العراقية تكشف عن مقبرة جماعية لقوات الاحتلال الأمريكية، صحفية أخبار اليوم السودانية، ١٠/٥/٢٠٠٤. http://www.akbaralyoumsd.com

والذى يلفت الانتباه أن ثمة تعتيمًا إعلاميًا متعمدًا عبر رقابة صارمة حول حجم خسائر قوات الاحتلال الأمريكى من جراء عمليات المقاومة العراقية، يرجع فى أحد أبعاده إلى طبيعة تكوين القوات الأمريكية وما تفرضه الإدارة حولها من رقابة، فوفقًا للكثير من المصادر فإن أعدادًا كبيرة من هذه القوات هم من الذين «وُعدوا» بالحصول على الجنسية الأمريكية أو الـ « "Green Card لقاء مشاركتهم فى العمليات العسكرية، أو من المتعاقدين مع القوات الأمريكية أو من الجنود المرتزقة، وغالبًا لا تعلن الإدارة الأمريكية عن مقتل هؤلاء؛ إذ يقتصر هذا الإعلان على الجنود الأمريكيين المحترفين فقط من المواطنين. وحتى بالنسبة لهؤلاء؛ فإن هناك من يقول بضرورة التأكد من الأرقام المعلنة، وينبغى مضاعفتها، بل إن البعض يرى أن هناك «**مقابر جماعية**» تضم جنودًا لقوات الاحتلال تم كشفها ثم إخفاؤها[1]؛ ففى أثناء معركة الفلوجة ذكرت العديد من البيانات ـ عن قوى المقاومة ـ أرقامًا تبلغ المئات لخسائر القوات الأمريكية[2].

٢ ـ كانت العمليات المسلحة لقوى المقاومة العراقية فى البداية محصورة فى مناطق جغرافية محدودة بالعراق؛ أى إنها كانت ذات طابع محلى ـ Locality، وقد استمرت هكذا لفترة من الزمن. وقد ركزت الكثير من الدراسات ـ بالإضافة إلى أجهزة الإعلام ـ على أن المقاومة العراقية تتركز فى منطقة «المثلث السُّنى ـ Sun-ni Triangle » ، وذلك لأغراض محددة. . غير أن عمليات المقاومة العراقية أخذت بالفعل يتسع نظامها جغرافيًا، وتنتشر شيئًا فشيئًا لتشمل محافظات الجنوب ذات الأغلبية الشيعية؛ حيث ينخرط الشيعة تدريجيًا فى العمليات القتالية.

وقد بدا هذا الأمر واضحًا بشكل مبكر؛ فعلى سبيل المثال ذكر أحد المراجع الشيعية فى خطبته بمدينة الصدر ببغداد أن ثمة عمليات مسلحة تحدث فعلاً فى الديوانية والعمارة والحلة والبصرة ـ وهى مدن ذات أغلبية شيعية ـ ضد

---

(١) قيادة المقاومة العراقية تدعو القوات الأمريكية للانسحاب نهائيًا من الفلوجة (العراق)، خدمة قدس برس، ١٠/ ٤/ ٢٠٠٤ http://www.abburaq.net

(٢) تقرير، المقاومة العراقية تستعيد المبادرة وتتجاوز «المثلث السنى»، جريدة العرب اليوم، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٣ http://194.165.135.200/articles/previous/p.12.7.htm.

المحتلين، وقد أكد بقوة على أن المقاومة العراقية المسلحة ليست محصورة فى المثلث السُّنى، واعتبر أن هناك تعتيمًا مقصودًا من قبل وسائل الإعلام على المقاومة المسلحة فى المناطق الشيعية[1]، وقد وصف الكثيرون من المحللين دخول **«الشيعة»** (ممثلين بقطاع كبير ومهم من مؤيدى الزعيم الشيعى مقتدى الصدر، وهو تيار له ثقله فى الوسط الشيعى والسياسى العراقى)، بأنه دخول إلى «مرحلة جديدة»، وأنه يمثل **«منعطفًا مهمًا»**[2] فى تطور المقاومة العراقية بعد عام تقريبًا على بدء الاحتلال، ويرجع البعض هذا التحول إلى عدة أسباب منها:

١ ـ اتساع مساحة التباين بين ما أعلنته الولايات المتحدة كمبرر لقيامها بغزو واحتلال العراق، وما تقوم به على أرض الواقع من ممارسات؛ وهو ما يؤكد طبيعة الأجندة الأمريكية الفعلية. . .

٢ ـ رغم أن موقف تيار الصدر كان فى أحد أبعاده متفقًا مع الموقف الشيعى العام الذى اتضح مع بداية احتلال العراق؛ وهو المقاومة السلبية القائمة على إعطاء مهلة لقوات الاحتلال لتحقيق أهدافها المزعومة ببناء عراق ديمقراطى، إلا أنه كان أيضًا يعلن باستمرار أنه جاهز للمقاومة فى أى وقت، وكان له تحفظاته أيضًا على صيغة مجلس الحكم الانتقالى، والقانون الإدارى للدولة.

٣ ـ كان التيار الصدرى الأكثر انتقادًا داخل الشيعة لممارسات قوات الاحتلال من خلال صحيفة «الحوزة»؛ ولذلك قامت هذه القوات بإغلاقها حين تجاوزت **«الخطوط الحمراء»**، وهو الإجراء الذى دشَّن دخول أنصار الصدر حلبة المقاومة المسلحة منذ ذلك الوقت. .

٤ ـ تشكيل الصدر جيش المهدى ـ فى يوليو ٢٠٠٣؛ أى بعد ثلاثة أشهر من الاحتلال ـ وبدايات تصادمه مع قوات الاحتلال، وتطورت الأوضاع بعد ذلك على النحو الذى سنتناوله فيما بعد.

---

(١) أحمد منيسى، المقاومة العراقية تدخل مرحلة جديدة (تحليلات عربية ودولية)، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٤. http://www.ahram.org.eg/ahram/2001

(٢) المرجع السابق وراجع أيضًا

ـ محمد جمال عرفة، انتفاضة الصدر: الحلقة الشيعية فى المقاومة العراقية تنشط، شئون سياسية، المنطقة العربية. www.islamonline.net/arabic/politics/2004

والخلاصة أن أسباب تحول أنصار الصدر للمقاومة الإيجابية المسلحة كانت موجودة بالفعل طوال الوقت، وإن ظلت طيلة العام المنصرم سلبية، وحينما توفرات أسباب مباشرة لتفجير الموقف كان هذا ما حدث بالفعل[1]. وهكذا نستطيع القول أن العمليات القتالية التى تقوم بها قوى المقاومة العراقية غدت شائعة، وأصبحت **«حالة عامة»**، ولم تعد محلية؛ فقد شملت كل مناطق العراق أى أصبحت ذات طابع وطنى عام.

٥ ـ بدأت العمليات فى العراق عشوائية ومتناثرة ـ Decentralized فى أنحاء البلاد، مكونة من عمليات فردية أحيانًا» يقوم بها أفراد مدفوعون بدوافع متعددة دينية ووطنية وغيرها« وسوف نتناولها تفصيلاً فيما بعد. وأحيانًا كانت العمليات تتم أيضًا من خلال مجموعات محدودة العدد **(ما بين ثلاثة أو أربعة أفراد)**، ولم تكن هناك ـ على ما يبدو ـ تنظيمات تقف وراء عمليات المقاومة، أو على الأقل جهات تقوم على التنسيق بين هذه العمليات المقاومة.

ومع مرور الوقت فإنه قد بدأت تظهر درجات من التنظيم للقوى التى تمارس العمليات القتالية، وبدأت تظهر عمليات **«نوعية»** على درجة عالية من **«الحرفية» و«الإتقان»**؛ بحيث تقطع بأن وراءها عقليات ورؤية وجهات تنظيمية، وفى نفس الوقت بدأت تنظيمات تعلن أنها تتبنى العمليات القتالية المختلفة فى العراق، كما ظهرت درجات من التنسيق والتزامن ذات الدلالة، ولعل ذلك بدا واضحًا فى أحداث الفلوجة، وكذلك فى أحداث جيش المهدى والعتبات المقدسة فى النجف الأشرف. . .

والذى نخرج به أن المقاومة العراقية المسلحة؛ بالإضافة إلى كونها مفهومًا نظريًا محددًا كما أسلفنا، فإنها تحولت إلى «حالة» عامة فى العراق تمثل تعبيراً عن عملية ـ Process متنامية باستمرار، تجد صدًى لها بين قوى الرأى العام العراقى واتجاهاته المختلفة؛ إذ إن المؤشرات المستمدة من أكثر من استطلاع للرأى العام

(١) ذكر الناطق باسم هيئة العلماء المسلمين أنها لا تجيز اختطاف الرهائن وقتلهم ـ كأحد أساليب المقاومة ـ ولكن الجدير بالذكر أنها توسطت فى الإفراج عن الكثير من الرهائن كما هو الحال بصدد الرهائن اليابانيين والفلبيين، و قد أصبحت الهيئة مقصدا لكل من له قضية او مشكلة « رهائن » أو مختطفين ـ كما سيأتى فى هذه الدراسة.

تثبت أن الغالبية ترى فى الولايات المتحدة الأمريكية **«قوة احتلال مرفوضة»**، وأنها وراء حالة **«انعدام الأمن»**، و«تردى الأوضاع» فى البلاد، وأنها تدعم **«المقاومة»** التى تستهدف طرد الاحتلال والتصدى له بكافة الوسائل والسبل الممكنة، وإن كانت بعض الاتجاهات داخل الرأى العام تتحفظ على عمليات قتل المدنيين ـ وبالذات من العراقيين ـ وعلى عملية استهدافهم أساسًا، وأيضًا على استهداف مقرات المنظمات الدولية (كالأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها) والتى تقوم بأدوار فى خدمة الشعب العراقى، بالإضافة إلى كل ذلك رأت بعض الاتجاهات فى بعض آليات وتكتيكات **«المقاومة»** مثل اختطاف وقتل الرهائن من المدنيين أمرًا مرفوضًا من الناحية الشرعية والإنسانية(١).

ومن الناحية النظرية فإن المقاومة المسلحة هى إحدى أهم صور **«العصيان السياسى»** وأشكاله، والتى تعبر عن رفض صريح ومعلن لواقع معين، وسعى لتغييره باستخدام كافة الوسائل والأساليب بما فيها **«القوة المادية»**، وهى تؤسَّسُ على **«حق الدفاع الشرعى العام»**، وحق **«رفض الطغيان»**، وهى فى التحليل الأخير تعنى موقفًا للرأى العام فى بلد ما من سلطة معينة، أو وضعية محددة يرفض وينقض فيها الرأى العام الأوضاع والالتزامات المفروضة عليه قسرًا، ويخرج عليها معلنًا الرغبة الصريحة فى الإخلال بها وتحطيمها عمليًا(٢).

---

(١) د. حامد عبد الماجد، مفهوم العصيان السياسى، (سلسلة المفاهيم السياسية) Islamonline.Net حيث نتناول المفهوم باعتباره أحد أهم أشكال التعبير عن الرأى العام والإرادة الشعبية سواء اتخذ المسلك السلمى أو الإكراهى والعنيف.

(٢) تقدم لنا الخبرة التاريخية لمعظم الشعوب التى خضعت لموجات الاحتلال الاستعمارى أنها قضت فترة من الزمن قبل أن تفيق من «صدمة» احتلال بلادها، وأن تعيد تنظيم صفوفها من أجل مقاومة المحتلين ومحاولة طردهم، يذكر الرافعى أن مصر استغرقت فترة تزيد على ثلاثة عشر عامًا أسماها فترة «الجفاف الوطنى أو القومى» بعد سقوط مصر فى براثن الاحتلال الإنجليزى، ولم تفق إلا على يد مصطفى كامل والحزب الوطنى القديم كانت بدايات المقاومة راجع: ـ

د. محمد حسين، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، القاهرة: دار التراث العربى، ج ٢، ١٩٨٢، ص ص ٢٣١ – ٢٣٥ ـ غير أن خبرة المقاومة فى تطوراتها المستمرة والمتصاعدة غالبًا ما تستدعى فى الذاكرة الأمريكية المقارنة بخبرة الحرب الفيتنامية راجع حول ذلك: ـ

ـ Robert G Kaiser , Iraq isn?t Vietnam but they rhyme ,Washington Post , 2-1 - 2004.

المبحث الثانى

نشأة المقاومة العراقية

تعد المسألة اللافتة للانتباه بصدد **«المقاومة العراقية»** وينبغى أن تكون موضعًا للتحليل والتفسير؛ ليس مولدها ونشأتها فى حد ذاته - كما أسلفنا - فإن ذلك الأمر تعبير عن منطق الواقع، وحكم الخبرة التاريخية فى كل البلدان التى تعرضت لاحتلال أجنبى كما أسلفنا؛ إنما هو سرعة ظهورها، ومولدها المبكر بعد الاحتلال مباشرة، دون فارق زمنى حقيقى (منذ الأسبوع الثالث من شهر أبريل ٢٠٠٣م) هو القضية والمسألة، خاصة إذا وضعت موضع المقاومة مع الخبرات التى قدمتها حركات مقاومة أخرى لاحتلال بلادها[١].

فقد كانت حركة المقاومة - فى البداية - عفوية تلقائية (انتفاضة)، ثم بسرعة **«تحولت هذه الانتفاضة إلى مقاومة حقيقية للاحتلال الأنجلو - أمريكى؛ سواء بهدف التحرير، أو بهدف الانتقام للشرف والحفاظ عى العرض، أو بهدف إظهار الشعور الحقيقى تجاه الوجود الأجنبى على أرض العراق»**[٢].

---

(١) عبد الرحمن الهوارى، نشأة المقاومة العراقية، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٥٥)، السنة (٢)، يناير ٢٠٠٤، ص ١٣ - ١٧.

(٢) د. حامد عبد الماجد، مقدمة فى منهجية دراسة وطرق بحث الظواهر السياسية، القاهرة: دار الجامعة للطباعة والنشر، (سلسلة الكتب الدراسية)، ٢٠٠٠، ط١، ص ص ١٤٥ - ١٤٦.

إذن فإن السرعة تعد هى «**العامل المشترك**» بين سقوط بغداد وبين بروز المقاومة العراقية، ومضمون هذا العامل «**التتابع أو التعاقب ـ** Covariant Relationship " الزمنى ؛ وهو أمر ـ من الناحية العلمية ـ لا يفضى إلى القول بوجود علاقة سببية Casual Relationship بينهما[١]؛ وذلك على النحو الذى تذهب إليه بعض التحليلات من أن «**استراتيجية المقاومة رُتبت بعناية، وخُطِّطَ لها تخطيطًا محكمًا**»، ربما حتى قبل أن يقع فعل الاحتلال على العراق. وهذه ملاحظة تستبعد الفرضية التى تربط بين المقاومة وغطرسة الاحتلال وتجاوزاته؛ كما أنها فرضية تسقط عن العراقيين مقدماتهم الوطنية، وتجعل المقاومة مجرد رد فعل لانتهاكات الاحتلال، وليس على الاحتلال ذاته[٢]. ويذهب القائلون بذلك إلى أن الأمر يدعمه أن المقاومة لم تنتظر طويلاً كى تجهز نفسها، وأن الاقتدار القتالى والاحتراف، وإفادات العمليات نفسها، فضلاً عن اعترافات الاحتلال بالمفاجأة من حجم المقاومة، ودقة تنظيمها ما يوفر بعض عناصر ذلك الإقناع..

ولعل النتيجة المنطقية لهذا التحليل ـ والتى لم يفصح عنها هؤلاء ـ هو ما ذهبت إليه بدرجة واضحة لا لبس فيها بعض التحليلات الأخرى فى نفس السياق من «أن القيادة العراقية قد أعدت العدة لكل شىء، ووضعت الخطط لكل الاحتمالات، وأقرت مسبقًا بحتمية سقوط بغداد، ولكنها جعلت لهذا السقوط لحظة محددة تتحول بعدها من معارك رسمية وحربية إلى مقاومة شعبية وحرب عصابات»[٣].

وتذكر تلك التحليلات مجموعة من المؤشرات حول ذلك، إضافة إلى التأكيد على أن عدم وجود فاصل زمنى بين ظهور المقاومة الشعبية وسقوط بغداد يثبت

---

(١) عبد الإله بلقزيز، فى المقاومة العراقية، جريدة الوطن السعودية، العدد (١٣٠٤)، السنة الرابعة، ٢٥ أبريل ٢٠٠٤.

(٢) محمود شنب، صدام حسين والمقاومة المسلحة فى العراق، ٢٨,٨,٢٠٠٣ http://www.souriana.com

(٣) المرجع السابق، ص ص ٢ : ٣

أن المقاومة العراقية قد خُطط لها سلفًا لتكون إحدى مراحل الحرب العراقية»[1]، وإذا ذهبنا مع هذا المنطق فى امتداده الطبيعى؛ فإن المفارقة تتمثل فى التقاء هذه الدعوى مع ما تذهب إليه قيادات قوات **«الاحتلال الأمريكى»** من أن المقاومة العراقية يقف وراءها فلول النظام البعثى السابق من أنصار صدام حسين، والتى تعارض عملية **«تحرير»** وإعادة **«بناء العراق الديمقراطى»**؛ وهو الأمر الذى أكدت المؤشرات العلمية والواقع العملى الدائر حتى الوقت الحالى عدم صحته؛ كما سيأتى فيما بعد.

والواقع والأقرب إلى الصواب من الناحية العلمية فى تفسير النشأة المبكرة لحركة المقاومة العراقية يمكن أن يتمثل من وجهة نظر الدراسة فى التالى:

١ ـ تستدعى عملية **«الاحتلال»** للعراق ـ فى حد ذاتها كما أسلفنا ـ نشوء عمليات المقاومة لهذا الاحتلال كرد فعل معاكس. ولما كان سقوط بغداد السريع مفاجئًا وغير متوقع، كان رد الفعل العكسى وهو «المقاومة»، على نفس المستوى من السرعة وعدم التوقع، كما أن ممارسات قوات الاحتلال ـ العنيفة والمهينة للإنسان العراقى ولرموزه ـ ساهمت فى تزويد المقاومة بمزيد من الوقود الذى يزيدها اشتعالاً باستمرار، فالأمر لا يرتبط حقيقة بالنظام السابق[2].

---

(١) راجع حول هذه القضية التالى:

ـ معتز محمد، المقاومة العراقية مستمرة رغم سقوط صدام حسين.

http://www.news.masrawy.com/masrawynews/6/2/2003/news.

ـ محمد المصرى، المقاومة العراقية بدون صدام، قراءات صحفية

http://www.Islamtoday.net/articles/show10-05-2004.

ـ تقرير، متحدث باسم المقاومة العراقية يؤكد التصميم على مقاومة الاحتلال وينفى أية صلة بالنظام المخلوع، جريدة الوطن، ١١ أغسطس ٢٠٠٣، العدد (١٠٤٦) ,السنة الثالثة.

http://www.Alwatam.com10-5-2004

(٢) مثنى حارث الضارى، حول المقاومة العراقية للاحتلال (ملف) المقاومة، المستقبل العربى، العدد ٣٠٣، مايو ٢٠٠٤، ص ص ٨٠ ـ ٨٩ وكذلك للمقارنة راجع: ـ

ـ آمى ورتنجتون وآخرون، العراق: الغزو ـ الاحتلال ـ المقاومة: شهادات من خارج الوطن العربى، حصاد الفكر العدد ١٤٣ مارس ٢٠٠٤، ص ص ١٥ ـ ٢٢.

ـ توماس بيكرنج وآخرون، العراق بعد عام واحد، المستقبل العربى، السنة (٢٦)، العدد (٢٠٠٣)، أبريل ٢٠٠٤، ص ص ٦ ـ ١٣.

٢ ـ تنطلق المقاومة العراقية فى معظم قواها وقطاعاتها ـ خاصة فى البداية ـ من رؤية شرعية إسلامية؛ فهى قد «انطلقت وفق حسابات شرعية تتمثل فى الجهاد ضد المحتل لتحرير أرض الإسلام، ووفقًا للحكم الشرعى بوجوب دفع العدو حسبما أفتى به عدد من علماء العراق فى الخارج قبل بدء الحرب على العراق، ويتعزز هذا التفسير ويزداد قوة من خلال الثقل الكبير للتنظيمات الإسلامية فى حركات المقاومة، وتصريحها المستمر بالأصل الشرعى الذى تستند إليه فى مقاومة المحتل»[١].

٣ ـ حركت الاعتبارات الوطنية والقومية فئات أخرى من الشعب العراقى لمقاومة احتلال بلادهم؛ والانخراط فى عمليات للمقاومة تأسيسًا على الدوافع الوطنية والقومية، وتضم هذه الفئات ـ من العراقيين ـ بعض الذين كانوا منخرطين فى أحزاب وتيارات سياسية كانت تعمل تحت الأرض زمن صدام حسين، أو غيرهم من المواطنين العاديين، أو من بقايا البعثيين والقوميين الذين كانوا على خلاف مع النظام السابق

٤ ـ حركت أيضًا الاعتبارات العشائرية والقبلية فئات وقطاعات مهمة من الشعب العراقى، خاصة إذا أدركنا طبيعة التركيبة العشائرية للعراق، إضافة إلى الخبرة التاريخية؛ حيث لعبت بعض هذه التكوينات العشائرية أدوارًا حاسمة فى ثورة العشرين ضد الاحتلال الإنجليزى للعراق، وبالتالى فإن الاحتلال الأمريكى للعراق مجددًا فى بدايات القرن الواحد والعشرين أدى إلى خلق رغبة فى استعادة بعض أبعاد وجوانب هذه الخبرة التاريخية من خلال المقاومة المسلحة.

---

(١) فقد أقنع هؤلاء المعارضين العراقيين الرئيس بوش وأركان إدارته بأن أغلبية أهل العراق (والشيعة خاصة) سيكونون من مؤيدهم عند دخول راجع حول ذلك: ـ

- Juan Cole, The Iraqi Shiites: On the history of America" s would- be allies, Bosten Review, see site: http://www.Bostonreview.net/BR28.5 /cole. Html.

• طبيعة إدراك الإدارة الأمريكية لمولد المقاومة العراقية ونشأتها :

كان واضحًا فى بداية الاحتلال الأمريكى للعراق أن الإدارة الأمريكية كانت تتوقع تأييدًا وترحيبًا من غالبية الشعب العراقى ؛ فقد صور لها بعض المتعاملين معها من قوى المعارضة العراقية فى الخارج[1] فى خلط واضح بين الرغبة فى التحرر والتخلص من نظام تسلطى مستبد، واحتلال الأرض و«الوطن» وبالطبع فإن أى «احتلال» يخلق «مقاومة» كما أسلفنا ؛ إلا أن المفارقة أن الإدارة الأمريكية اعتبرت أن ما قامت به ـ رغم اعتباره قانونًا احتلاليًا ـ هو «تحرير»، ومساعدة فى بناء عراق ديمقراطى، وأن من يقاومون ذلك لابد أن يكونوا من أتباع النظام السابق. وقد أفصح عن ذلك بوضوحَ وزير الخارجية باول : **«أعتقد أنه لو لم نكن نواجه هذه المشكلة الأمنية، ولو لم نكن نواجه هؤلاء الإرهابيين، وهؤلاء الأشرار من مخلفات النظام السابق ؛ لكان الناس رمونا بالورد تقديرًا لكل ما نفعله للمساعدة وإعادة الإعمار»**[2].

على أنه مع سرعة تطور الأوضاع وتجدد المقاومة العراقية واتساعها ـ على النحو الذى أسلفنا ـ وذلك فى أعقاب الاحتلال مباشرة ؛ الأمر الذى **«أدهش»** قيادات الإدارة الأمريكية من سرعة تفجرها وضراوتها ؛ فقد ذكر «باول» بوضوح : **«لقد دُهشت . . هناك مقاومة أكثر مما كنا نتوقع . .»**[3].

وأيًا ما كان الأمر فإن المقاومة العراقية أضحت حقيقة واقعة متنامية فى الساحة العراقية ؛ الأمر الذى يدفع إلى ضرورة تحديد خريطة قواها وتنظيماتها وهذا هو موضع المبحث القادم . .

---

(١) باول يعرب عن دهشته لضرواة المقاومة العراقية . http://www.Albawaba.com.5.5.2004.
(٢) المرجع السابق، ص ١٢ ـ ١٣,
سلمان الجميلى، المقاومة العراقية وملامح تشكيل الهوية، المستقبل العربى، العدد (٣٠٣)، مايو ٢٠٠٤، ص ص ٨٩ ـ ١١١ .
(٣) مثنى حارث الضارى، مرجع سابق، ص٨٤ .

المبحث الثالث

خريطة قوى المقاومة العراقية، والموقف الشعبى إزاءها

يُعد الحديث عن خريطة قوى المقاومة العراقية وعملية توصيفها وتحليلها أمرًا بالغ الأهمية؛ ولكن هذه العملية ينبغى ـ لكى تكون دقيقة وعلمية ـ من التأكيد على مجموعة من الضوابط العلمية والمنهجية على النحو التالى :

١ ـ تحيط بعملية التعرف على قوى المقاومة العراقية وتصنيف مختلف أنواع تنظيماتهم درجة عالية من الغموض واللبس فى الكتابات القليلة التى تناولت هذه القضية بالتحليل؛ وهذا أمر مفهوم نتيجة طبيعية المقاومة وعملياتها المختلفة. ولم يكن متاحا من أداة علمية لمعرفة قوى المقاومة العراقية، وتصنيفها، وتحليلها سوى «البيانات» الصادرة عن هذه القوى؛ خاصة فى أعقاب تنفيذ عملياتها المقاومة، وكذلك بعض المقابلات عن شهادات ميدانية لرصد الساحة، وأيضًا الاعتماد على بعض النتائج المستقاة من دراسة ميدانية سابقة لحالات محددة من المقاومة المسلحة [(١)].

٢ ـ تعتبر خريطة قوى المقاومة العراقية متغيرة وغير ثابتة؛ وهذا يعنى أمرين : ـ **الأول ـ** إنها متنامية من الناحيتين الكمية (العدد)، والنوعية (قوة العمليات وشدتها)؛ بالتالى فإن تحديدها فى لحظة زمنية معينة سيكون قاصرًا، إذ ينضاف

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

إليها باستمرار العمليات وتطورها زخم جديد كمى ونوعى . **الثانى ـ** إن هناك تنظيمات «دعائية» يتضح مع مرور الوقت أنها **«وقتية»** ؛ إذ تكتفى ببيان واحد مثلاً ثم تختفى بعد ذلك . على سبيل المثال «مجاهدو صدام» التى لا يُعرف عنهًا إلا بيانها المتعهِّد بالثأر لمقتل عدى وقصى ، و**«الجبهة الشعبية»** التى اكتفت ببيان واحد فى جريدة الأسوار(١) ، إضافة إلى أن هناك «مجموعات قتالية استخدمت أسماء بعض تشكيلات الجيش السابق مثل **«سرية حطين» و«فرقة المدينة المنورة»** ، وهذا الاستخدام رمزى ولا يدل على وجود عسكرى حقيقى . كما أن هناك تنظيمات مناطقية أى تنسب نفسها إلى مناطق محددة مثل **«مجاهدو الحديثة»**(٢) وبالتالى فإن أى تحديد لخريطة قوى المقاومة العراقية ـ فى لحظة زمنية معيَّنة ـ يبقى مسألة نسبية متغيرة ، إذ تنضاف وتحذف ـ باستمرار تطور المقاومة والعمليات ـ قوى وتنظيمات جديدة ومحددة .

٣ ـ يجب التمييز بصدد المقاومة العراقية بين بعض المكونات المتداخلة ؛ فعلى سبيل المثال : الأول ـ التمييز بين القوى المنخرطة فى عمليات المقاومة العسكرية بالفعل من ناحية ، ومن ناحية أخرى القوى الداعمة والمؤيدة لهذه القوى من الناحية الشرعية والفكرية ولكنها لا تشارك فى العمليات ؛ وإن كان الخطاب السياسى والشرعى لكليهما موحداً أو متقاربًا ، والثانى ـ التمييز بين **«قوى المقاومة وتنظيماتها»** ، وبين **«أحياء ومناطق المقاومة»** ؛ أى التمييز بين الأساس **«التنظيمى»** للمقاومة ، والأساس **«الجهوى»** و**«المناطقى»** ، فهناك أحياء ، ومدن مقاومة مثل **«الفلوجة» و«الصدر»** ، وهناك قوى وتنظيمات مقاومة سوف نتناولها تفصيلاً .

---

(١) من أمثلة هذه الكتابات راجع : ـ

ـ تقرير ، هوية المقاومة العراقية ، جريدة العرب اليوم ، ٣/ ٨/ ٢٠٠٣ .

ـ توفيق المدينى ، جريدة الراية القطرية ، ١٤/ ١/ ٢٠٠٤ .

ـ رفعت سيد أحمد ، جريدة العرب اللندنية ، ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٣ .

ـ عبد الكريم العلوجى ، جريدة العربى الناصرية ، ١٦/ ١١/ ٢٠٠٣ .

(2) Ahmed .S. Hashim, opcit, 2- 8.

وفى هذا الإطار المنهجى يمكن أن نتناول توصيف قوى المقاومة العراقية وتحديد خرائط توزيعها؛ غير أنه ينبغى الإشارة إلى ثلاثة توجهات سابقة تناولت هذه المسألة، وهى محاولات موضع تقييم فى هذه الدراسة، وهذه التوجهات يمكن حصرها فى التالى:

الأول ـ يقوم على عملية إحصاء تنظيمات وقوى المقاومة، وتعدادها من الناحية الكمية اعتماداً على العمليات التى تقوم بها والبيانات الصادرة عنها، وغالبيتها دراسات صحفية تصل بهذه التنظيمات أحيانًا إلى عشرين، أو ثلاثين تنظيمًا[١]، وهذه كتابات عربية تأتى غالبًا من باحثين ذوى توجهات قومية . . .

الثانى ـ يقوم على تصنيف القوى على أساس درجة قربها من النظام العراقى السابق، أو الخلفية الفكرية والأيديولوجية، مع الميل إلى إعطاء القوى العلمانية والقومية وزنًا معتبراً فى هذا الصدد، ويتمثل ذلك فى كتابات العديد من الباحثين الغربيين الذين تناولوا الظاهرة، وفى هذا الصدد نركز على حالة لإحدى الدراسات التى عددت هذه القوى والجماعات كالتالى[٢]:

١ ـ قُوى من أتباع النظام السابق من ذوى الخلفيات العسكرية خاصة الحرس الجمهورى، وقوى الأمن والمخابرات، وأعضاء حزب البعث وبالذات فدائيو صدام.

٢ ـ **«العودة»** الاسم الجديد لحزب **«البعث»** من مؤيدى صدام، والجهاز الإعلامى والسياسى لحزب البعث، والثالثة **«حركة رأس الأفعى»** وهى أيضًا بعثية وذات علاقة بالقبائل العربية السنية.

(1) Ibd ,opcit , 8-18

بالطبع فإن هذه التوصيفات التى يطلقها الكاتب ـ حول منظمات المقاومة الوطنية فى فلسطين وأنها تمارس «الإرهاب» وأعمال «حروب العصابات» متسق مع الموقف الرسمى الأمريكى، ومع المؤسسة العسكرية التى يعمل فى إحدى أكاديمياتها وأبرز رموزها وزير الدفاع رامسفيلد

(٢) راجع هذه الدراسة فيما أوردناه بالمبحث الأول حول:

"The power of terminology"

٣ ـ **الناصريون:** وهم مجموعة صغيرة من القوميين العرب من غير البعثيين (من أنصار الوحدة العربية)، وهم يقاومون الاحتلال الذى وَحَّد الجميع ضده. والناصريون يؤيدون المقاومة سواء بالوسائل العسكرية أو السلمية من داخل العمل السياسى.

٤ ـ قوات جيش الأنبار (الثوريون العراقيون) وهى حركة حرب عصابات قومية ضد نظام صدام منتشرة فى محافظة الأنبار.

٥ ـ اللجنة أو السكرتارية العامة لتحرير العراق الديموقراطى؛ وهى حركة يسارية قومية معارضة لصدام، وهى تدين أيضًا الحكومة الانتقالية التى فشلت فى تحقيق الأهداف الأساسية المتعلقة بتوفير الأمن للعراقيين

٦ ـ **منظمة الآفة السوداء**؛ وهى منظمة ذات طابع دعائى وتوجهات قومية ودينية تنادى بتخريب أنابيب وصناعة البترول العراقى؛ لكى لا تصل إلى أيدى الأعداء الغربيين.

٧ ـ **«الجبهة الموحدة لتحرير العراق»**؛ وهى منظمة معروفة للقلة بأنها غير صدامية وغير بعثية، وهى تنادى بتوحيد جميع العراقيين والقوات العراقية لمقاتلة الاحتلال الأمريكى.

٨ ـ **«الجبهة القومية لتحرير العراق»** والذى يبدو من اسمها أنها مقاومة علمانية، ولكنها تضم عناصر متعاونة من النظام السابق، والاتجاهات الدينية..

٩ ـ تنظيم الفاروق وهذه الحركة تعرف نفسها بأنها الذراع المسلح (الجناح المسلح) للمنظمة الإسلامية للمقاومة فى العراق المسماة بـ**«الحركة الإسلامية فى العراق»**، وهذه من أولى المنظمات التى أقامت «سرايا» سواء «دفاعية» أو **«هجومية»**، وتحوى أفرادًا من كل التخصصات العملية...

١٠ ـ مجاهدو الطائفة المنصورة: وهى تضم عناصر من الإسلاميين السُّنة غير العراقيين، وحتى العناصر الأصولية السُّنية من أنصار السلفية الجديدة، وتعد كتائب **«الشهداء»** هى الجناح العسكرى لمجاهدى الطائفة المنصورة.

١١ ـ كتائب المجاهدين للجماعة السلفية فى العراق وهم جماعة من الإسلاميين السُّنة الذين يزعمون بانتمائهم الرمزى والروحى للقائد الفلسطينى الإخوانى عبد الله عزام الذى قَاَتَلَ مع المجاهدين الأفغان، وعاونه فى ذلك القائد الذى ذاعت شهرته بعد ذلك أسامة بن لادن.

١٢ ـ **ألوية وخلايا الجهاد** تشكلت هذه الألوية والخلايا وبزغت فى أواخر يولية ٢٠٠٣ . وهناك القليل من المعلومات المتاحة والمتوافرة عنها، باستثناء أنها تدعو إلى القيام بشن حروب عصابات، وحروب مدن ضد قوات الاحتلال فى العراق، كما أنها تهدد بإعدام وقتل «الجواسيس والعملاء» وهم ـ فى تعريف ألوية وخلايا الجهاد ـ أولئك الذين يتعاونون مع قوات الاحتلال الأنجلو ـ أمريكى.

وتركز هذه الدراسة ـ ربما كونها صدرت مبكرًا حول الظاهرة وهى فى بداياتها، ما زالت لم تتكامل أبعادها ومقوماتها ـ حول عناصر المقاومة الذين يقولون بأنهم من الموالين للنظام السابق، والذين يعتقدون أنهم لا يوجد خيار أمامهم ـ فى ظل المطاردة المستمرة لهم ـ سوى الاستمرار فى المقاومة، ومحاولة استلهام تجارب المنظمات التى تمارس «الإرهاب» و«حروب العصابات» (مثل: حزب الله اللبنانى، ومنظمة حماس) فى عملياتهم العسكرية(١).

والذى يمكن أن نأخذه على هذه الدراسة فى ضوء الضوابط المنهجية التى سبق الإشارة إليها، وباعتبارها نموذجًا لما تنحو إليه الكتابات الغربية عمومًا:

أولاً ـ محاولة ربط ظاهرة المقاومة بنظام صدام حسين والموالين له من ناحية، ومن ناحية أخرى **«قوى الإرهاب»** بالزرقاوى من أتباع أسامة بن لادن، ثانيًا ـ محاولة إعطاء ظاهرة المقاومة طابعًا طائفيًا ومصلحيًا بالقول بأن الذين ينخرطون فى المقاومة هم من **«العرب السُّنة»** الذين استفادوا مصلحيًا من فترة حكم صدام

(١) راجع حول ذلك: ـ
سلمان الجميلى، المقاومة العراقية وملامح تشكيل الهوية، مجلة المستقبل العربى، العدد (٣٠٣)، ٢٠٠٤، ص ٨٩ .

حسين، ويخشون زوال هيمنتهم فى ظل معادلات الواقع العراقى **«الديمقراطى»** الجديد الذى سيتم إنشاؤه وإقامته. وثالثًا ـ محاولة إظهار أن قوى الأغلبية فى العراق ـ سواء من الشيعة أو من الأكراد وغيرهم من القوميات ـ لا تنخرط فى عمليات المقاومة ولا تؤيد قواها وتنظيماتها المختلفة. . .

والذى يبدو لنا فى هذا الصدد أن هذه السمات والخصائص ـ التى تقدمها هذه الدراسات والتحليلات للظاهرة ـ ربما يكون بعضها نابعًا من كونها كُتبت فى بدايات عمليات المقاومة، والتى لم تكن قد تطورت وتبلورت بعد، كما أنها قدمت فى إطار ومن منطلق التعريفات والتحديدات المفاهيمية بكل آثارها ودلالاتها التى أشرنا إليها [1].

وما نذهب إليه بهذا الصدد هو تصنيف هذه القوى والتنظيمات المنخرطة فى عمليات المقاومة المسلحة حسب طبيعة الدوافع التى تحركها، والإطار الفكرى الذى تنطلق منه ـ كما يتبدى فى بياناتها الصادرة عقب العمليات ـ إلى اتجاهات رئيسية يحوى كل اتجاه عدداً من القوى والتنظيمات. هذا من ناحية أولى، ومن ناحية ثانية الإشارة إلى بعض القوى المساندة والداعمة للمقاومة العراقية المسلحة . . . كما سيأتى تفصيلاً فى النقطة التالية . .

أولاً: ـ الاتجاهات والقوى الأساسية المنخرطة فى المقاومة العراقية المسلَّحة:

الفرضية الأساسية ـ بهذا الصدد ـ «أن المقاومة العراقية تتضح ملامحها، وتتشكل هويتها كلما استمرت وتصاعدت العمليات المسلحة التى تقوم بها»[2].

وإذا كان ما يجمع كافة اتجاهات المقاومة هو موقفها من «الاحتلال» ومحاولة طرده وتحقيق استقلال العراق، فإن الذى يظهر من تحليل خطابها السياسى

(١) راجع حول ذلك: ـ
سلمان الجميلى، المرجع السابق، ص ص ٩٠ ـ ٩١
مثنى الضارى، المرجع السابق وكذلك: د. لطفى يحى، ممن تتكون المقاومة العراقية.
http://www.arabtimes.com/latef/doc.8.html

(٢) د. حامد عبد الماجد، ظاهرة الأفغان العرب . . . نحو تحديد علمى للمفهوم، القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية (سلسلة أوراق بحثية ١٣٨)، ٢٠٠١ .

والإعلامى المتضمن فى بياناتها سواء فى مضمونه، أو رموزه المختلفة أن الطابع الإسلامى والوطنى هو الغالب عليها . . .

وباختصار فإننا نستطيع تقسيم هذه الاتجاهات المقاوِمة إلى ثلاثة أساسية، وهى[1]: ـ

أولاً: الاتجاهات الإسلامية المقاومة:

الإسلاميون المقاومون فى العراق الذين جاءوا من خلفيات فكرية وشرعية متنوعة ـ وقسم كبير منَهم من **«العراقيين»** الذين عانوا من الاضطهاد والقمع فترة حكم حزب البعث وصدام حسين. والبعض يرى أن معظمهم «هواة»، والبعض يرى أن لديهم خبرة عسكرية معتبرة، وأنهم يتعلمون بسرعة من خبرة إخوانهم فى بقية التنظيمات الإسلامية . . .

ويمكن التعرف على هذه الاتجاهات من خلال؛ أسمائها، ومضمون بياناتها، ويندرج فى إطار هذه الاتجاهات العديد من التنظيمات والجماعات التى أسلفنا الحديث عنها من قبيل: حركة المقاومة الإسلامية، والسلفية المجاهدة، وأنصار السُّنة (التوحيد والجهاد)، ومجاهدى الطائفة المنصورة، وألوية وخلايا الجهاد . . . إلخ.

ويمكن أن تقسم الاتجاهات الإسلامية المقاومة إلى نوعين وفقًا لمعادلة العلاقة بين الداخل/ والخارج على النحو التالى:

(أ) جماعات المجاهدين العرب والمسلمين:

تعد هذه الجماعات محدودة العدد ـ رغم أنه من السهل المبالغة فى أعدادهم

---

(١) راجع رؤى وتحليلات مختلفة حول هذه القضية فى: ـ

- Esther Schrader, Ansar al Islam seen as key Threat, Economist intelligence unit (EIU viewswire) Iraq: politics: News analysis, www.viewswire.com, 24oct., 2003.
- Jim Krane, Foreigner?s Role in Iraq insurgency small, Guardian, Monday, May 3, 2004.

وأهميتهم كما يفعل الكثير من المراقبين فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ ولكنهم فى الغالب ذوو كفاءة عالية من ناحية التدريب والحرفية.

وتعود جذور هذه الجماعات إلى ما تناولناه فى الفصل السابق حول **«ظاهرة الأفغان العرب»**[1] الذين قاموا بدخول العراق متسللين فى بدايات العدوان الأمريكى، وقد جاءوا من معظم البلاد العربية والمسلمة مثل: سوريا، ومصر، والأردن، والسعودية، والسودان، والشيشان... إلخ، وغالبية هؤلاء ينتمون إلى الطبقة الوسطى والعاملة؛ وهؤلاء تركوا بلادهم ودخلوا العراق للمشاركة فى «الجهاد» ضد قوى الاحتلال الأمريكى...

ويمكن أن نميز فى إطار هذه الجماعات بين:

(أ) هؤلاء الذين دخلوا العراق فى الأيام الأولى للحرب وأسهموا فى مقاتلة الأمريكيين وأظهروا البطولات التى اعترف بها الكثيرون، واستُشهدوا فى المعارك المختلفة: معركة المطار، والأعظمية، وأم القصر، وبعد الاحتلال عاد معظمهم إلى بلادهم، وإن بقيت منهم قلة داخل العراق.

(ب) جماعات مقاتلو القاعدة: ثمة دلائل تؤكد وجودهم أيضًا، فقد دخل بعض متطوعيهم عبر الحدود العراقية المفتوحة، ومما يرجِّح وجودهم هو طبيعة بعض العمليات التى تميزت فيها القاعدة عن غيرها (السيارات المفخخة، والدقة والتزامن فى العمليات .. إلخ) ,فضلاً عن رسائل ابن لادن والظواهرى التى تحض على جهاد الاحتلال الأمريكى.

ويبدو أن هناك قدرًا معينا من المبالغة فى تقدير حجم هذه الجماعات ونسبة العمليات المختلفة لها، ومن هذا القبيل؛ التركيز الأمريكى على ما يُطلق عليه جماعة «أبو مصعب الزرقاوى»، واعتبارها وراء معظم العمليات الخطيرة فى العراق ـ دون أن تقدم دليلاً متماسكًا على ذلك، كما كان يجرى التركيز على

(١) هذه الدراسة الميدانية قام بها د. سلمان الجميلى ـ على النحو الذى قدمه فى بحثه المنشور بالمستقبل العربى ـ واعتمدنا على أهم الاستخلاصات والنتائج التى توصل إليها راجع حول ذلك: ـ
د. سلمان الجميلى، مرجع سابق، ٨٧ ـ ٩٠.

«جماعة أنصار الإسلام» خاصة فى بدايات المقاومة باعتبارها تشكل امتداداً لتنظيم القاعدة فى العراق ـ وإن كان لا يوجد دليل على ذلك ـ وهى جماعة كردية تتركز فى شمال العراق، وإن كانت عملياتهم شملت معظم أنحاء العراق[1].

(ج) جماعات المقاومة الإسلامية العراقية: والتى تقتصر عضويتها على العراقيين فقط، وهى أساس معظم جماعات المقاومة العراقية. ويقدم بعض الباحثين أدلة أخرى على السمة الإسلامية لهذه الجماعات إضافة إلى تحليل مضمون بياناتها، ورموزها، وأسمائها... إلخ، على نحو ما أسلفنا الحديث عنه؛ ومن هذه الأدلة التالى:

١ ـ غالبية المناطق التى شهدت المقاومة المسلحة هى مناطق غالبية سكانها من المتدينين أو المحافظين؛ فعلى سبيل المثال: مدينة الفلوجة تشتهر بأنها مدينة المساجد، كما أن **«الشهداء الذين سقطوا فى المقاومة العراقية تبلغ نسبة الملتزمين منهم دينيًا حوالى ٨٠٪ من مجموع العينة التى قمنا بدراستها»**[2].

٢ ـ غالبية المعتقلين فى سجون الاحتلال الأمريكى حوالى **٩٠٪ من السُّنة، والتهم الموجهة لهم هى الاشتراك فى المقاومة أو التحريض عليها»**[3].

ـ والواقع أنه مع التسليم بأن «السُّنة العرب» كانوا الأقل فى إبداء القبول بالأمريكيين ?للأسباب التى أوضحناها سابقًا ـ والأكثر اشتراكًا فى المقاومة المسلحة ـ وذلك فى البدايات الأولى للاحتلال ـ إلا أنه مع الوقت تطورت المقاومة وشاركت الشيعة ?وبالذات أنصار مقتدى الصدر ـ فى العمليات العسكرية؛ بحيث أصبحت المقاومة العسكرية شاملة لكل العراقيين؛ ومن الأمثلة التى يمكن أن نذكرها فى هذا الصدد النماذج الثلاثة التالية وهى:

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٨٩ ـ ٩٠.

(2) Peace hopes up In battered falluja, http://English.Aljazeera.net

(٣) د. عبد الإله الراوى، انتصر أهالى الفلوجة وأرغموا الولايات المتحدة للخضوع إلى مطالبهم فكيف ستحل قضية الصدد وجيشه، جريدة القدس العربى، ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٤.

(أ) نموذج المقاومة فى الفلوجة .

(ب) نموذج المقاومة لأتباع مقتدى الصدر .

(ج) نموذج المقاومة الوطنية الإسلامية .

وسوف نفصلها فيما يلى :

(أ) نموذج المقاومة العراقية فى الفلوجة :

قدمت مدينة الفلوجة العراقية نموذجًا ذا دلالة فى المقاومة ؛ فقد كانت من أولى المدن العراقية التى انطلقت منها المقاومة مبكرًا فى مواجهة الاحتلال الأمريكى ، وظلت متركزة فيها وفى غيرها من المدن مما أُطلق عليه **«المثلث السنى»** (كما أسلفنا من قبل) [1]، ولكن المدينة ـ التى تتمتع بطابع خاص من انتشار التدين والمحافظة بين سكانها ، وذلك بشاراتها المختلفة ، وأيضًا وجود عدد كبير من المساجد بالمدينة (مدينة المساجد كما أسلفنا) ـ تحولت إلى مراكز للإعداد للمقاومة . ونتيجة للدور المهم الذى تلعبه المدينة فى المقاومة حاصرتها القوات الأمريكية ؛ وذلك فى أعقاب مقتل أربعة من المتعاقدين الأمريكيين ـ وهم أولئك الذين يعملون مع قوات الاحتلال الذين اتضح فيما بعد أنهم من كبار رجال المخابرات الأمريكية ـ على أيدى المقاومة العراقية ، وقيام بعض العراقيين بسحل جثثهم فى الشوارع ؛ الأمر الذى نقلته عدسات التلفاز ، وأثار حفيظة الإدارة الأمريكية التى أصرت على معاقبة الذين قاموا بذلك والقبض عليهم ، وأعلن ذلك الرئيس بوش وأركان إدارته ؛ ومن هنا تحركت القوات الأمريكية وحاصرت مدينة الفلوجة وبدأت فى عملية القصف ، ولكن المدينة أظهرت صمودًا بطوليًا بكل المقاييس . ورغم أنها تكبدت خسائر فادحة تفوق ٧٠٠ شهيد ومئات الجرحى ، غالبيتهم من الشيوخ والنساء والأطفال ـ إلا أنها فى نفس الوقت كبدت القوات الأمريكية مئات القتلى والجرحى الذين لم تُعلن عنهم القيادة الأمريكية كالمعتاد ، والأهم من ذلك أنها لم تمكن القوات الأمريكية من دخول المدينة أو تحقيق أى من أهدافها ،

(١) أفادت قيادة القوات الأمريكية ـ كالمعتاد ـ أنها ضربت موقعًا تابعًا للزرقاوى ، وأتباع القاعدة نتيجة معلومات استخبارية وصلت إليها . . .

واضطرت هذه القوات فى ظل هذا الصمود إلى الدخول فى **«مفاوضات»** مع أهالى الفلوجة، الذين رفضوا دخول هذه القوات إلى مدينتهم، وتم الاتفاق بين الطرفين على **«هدنة»**، وتشكيل قوة أمنية بقيادة لواء سابق فى الجيش العراقى بمعاونة أهالى المدينة «لواء الفلوجة»، وقبلت الإدارة الأمريكية بذلك بعد أن كانت مصرة على استخدام القوة فى إخضاعهم، ولكنها بعد أن استعملت كل الأسلحة وفى حين لم تستسلم المدينة رضخت الإدارة الأمريكية؛ مما اعتبُر أول انتصار حقيقى لقوى المقاومة[١]؛ ومن ثم باتت الإدارة تحذر من انتشاره وانتقاله للمدن العراقية الأخرى.

والواقع أن الإدارة الأمريكية لم تحترم هذه الهدنة وقامت بقصف المدينة مرة أخرى فى التاسع عشر من يونيه ٢٠٠٤؛ مما أسفر عن تدمير أربعة منازل ومقتل ٢٢ فلوجيًا، وجرح العشرات ـ حينئذ[٢].

(ب) نموذج مقاومة مقتدى الصدر وأتباعه:

كما سبق القول فإن القيادة الشيعية الشابة لمقتدى الصدر؛ وإن لم تخرج فى البداية عن الموقف الشيعى العام المتحفظ والذى يفضل المقاومة السلبية والسلمية والذى سبق الإشارة إليه[٣] إلا أن مقتدى كان من أعلى الجهات صوتًا فى انتقاد قوات الاحتلال. وقد جاءت نقطة التفجر فى الأمر عند قيام إدارة الاحتلال بإغلاق جريدة «الحوزة» التابعة له بحجة تجاوزها للخطوط الحمراء فى الانتقادات.

وكان مقتدى قد شكل منظمة شبه عسكرية أطلق عليها **«جيش المهدى»**، وبسرعة تطورت الأحداث وانتقل مقتدى إلى النجف الأشرف، وأصرت قوات الاحتلال على ضرورة حل جيش المهدى[١]، وأصدرت مذكرة اعتقال لمقتدى الصدر؛ وذلك لمحاكمته بدعوى تدبيره لمقتل عبد المجيد الخوئى، واشتعلت

(1) Esther schrader, opcit, and see also:-

(2) Muqtada al-sadr, http://en.Wikipedia.Org

(3) Jaish - i- Mahdi, http://en.wikipedia.org

الحرب وقصفت الطائرات الأمريكية العتبات المقدسة لدى المسلمين الشيعة، وقاومت قوات جيش المهدى التابعة لمقتدى، ومرة أخرى دخلت الإدارة الأمريكية فى مفاوضات ـ عبر وسيط ـ وقدمت الإدارة مرة أخرى تنازلات للصدر، ولوحت له بمغانم سياسية فى التشكيلات القادمة. والذى يعنينا فى النموذجين للمقاومة أن الإدارة لم ترد التورط فى عمليات حروب مدن خشية أن يؤثر قتل عدد كبير من الجنود الأمريكيين على شعبية بوش فى الانتخابات، وبالتالى المخاطرة بعدم إعادة انتخابه(٢).

(ح) المقاومة الوطنية الإسلامية:

تشير التسمية إلى وجود نوع من التداخل بين الشعور **«الدينى» و«الوطنى»** فى هذا التنظيم للمقاومة العراقية؛ وثمة دراسة قدمت أدلة واقعية اختبارية إمبيريقية على ذلك؛ فإنه من بين العينة التى أُخضعت للدراسة هناك نسبة ١٣٪ «دوافع وطنية مصحوبة بعاطفة دينية»؛ توفر زخمًا أكبر، ويقينًا ثابتًا بأن المقاومة واجب وطنى وشرعى، وهناك نسبة ٢٪ ممن كانوا ضمن دائرة النظام السابق تشترك فى المقاومة تحت مشاعر الإحباط، وفقدان الدور. «وتصل الدراسة إلى نتيجة مفاداها أن المقاومة العراقية تتشكل هويتها من تيارين رئيسين هما: التيار

(١) عبد الإله الراوى، مرجع سابق، ص ١٢.

(٢) هناك قضية و إشكالية حقيقية إذ أن فصائل المعارضة العراقية التى كانت تعيش بالخارج ومن بينها (الحزب الإسلامى) والذى كان قيادته موجودة كغيرها بلندن و الذى يمثل جماعة الإخوان المسلمين رسميًا ـ تعاونت مع قوات الاحتلال الأمريكى ودخلت بالتالى مجلس الحكم الانتقالى، وكذلك الحكومة المؤقتة (والحزب الإسلامى العراقى سواء القسم الكردى منه أو القسم العربى السنى تحديداً هو الذى تقصده). . .

بينما إنحاز الجسد الأساسى للجماعة ـ من الأفراد والقيادات الوسطى الذين لم يخرجوا من العراق ـ للمقاومة وانخرطوا فى كافة تشكيلاتها العملية ويمثل هذا الموقف إشكالية إذ يعكس انقسامًا وتناقضًا فعليًا، ورغم أن الموقف الرسمى «المعلن» لقيادة الإخوان المسلمين العالمية ينحاز فى خطابه السياسى إلى جانب المقاومة، إلا أن الجماعة اعتبرت موقف قياداتها التى تعاونت مع المحتل «شأنًا داخليًا»، ولم تتخذ أى إجراء تنظيمى ضدهم بسبب انتهاكهم لثوابت الجماعة الأساسية ومبادئها المعلنة، وهو أمر اتخذته فى مواقف أخرى أقل أهمية واستراتيجية مما يعكس إشكالية داخلية حقيقية . .

الإسلامى الذى يمثل ٨٥٪ إذا ما أضفنا إليه المقاتلين العرب والمتطوعين المسلمين، و١٥٪ من التيار الوطنى المدفوع بعاطفة وطنية؛ وهذا يعنى أن الطابع العام للمقاومة العراقية هو أنها مقاومة إسلامية وطنية»[١].

وتعتمد حركة «المقاومة الإسلامية الوطنية» ـ والتى يمكن القول إنها تمثل الامتداد الحقيقى لجسد حركة الإخوان المسلمين[٢] ـ رموزًا إسلامية ووطنية من جميع المذاهب والقوميات كأسماء لكتائبها، ويبدو أن الحركة تبدى إعجابًا بحركة حماس الإسلامية فى فلسطين؛ حيث اعتمدت المنهجية نفسها فى بناء هيكلها، كما أن انتشارها الواسع فى محافظات الأنبار، ونينوى، وصلاح الدين، وديالى، وبغداد، وبابل؛ يؤكد أنها تجد قبولاً لدى التيار الإسلامى المعتدل الذى هو الطابع المميز لهذه المحافظات. وقد أعلنت الحركة عن تعريف بها باعتبارها تمثل الشق المقاوم من التيار الإسلامى الملتزم فى العراق، وتسعى لتحريره من الاحتلال العسكرى والسياسى الأجنبى؛ ليتمكن أبناء الشعب العراقى من حكم أنفسهم بأنفسهم، وبناء دولتهم على أساس المبادئ السامية للدين الحنيف. ويحدد هذا التعريف نشأة الحركة وتطورها، ودوافع تشكيلها وأسبابها، والهيكل التنظيمى للمقاومة سواء فى مكاتبه السياسية أو أجنحته العسكرية[٣].

ثانيًا: الاتجاهات القومية والوطنية العراقية:

* تشمل الأفراد والجماعات القومية والوطنية المقاومة، والذين يرفضون الوجود والاحتلال الأمريكى . . . وهذه الاتجاهات أقلَ من حيث «العدد»،

---

(١) تقرير، من هى المقاومة الإسلامية الوطنية (كتائب ثورة العشرين)، الأردن، جريدة السبيل.
http://www.assabeel.net

(٢) د. أكرم عبد الرزاق المشهدانى، الدور السياسى المؤمل لهيئة العلماء فى العراق. . ، لندن: جريدة القدس العربى، ١٠/ ٥/ ٢٠٠٤,
http://www.alquds.co.UK

(٣) مقابلة علمية مع الشيخ حارث الضارى ?رئيس هيئة العلماء المسلمين بالعراق، قطر: الجزيرة ٢٣/ ١/ ٢٠٠٤.

والكفاءة «النوعية» من الاتجاهات الإسلامية، وترتكن هذه المجموعات وتستند على روابط عائلية، وقبلية، وعشائرية توفر لهم المأوى والنجدة حال تخطيطهم، وقيامهم بعملياتهم العسكرية. . .

والدوافع التى تحركهم فى الغالب وطنية وقومية تتعلق بضرورة تحرير العراق، وفى هذا فإنهم ينتقدون الفشل الأمريكى فى الحفاظ على الأمن فى العراق، وانتهاك القوات والإدارة الأمريكية لحقوق الإنسان فى العراق.

ومن التنظيمات والقوى التى تندرج فى هذه الاتجاهات كما أسلفنا التالى:

١ ـ الناصريون:

٢ ـ الثوريون العراقيون ـ قوات جيش الأنبار

٣ ـ السكرتارية العامة لتحرير العراق الديمقراطى

٤ ـ منظمة الآفة السوداء

٥ ـ الجبهة الموحدة لتحرير العراق

٦ ـ الجبهة القومية لتحرير العراق

وغيرها من التنظيمات التى تنطلق من منطلقات وطنية وقومية غير دينية وعلمانية؛ وذلك لمقاومة الاحتلال فى العراق . . .

ثالثًا: الموالون لنظام صدام حسين ومؤيدوه

وهى مجموعات من أضعف المكونات فى المقاومة العراقية؛ وهى تزداد ضعفًا مع مرور الوقت ـ خاصة بعد إلقاء القبض على صدام نفسه وإعدامه وغالبية أركان نظامه ـ وهم مجموعات من الأفراد سواء كانوا ينتمون إلى الجيش، والشرطة، وحزب البعث ـ وهؤلاء كما أسلفنا فإنهم فى ظل المطاردة والحصار لم يكن أمامهم سوى الاستمرار فى المقاومة، ومن أهم الجماعات التى ذكرناها

فيما سبق وهى مجرد أسماء ولا تمثل حقيقة الكيانات التى كانت موجوده فى ظل نظام صدام وانهارت مع الاحتلال التالى : ـ . . . .

١ ـ القيادة العامة للقوات المسلحة .

٢ ـ المقاومة والتحرير فى العراق .

٣ ـ الجبهة الوطنية .

٤ ـ العودة : الجهاز السياسى والإعلامى لحزب البعث .

٥ ـ حركة رأس الأفعى .

وهذه المجموعات مع تطور المقاومة العراقية تراجعت ، وبدأت تتلاشى ؛ وكذلك بدأ الحديث عنها يتلاشى فى الإطار الإعلامى وحتى الدعائى . . .

هذه باختصار أهم القوى المشاركة فعليًا فى المقاومة العراقية المسلحة ـ غير أن هناك قوى أخرى تحتفظ بمسافة عن هذه المقاومة ولكنها تنتج خطابًا دعويا وسياسيا يؤيد المقاومة وسوف نركز على نموذج هو «هيئة العلماء المسلمين» .

• هيئة العلماء المسلمين :

بعد سقوط بغداد ، وفى بدايات احتلال العراق حدثت درجة عالية من الفوضى ، والنهب ، والسلب فى الشارع العراقى ، الأمر الذى عكس حالة من **«الانفلات الأمنى»** ، ترافقت مع غياب شبه عام لأى شكل من أشكال السلطة التى تضبط الأوضاع باستثناء **«قوات الاحتلال»** العسكرية والتى بطبعها غير مؤهلة لمواجهة مثل هذه الظروف ، وفى هذا الإطار تداعى علماء الدين من خلال المساجد ليأخذوا دورهم **«المُغيب سابقًا»** فى الشارع العراقى من أجل ضبط الأمن فى الأحياء السكنية ، وإرجاع المسروقات والمنهوبات ، والحفاظ على الحرمات . . . إلخ ؛ وذلك من خلال تجنيد الشباب المتطوعين بمختلف المناطق فى تنظيم الدوريات المسلحة والحراسات الليلية ؛ لحماية الدور والشوارع والمتاجر ؛ الأمر الذى عزز من الموقع الاعتبارى لعلماء الدين كقوة ضبط اجتماعى فاعلة

ومؤثرة فى المجتمع العراقى، حظيت بتأييد الرأى العام وتقديره كبديل أمين ومقتدر للسلطات المحلية الغائبة.

فى هذا السياق من تطور الأحداث وتتابعها يمكن أن نفهم نشأة هيئة العلماء المسلمين فى العراق، إضافة إلى بُعد آخر بالغ الأهمية له تأثير فى هذه النشأة؛ وهو يتعلق بتلك القوى والأحزاب العراقية؛ سواء تلك التى جاءت مع المحتل أو تعاونت معه فى الهيئات المختلفة، والتى أدارت العراق على أساس المحاصصة الطائفية؛ الأمر الذى يمكن أن يفضى مع مرور الوقت إلى تفتيت الوحدة الوطنية؛ وتزكية المذهبية، وخاصة عندما حاول البعض إقامة مرجعية دينية لأهل السُّنة «مجلس شورى أهل السُّنة» فى موازاة المرجعية الشيعية، وسرعان ما اختفت؛ ومن هنا كانت نشأة هيئة العلماء المسلمين لتقوم على جمع كلمة العراقيين المسلمين من العرب، والكرد، والتركمان (شيعة وسُنَّة) مع احترام حقوق الأقليات الأخرى؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لكى تقوم بدور فاعل وحقيقى فى دعم ومساندة المقاومة العراقية، وكلا الدورين فى العراق يحتاج إلى بعض التفصيل . .

الدور الأول لهيئة العلماء فى العراق **«تجميعى وتوحيدى»** لكل أطياف الشعب العراقى وتكويناته؛ فقد أقامت علاقات وثيقة مع رموز الشيعة، بل إن عدداً من رموز الشيعة كانوا من مؤسسيها، ووكيلها هو آية الله الخالصى؛ وهو من تيار مشهود له تاريخيًا بوطنيته، وقد كان والده من قادة ثورة العشرين فى مواجهة الاحتلال الإنجليزى، كما أن الهيئة لم تُطلق على نفسها هيئة علماء السُّنة رغم أنها أصبحت كذلك بالفعل فى موازاة مرجعيات الشيعة دون تناحر أو تنافس، كما يتجلى فى تكوينها أيضًا كونها تضم علماء سنة، وشيعة، وكرد، وتركمان؛ وهو ما لا تحظى به أى مجموعة أخرى فى العراق، كما أنها أيضًا تمثل البعد القبلى والعشائرى؛ إذ إن رئيس الهيئة الشيخ حارث الضارى هو ـ بدوره إضافة

(١) مثنى الضارى، مرجع سابق، ص ص ٥٧ ـ ٥٨ .

لكونه عالمًا درس بالأزهر الشريف بمصر ـ قائد قبلى كبير لقبيلة لعبت أيضًا دورًا تاريخيًا مشهودًا فى مقاومة الاحتلال الإنجليزى للعراق.

الدور الثانى: لهيئة العلماء فى العراق هو **«الدفاع كطرف»** مقبول عن حقوق الشعب العراقى فى مواجهة ممارسات قوات الاحتلال؛ وقد ظهر ذلك فى عدة مواقف نختار منها نموذجين فقط:

(أ) التفاوض باسم أهل الفلوجة مع قوات الاحتلال للوصول إلى الهدنة، ووقف إطلاق النار بين المجاهدين وقوات الاحتلال؛ وهو الأمر الذى مثَّل انتصارًا سياسيًا حقيقيًا للمقاومة فى إجبارها الإدارة الأمريكية ـ والتى لها حساباتها الانتخابية كما أسلفنا ـ وكان بمثابة اعتراف من الرأى العام المقاوم داخل الفلوجة بقيادة هيئة العلماء.

(ب) التدخل لإطلاق سراح الرهائن الأجانب الأسرى لدى جماعات وتنظيمات عديدة من المقاومة العراقية، واستجابة هذه الجهات لأدوار ومساعى الهيئة، بل وتسليم بعض الرهائن الذين اطلق سراحهم لمقرات الهيئة؛ وهو الأمر الذى عزز من مكانتها ومصداقيتها لدى الكثير من الأطراف؛ سواء فى الداخل العراقى باعتبارها الصوت الأقرب والأوثق صلة، والأصدق لدى قوى المقاومة العراقية أو فى الخارج؛ إذ سعت جهات عديدة لتوثيق علاقاتها معها للاستفادة من وزنها التأثيرى، خاصة تلك الدول التى لها رهائن محتجزون لدى جماعات وقوى المقاومة . . .

وهناك العديد من الأدوار فى هذا الإطار غير أننا نكتفى بهذين النموذجين كدليل على ما تقوم به الهيئة فى هذا الصدد.

الدور الثالث: ـ لهيئة العلماء المسلمين فى العراق وهو «دور متوقع "Expecta-tion Role"، ويتسم بطبيعة **«سياسية» و«تمثيلية»**، والواقع أن الهيئة ما زالت **«حذرة»** فى هذا الصدد؛ فهى تمانع أن تكون الناطق المعبر عن قوى المقاومة العراقية ـ لأسباب مفهومة ومقبولة ـ وإن كانت تدعم شرعية المقاومة من الناحية

الفقهية والسياسية، وتقف بصراحة ووضوح فى مواجهة الاحتلال والهيئات المتعاونة معه، كما أنها ترفض القول بأن لها دوراً سياسيًا مباشراً؛ إلا أن واقع الممارسة والظروف المحيطة بالأوضاع فى العراق يشير إلى أن الهيئة يمكن أن تحظى بالقيام بدور سياسى واضح ومقبول من كافة الأطراف فى الساحة العراقية لعدة اعتبارات منها:

١ ـ وضوح موقف الهيئة من معارضة الاحتلال والدعوة لمقاومته؛ مما عزز مكانتها لدى الرأى العام العراقى، وجعلها موضع ثقة كافة قوى المقاومة.

٢ ـ رفضت الهيئة الاعتراف بشرعية كافة الأشكال التى أقامها الاحتلال عبر المتعاونين معه من العراقيين؛ مثل: **«مجلس الحكم الانتقالى»، و«الحكومة الانتقالية»**. ورغم أن الهيئة كانت ـ ومازالت ـ على علاقة طيبة بالحزب الإسلامى العراقى والحزب الإسلامى الكردستانى؛ إلا أنها عبرت بصراحة عن عدم رضاها عن دخول الحزبين فى مجلس الحكم المعين أمريكيًا، وكذلك الحكومة الانتقالية المؤقتة بالرغم من تقدير الهيئة لماضى الحزبين.

٣ ـ الموقف الصريح للهيئة من المقاومة، ورفضها مطلقًا أن تسمى أعمال المقاومة بالإرهاب، ورفضت تشويه المقاومة بكونها مقاومة غير عراقية؛ بل أصرت على أنها مقاومة عراقية وطنية مجاهدة، وأثبتت الأيام مصداقية موقف الهيئة، كما أن المتحدثين باسم الهيئة كانوا يسمون المقاومين بأنهم: **«أبناؤنا المقاومون»**، ورفضوا أن يسموا عملية التفاوض بشأن الفلوجة بأنها «وساطة»، وقالوا: **«نحن لا نتوسط بين أهلنا وبين المحتل»**.

٤ ـ أكدت الهيئة على أن المقاومة حق مشروع وواجب على العراقيين جميعًا.

٥ ـ لم تمارس الهيئة فى عملها المنطق الدعائى؛ بل مارست العمل الهادئ المنتظم، وتحدثت بصوت واحد؛ مما كرس من مصداقيتها وحسن تنظيمها، وقد عززت الهيئة من حقيقة شعبية؛ هى وجوب الاستماع إلى «صوت الأغلبية الصامتة» فى البيئة العراقية بكل ما تحويه . . .

٦ ـ وقفت الهيئة ضد المنطق الطائفى ـ والذى حاولت تشجيعه قوات الاحتلال ـ فقد رفضت نظام المحاصصة الطائفية الذى قامت على أساسه معظم التشكيلات والمؤسسات؛ بداية من مجلس الحكم الانتقالى، ونهاية بالحكومة المؤقتة. ورغم أن الهيئة تعلم أن وصف (السُّنة) فى العراق بـ **«الأقلية»** وصف غير صحيح؛ لأن نسبتهم لا تقل عن ٦٠٪، إلا أن الهيئة بقيت تعتبر الحديث عن **«أغلبية» و«أقلية»** بين **«مسلمى العراق»** هى من ألاعيب المستعمر وقوات الاحتلال لبثِّ الفرقة بين أبناء العراق، وكان الشيخ حارث الضارى ـ فى أكثر من تصريح صحَفى ـ قد اعتبر الحديث عن «غالبية شيعية بالعراق» أنها: «دعاية ادعوها... وسكتنا عن مجاراتها لأسباب وطنية» وقال: **«بدلاً من الحديث عن أغلبية شيعية أو سنية ينبغى علينا الحديث عن أغلبية إسلامية ساحقة فى العراق؛ حيث المسلمون يشكلون ٩٧٪ من سكان العراق»**، وفى ذلك تأكيد على عروبة وإسلامية العراق.

٧ ـ حذرت الهيئة بصراحة من تغلغل النفوذ الصهيونى فى العراق تحت ستار الهيئات الإنسانية، وصفقات عقود ما يسمى «إعادة إعمار العراق»، كما دعت الهيئة إلى مقاطعة البضائع الأمريكية والبريطانية؛ لأن ترويجها يساعد القوات المحتلة للعراق..

٨ ـ تربط الهيئة بين الاحتلال الصهيونى لفلسطين، والاحتلال الأمريكى للعراق، وترى أن تفاعل العراقيين مع القضية الفلسطينية كان من ضمن الأسباب الأساسية التى دفعت اللوبى الصهيونى واليمين الجديد فى الإدارة الأمريكية الحالية لشن الحرب على العراق، والسعى لتحجيمه وتحطيم قواه كسياسة ثابتة ومستمرة...

٩ ـ تلتقى الهيئة مع دعوة المرجع الشيعى الأعلى آية الله على السيستانى فى وجوب إقامة مجلس نيابى حر ومنتخب، ولكنها ترى أن أوان إقامة مثل هذا المجلس يكون بعد رحيل الاحتلال وليس تحت سيطرته، كما ترفض الهيئة تسييس الوزارات، وتطالب أن يديرها تكنوقراط من ذوى السمعة الحسنة...

١٠ ـ تؤكد الهيئة على عروبة العراق وكونه جزءًا من الأمة العربية والإسلامية؛ وفى هذا الصدد تحفظت على القانون الأساس أو الدستور الانتقالى، كما وقفت ضد محاولات تهميش الشريعة الإسلامية فى هذا الصدد.

ـ ورغم أن الهيئة مازالت تؤكد أنها ليست **«بديلاً سياسيًا»**، وليست مشروع سلطة بديلة؛ إلا أنه ـ نتيجة لكل ما أسلفنا من دلائل ومبررات ـ فإن الهيئة يمكنها أن تمارس دورًا سياسيًا يكون موضع ثقة وتقدير، وأن تكون الوعاء المعتبر والموثوق لحماية المقاومة العراقية، ولسانًا ناطقًا بالحق العراقى...

وقد أكدت التطورات اللاحقة أن هيئة العلماء بدأت تنخرط فى الممارسة السياسية من باب دعم المقاومة؛ ففى ظل الحكومة المؤقتة رفضت الهيئة دعوة للمشاركة فى المؤتمر الوطنى العام الذى عقد فى شهر يولية ٢٠٠٤، انطلاقًا من موقفها الرافض لإضفاء المشروعية على أى هيئات تتشكل فى ظل الاحتلال، كما أنها انتقدت القرار الذى أصدره رئيس الوزراء بتسليمه الملف الأمنى، ورغبته فى فرض حالة الطوارئ والتصدى لما وصفه بـ **«الإرهاب»**؛ وهو ـ كما أسلفنا ـ المسمى الذى تطلقه قوات الاحتلال والمتعاونين معها على «المقاومة المسلحة»...

يدفع هذا الاستعراض لرؤية مواقف هيئة العلماء المسلمين إلى وضع القضية فى إطارها الأشمل والأوسع؛ وهو أهداف المقاومة العراقية واستراتيجياتها؛ وهو الأمر الذى نتناوله فى النقطة القادمة...

* * *

المبحث الرابع

أهداف المقاومة العراقية واستراتيجياتها

يكاد يوجد شبه إجماع بين كافة قوى وجماعات «المقاومة العراقية» على أن أهدافها الأساسية تتمحور حول «تحرير العراق»، وتحقيق استقلاله الفعلى من الاحتلال، وإجبار قوى الاحتلال على الرحيل؛ وهذا أمر بدهى ومنطقى فى آن معًا[1].

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه بهذا الصدد: هل يوجد لدى بعض قوى المقاومة وجماعاتها وتنظيماتها أهدافًا أبعد من «التحرير» تكمن خلف عملية تحقيق «الاستقلال» للعراق؟ وهل تكشف بيانات قوى المقاومة عن شىء محدد بهذا الصدد؟ وكيف ذلك؟ وما هى استراتيجية قوى وجماعات المقاومة العراقية لتحقيق هذا الأمر؟؟

وما هى الملاحظات التى يمكن أخذها على قوى وجماعات المقاومة العراقية بصدد أهدافها واستراتيجياتها؟؟

الإجابة عن هذه الأسئلة يمكن أن تحدد لنا بعض جوانب أهداف المقاومة العراقية، واستراتيجياتها، وجوانب النقص والقصور فيها، وذلك على النحو التالى:

(١) مثنى الضارى، مرجع سابق، ص ٨٦ .

● **ماهية أهداف المقاومة العراقية واستراتيجياتها:ـ**

* إذا كانت قوات «الاحتلال» دخلت العراق رافعة شعار «تحريره»، وبناء **«نموذج ديمقراطى»** للحكم فيه؛ وذلك فى إطار مشروع على قدر من التكامل يتضمن إعادة تشكيل دول المنطقة الشرق أوسطية على ذات المنوال؛ وهى دعوة قديمة متجددة كشف عنها الخطاب السياسى للإدارة الأمريكية الحالية[١]، فإن تساؤلاً على نفس المستوى نحاول الإجابة عنه بهذا الصدد. فكما أسلفنا فإن ثمة اتفاقًا بين قوى المقاومة العراقية على تحرير العراق، وتحقيق استقلاله . . ولكن وراء هذا الهدف العملى هل تكشف بيانات قوى المقاومة العراقية وطبيعة عملياتها العسكرية عن إدراك محدد بهذا الأمر؟ أم تقتصر على أهداف **«الاستقلال»** و**«التحرير»** المجرد كحركات وطنية؟؟

يرى البعض من المحللين أن هناك **«هدفًا»** متفقًا عليه بين كل هذه الجماعات المسلحة يمكن أن نصفه بالحد المشترك الأدنى بينها؛ وهو تحرير العراق من الاحتلال الأمريكى/ البريطانى»[٢].

فعلى سبيل المثال فإن بيان الجبهة الشعبية لتحرير العراق يعلن: **«تعلن الجبهة عن مسئوليتها القانونية الكاملة عن كل العمليات العسكرية الموجَّهة ضد الاحتلال . . . وهدفها هو رحيل هذه القوات، وترك الشعب العراقى ليقرر مصيره»**[٣].

وفى ميثاق المقاومة الإسلامية الوطنية هناك تأكيد على ذلك: «المقاومة الإسلامية الوطنية حركة جهادية وطنية تسعى إلى تحرير العراق من الاحتلال العسكرى والسياسى الأجنبى ليتمكن أبناء الشعب العراقى من حكم أنفسهم»[٤].

ويكاد يكون هذا الهدف متكرراً فى كل بيانات القوى والجماعات المقاومة العراقية. وترى الكثير من الكتابات ـ خاصة الغربية والأمريكية ـ أن ذلك الأمر

---

(١) جريدة الأسوار ـ العراق ـ ٢٠٠٣/٨/١٠ .

(٢) جريدة السبيل ـ الأردن ـ ٢٠٠٤/٢/٩ .

(٣) Ahmed S. Hashim, opcit,

(٤) مثنى الضارى، مرجع سابق، ص ٨٩ .

قضية محورية فهى تصف المقاومة بأنها تمتلك مجموعة من الأهداف يمكن وصفها بأنها «سلبية» - Negative - ولا توجد أهداف «إيجابية ـ "goal(s)" -No- positive what they want? تحدد ما يتعين إيجاده، ولا توجد لها «رؤية» للمستقبل . .

فقوى المقاومة ـ وفق هذه الدراسات ـ متعددة، وليس لها خلفية أيديولوجية متوافقة أو مشتركة "Are not ideological fellow-travelers"، وأهدافها السلبية هى «إعاقة السلام»، وتعطيل إعادة الإعمار والبناء، ومنع العراقيين من العمل مع سلطات الاحتلال، وتشجيع قوات الاحتلال الأمريكية على القيام بشن الغارات الانتقامية الفائقة ومقاومة حرب العصابات؛ الأمر الذى يوقع الفوضى فى حياة العراقيين العاديين، وهو يتضمن قتل المدنيين، ورفع تكلفة وثمن الاحتلال والوجود الأمريكى فى العراق إلى الأمر والحد الذى قد يدفع الإدارة الأمريكية فى واشنطن إلى التفكير فى الانسحاب، والتساؤل حول محددات وضمانات وجودها فى العراق، وأن هذه القوى تدرك أنها لا تستطيع أن تقف ندًا للقوات الأمريكية أو أن تتصدى لمقاتلتها مباشرة ـ كما كان الأمر كذلك من قبل بالنسبة لحزب البعث، وترى الكتابات أن هذه القوى تقوم بتسليح نفسها لمهاجمة القوات الأمريكية، والهيئات والأجهزة العراقية التابعة لها، والعاملة فى إطار سيطرتها وهيمنتها(١) .

وإذا ما تفحصنا ما تذكره هذه الكتابات وتعده أهدافًا للمقاومة العراقية، نجدها فى الحقيقة مجموعة من الآليات والأدوات التى يمكن أن تصب ـ وفق قوى المقاومة ـ فى هدفها النهائى الذى أسلفنا الحديث عنه؛ وهو **«تحرير العراق»**. والأدوات ـ يمكن رؤيتها من قبل هذه الكتابات ـ كأهداف سلبية وغير إيجابية؛ ولكن وفق إدراك قوى المقاومة العراقية هى خطوات لازمة ترى أنها تؤدى إلى تحقيق أهدافها النهائية . . .

ولكن هل ينقص المقاومة العراقية وجود «رؤية "Vision" تتعلق بالمستقبل أيًا كان مستواها ودرجتها . . ؟؟ البعض يرى ذلك ويعده نقصًا حقيقيًا؛ غير أن البعض الآخر يرى أنه فى حالات «الاحتلال» يكون الهدف الأساس الذى يلتف

(١) المرجع السابق، ص ص ٨٩ ـ ٩٠ .

حوله الجميع هو المقاومة، ومحاولة تحقيق الاستقلال دون الالتفات إلى ما وراء ذلك من أهداف، ويعد ذلك أمراً منطقياً. ويذكر فى هذا الصدد **«أن هناك وعياً من بعض الجماعات المنخرطة فى المقاومة بطبيعة الظرف العام الذى تعيشه وتمارس نشاطها فيه؛ فيقتصر قسم لا بأس به منها على هدف التحرير»**(١).

ورغم أن ذلك يكاد يكون هو الموقف العام لقوى المقاومة العراقية الذى يركز على «الهدف المشترك»؛ غير أن البعض لا يغفل ذلك فى وثائقه الأساسية؛ فعلى سبيل المثال:

(أ) ميثاق المقاومة الإسلامية الوطنية يذكر صراحة السعى من قبل هذه المجموعة لبناء دولة عراقية على أساس «المبادئ السامية للدين الإسلامى الحنيف القائم على تطبيق العدالة، وعدم التمييز على أساس اللون، أو العرْق أو الدين أو المذهب»، وطريق تحقيق ذلك ـ كما ترى ـ أن **« يكون العراق دَولة مستقلة ـ متحررة وأن يلعب دوراً فاعلاً فى محيطه العربى والإسلامى والدولى»**(٢).

(ب) يذكر البيان الأول للقيادة العامة للجيش الوطنى لتحرير العراق ـ بعد التأكيد على **«مقاومة الاحتلال وتحرير كامل التراب العراقى»** أن من أهدافه **«العمل على إقامة عراق حرّ ديمقراطى موحَّد بعيد عن الطائفية والعنصرية والمذهبية، ويكون فيه الإسلام الدين الرسمى للدَّولة، مع احترام جميع الأديان السماوية والمعتقدات الأخرى»**(٣).

وهناك بعض القوى والجماعات المقاومة لا ترى ما سبق الإشارة له؛ على سبيل المثال قيادة «جيش أنصار السنُّة» ترى أن: **«الغاية لا تنتهى بمجرد طرح المحتل والإثخان فيه، وإنما إقامة دين الله، وفرض شريعة الإسلام لتحكم هذه الأرض الإسلامية»**(٤).

---

(١) نص البيان الموزع فى بغداد ٢/ ٧/ ٢٠٠٣ وتضمنته دراسة د. سلمان الجميلى، مرجع سابق.
(٢) مجلة أنصار السنة، عمان، يوليه ٢٠٠٣ .
(٣) سلمان الجميلى، مرجع سابق، ص ٩٢ .
(٤) المرجع السابق، ص ٩٣

ورغم أن بعض هذه القوى المقاومة (مثل المقاومة الإسلامية الوطنية) قدمت ملامح «مشروع سياسى» من خلال ميثاقها المعلن، ورغم تبنيها خط المقاومة المسلحة؛ إلا أنها لا تنكر على الآخرين العمل السياسى، ولكن بشرط أن: **«لا يقاطع أو يعارض أو يلغى ثوابتها الإسلامية والوطنية»**، إلا أننا بوجه عام نستطيع القول إن قوى المقاومة العراقية تعانى نقصًا، وعدم تبلور للرؤية بصدد خمسة أبعاد أساسية يمكن تلخيصها فيما يلى[1]:

(١) عدم تبلور الرؤية الكلية للمقاومة وخاصة إدراك الأبعاد المتكاملة للمشروع الأمريكى فى المنطقة وموقع العراق فى اطاره:

* من خلال تحليل البيانات الصادرة عن قوى المقاومة العراقية المسلحة يمكن أن نلاحظ «مؤشرات» تدل على نوعية من **«الإدراك»** لأبعاد المشروع الأمريكى فى المنطقة؛ فنجد مثلاً الربط بين ما يحدث فى **«العراق»**، وما يحدث فى **«فلسطين»** فى بعضها، وكذلك بعض الإشارات إلى ما حدث فى «أفغانستان» وإلى الأهداف **«الحقيقية»** للهيمنة على المنطقة من خلال العراق، غير أنه لا يمكن القول بوجود «رؤية» متكاملة لأبعاد هذا المشروع لديها.

(٢) عدم تقديم قيادات ميدانية وسياسية معلنة تتبنى خط المقاومة المسلحة وتدافع عنه: إشكالية العلاقة بين العسكرى والسياسى

رغم ما تحققه المقاومة المسلحة العراقية من نجاحات، والدعم الشعبى الذى تلقاه من قبل قطاعات الرأى العام المختلفة، ورغم تداول أسماء الكثير من القيادات العسكرية، والرموز التى قامت بعمليات ضد قوات الاحتلال.. فإن المقاومة لم تقدم ـ قيادات ميدانية فى العراق أو خارجه تتبنى بشكل علنى منهج المقاومة ـ وليس بالضرورة العمليات العسكرية التى تقوم بها ـ على النحو الذى يمكن مقارنته مثلاً بحالة حركة المقاومة الإسلامية (حماس) والجهاد الإسلامى، أو كتائب الأقصى فى فلسطين، أو بحالة مقاومة حزب الله فى جنوب لبنان..

(١) تقرير، المقاومة العراقية تستعيد المبادرة وتتجاوز المثلث السنى، جريدة العرب اليوم، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٣.

ويعود ذلك بشكل أساس إلى **«أسباب أمنية تتعلق بالإفراط فى استخدام القوة، والرد العنيف من قبل قوات الاحتلال لكل من يشتبه أن له علاقة مع المقاومة، ولعل آلاف المعتقلين، وهدم البيوت، واعتقال نساء المقاومين والتعذيب الوحشى؛ كل ذلك يحد من إمكانية إعلان قادة المقاومة عن أنفسهم»**[1] .

(٣) عدم بلورة برنامج سياسى محدد ومعلن للمقاومة العراقية

رغم وضوح وعلانية الهدف النهائى للمقاومة والمتمثل فى طرد الاحتلال وتحقيق استقلال العراق، إلا أنه يلاحظ افتقار المقاومة العراقية المسلحة إلى برنامج سياسى محدد الملامح والخطوات؛ سواء لمرحلة الاحتلال أو لمرحلة ما بعد الاحتلال. غير أن هذا القول يجب تقييده بالقول بأن العديد من القوى والتنظيمات المنخرطة فى عملية المقاومة قدمت ما يشبه البرنامج السياسى؛ فمثلاً المقاومة الإسلامية الوطنية نشرت **«ميثاقًا»** لها كحركة مقاومة، يمكن أن نلتمس فيه الملامح الأولية والأساسية لبرنامج سياسى، ولكن الأمر يحتاج إلى المزيد من الإنضاج، وخاصة على مستوى الآليات والأساليب. ويرجع البعض ذلك إلى سببين رئيسين هما: **«السرعة فى تشكيل المقاومة، وعدم وجود تنسيق بين المجموعات المكونة لها، ووجود أطياف متعددة داخل المقاومة العراقية؛ الأمر الذى يجعل من الصعب اختزالها بمشهد واحد»**[2]، ونضيف لذلك أن طبيعة

---

(١) راجع حول ذلك:

- إياد الديلمى، (تقرير)، المقاومة العراقية تنعش سوق السلاح: إقبال كبير على شراء وتوزيع الأسلحة فى العراق مع تصاعد عمليات المقاومة ضد الاحتلال.

www.middle-east-online.com.27-4-2004

وكذلك تعدت التأثيرات خارج العراق ووصلت إلى فلسطين المحتلة راجع: -

- (تقرير)، ارتفاع أسهم شركات الحراسة الإسرائيلية بعد تصاعد المقاومة العراقية.

http://www.alburaq.net/news/show.cfm?Vol=5359)

(٢) راجع حول ذلك: -

- تقرير، الأعداء يعترفون بانتصار المقاومة العراقية

http://www.elmawkefalarabi.com/shownews.asp10-05-2004

- ياسر سعد، شكر المقاومة العراقية . . . واجب على الجميع،

http://www.kitabat.com/r20017.htm

العمل المقاوم اليومية قد تعوق فى كثير من الأحيان عن بلورة مثل هذا البرنامج؛ وهو أمر يمكن أن تتولاه القوى الداعمة للمقاومة . . .

(٤) الجدل بصدد مشروعية بعض عمليات وأهداف المقاومة العراقية

هناك اختلاف حقيقى داخل الساحة العراقية بصدد مبدأ المقاومة المسلحة فى حد ذاته من ناحية، ومن ناحية أخرى إزاء بعض العمليات التى تقوم بها ,خاصة تلك التى توجه إلى المدنيين العراقيين، أو بعض المؤسسات الدولية . . .

فبالنسبة لمبدأ المقاومة المسلحة هناك أولاً القوى المرتبطة بالاحتلال والتى جاءت معه وتحالفت فى إطار مجلس الحكم الانتقالى والحكومة المؤقتة، وهى ترفض المبدأ وتراه نوعًا من الإرهاب الذى ينبغى القضاء عليه، وهناك ثانيًا القوى التى ترى أن الأفضل فى هذه المرحلة هو اللجوء إلى **«المقاومة السياسية»** لتحقيق أكبر قدر من المطالب، واختبار مدى مصداقية الإدارة الأمريكية، وتحدد هذه القوى ما بين سنة وسنتين لذلك، وترى أنه فى حالة عدم جدوى هذه المقاومة؛ فإنها يمكن أن تغير من موقفها، وهناك ثالثًا القوى التى تؤيد المقاومة المسلحة وتراها السبيل الأوحد لتحقيق الاستقلال، ولكل طرف من هذا الأطراف أدلته وحججه، ولسنا فى معرض تفصيلها إذ موضعها دراسة مستقلة.

(٥) الجدل بصدد مدى قومية المقاومة العراقية: إشكالية مدى انتشارها الفكرى، والمذهبى، والجغرافى فى البلاد

كما أسلفنا فى بداية هذه الدراسة؛ فإن ثمة جدلاً أُثير بصدد هوية المقاومة ما بين **«المحلية** "Locality" **و«الوطنية أو القومية** "Nationality"، وقلنا إن المقاومة العراقية فى البداية ـ ولأسباب ذكرناها فى حينها ـ تركزت فى المناطق السُّنية العراقية مثل محافظات: نينوى، وصلاح الدين، وديالى، والأنبار، وبغداد وبعض المناطق المحيطة بها؛ وهو ما سبق أن أطلقنا عليه **«المثلث السُّنى»**، وكان هذا التركيز فى غير مصلحة المقاومة؛ إذ إنه يسهل من عملية محاصرتها؛ نظراً

لطبيعة هذه المناطق الجغرافية واتساعها، بحيث يكون الاتصال بينها أمراً صعباً[1].

غير أن هذا الأمر مع مرور الوقت لحقه التغيير، وبدخول تيار مقتدى الصدر ـ ولو جزئيًا ـ فى مضمار المقاومة المسلحة أضحت المقاومة تشمل كل أنحاء العراق، وبدأت تتحقق لها الصفة القومية، غير أن للمسألة بعداً آخر لا يقل أهمية؛ وهو الانتشار الفكرى والمذهبى. ففى البداية ?كما ذكرنا سلفًا ـ ظلت المقاومة محصورة فى العرب السُّنة، وبدا واضحًا أن التوجه الشيعى العام ?والمرجعية تحديداً ـ لم يكن يحبذ هذا النوع من المقاومة، وتم التعويل على **«المقاومة السياسية»**، ولكن كان هناك دائمًا نوع من التلويح بأن هذا النوع إذا لم يفلح؛ فإن المسألة سوف تتحول إلى الأسلوب العنيف، وهذا ما تحقق بالفعل ـ كما أشرنا ـ حين دخل التيار الصدرى إلى ساحة المقاومة المسلحة، وما تزال الأحداث تتداعى.

كما نشطت أيضًا **«أنصار الإسلام»** فى الشمال الذى تقطنه أغلبية كردية؛ وبهذا بدا وكأن تيار المقاومة المسلحة يشهد نمواً متزايداً، وانتشاراً فى كافة طبقات الشعب العراقى بكافة مدارسه الفكرية والمذهبية.

وهكذا يمكن القول إن المقاومة العراقية المسلحة وإن كانت قد حددت أهدافها أيًا كان توصيف هذه الأهداف، وبالذات فى مرحلة احتلال العراق، وسعت نحو صياغة هذه الأهداف فى مجموعة من الاستراتيجيات المحددة، والآليات، والديناميات المعنية؛ فإن هذه الأخيرة ـ بالذات ديناميات المقاومة ـ هى التى تشهد تطورات متلاحقة فى عمليات المقاومة بحيث تستخدم العديد من الآليات والتكتيكات التى سوف نفصلها فى المبحث القادم..

* * *

(١) تقرير، المقاومة العراقية تكبد القوات الأمريكية ثمانية قتلى وتقتل ٢٨ عراقيًا أثر هجمات فى محيط بغداد، جريدة الرياض، العدد ١٣٠٩٢، ٢٥ أبريل ٢٠٠٤.

المبحث الخامس

ديناميات المقاومة، وتطور عملياتها، وتكتيكاتها

تقوم جماعات المقاومة العراقية المسلحة من أجل تحقيق أهدافها ـ التى سبق الإشارة إليها ـ بتطوير عملياتها باستمرار عبر اختيار تكتيكات معينة، والتى تدخل فى فنون العمليات العسكرية[١]؛ ومن الأمثلة على ذلك فى بدايات عمليات المقاومة العسكرية والتى تطورت مع مرور الوقت:

١ ـ عمليات الاغتيال والاقتناص المتفرقة

وهى أولى التقنيات التى استخدمتها المقاومة العراقية فى مهاجمة قوات الاحتلال فى الأيام الأولى له فى العراق، وتقوم على أساس الكمون لجنود الاحتلال واصطيادهم بإطلاق الرصاص أو القذائف عليهم، وهى من أيسر التقنيات وأكثرها شيوعًا حتى الوقت الراهن، وتضمن حصيلة قتلى شبه يومية؛ الأمر الذى يشكل استنزافًا مستمرًا لجنود الاحتلال وقواته[٢].

٢ ـ القنابل المزروعة على جوانب الطرق

وهو تلغيم جوانب الطرق التى تمر عليها قوات الاحتلال بحيث تنفجر عند

---

(١) تقرير، المقاومة العراقية: تفاصيل قتل الـ ١٧ قناصًا من المارينز فى الفلوجة ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٤,

(٢) تقرير، خلال ٤٨ ساعة، المقاومة العراقية تسقط مروحيتين أمريكيتين.

http://www.Akhbaralyoumsd.com 10-05-2004.

مرورها، الأمر الذى يوقع الخسائر فى الآليات والعتاد العسكرى بالإضافة إلى الجنود والقوى البشرية أيضًا[١].

٣ ـ الضربات الموجَّهة فى فرص معينة

وقد برعت فيها بعض فصائل المقاومة؛ وهى تقوم بجمع معلومات استخبارية عن أهداف محددة؛ ومن ثم تنتهز الفرصة السانحة لتحرُّك هذه الأهداف وتقوم بتوجيه ضربات إليها، وثمة أدلة على وجود عدد من العمليات من هذا النوع تم تنفيذه بدرجة عالية من الاحتراف[٢].

٤ ـ نصب الكمائن للعربات الخفيفة وأرتال القوافل العسكرية

تقوم عملية «نصب الكمائن» على توجيه ضربات مصممة جيدًا ومربكة فى آن معًا، كأن يتم ضرب رتل عسكرى فى أوله وآخره؛ مما يجعل قدر الخسائر كبيرًا جدًا.

٥ ـ إسقاط الطائرات والمروحيات الأمريكية :

من خلال توجيه قذائف مدفعية لهذه الأهداف المتحركة، وكانت المقاومة قد أسقطت ـ خاصة فى بداياتها ـ أعدادًا كبيرة من الطائرات الأمريكية من حاملات الجنود أو العتاد أو من غير طيار[٣].

٦ ـ تهديد وقتل العراقيين المتعاونين مع سلطات الاحتلال

وقد اتجهت هذه العمليات إلى هدفين: **أولهما ـ** رموز العراقيين سواء فى مجلس الحكم الانتقالى أو الوزارة أو المستويات العليا من المؤسسات، المتعاونين مع قوات الاحتلال، **وثانيهما ـ** العراقيون العاديون العاملون فى المؤسسات التى

---

(١) تقرير، قيادة المقاومة العراقية تدعو القوات الأمريكية للإنسحاب نهائيًا من الفلوجة، ٢ ـ ٥ ـ ٢٠٠٤ .
http://www.alburaq.net/news/showcfm7Val=54245
- Robert Fisk in fallujah, Iraq on the brink of anarchy independent.co.uk.

(٢) تقرير ,البنتاجون يعترف بأسر المقاومة العراقية أحد الجنود الأمريكيين.17/4/2004 ,
http://news.Masrawy.com/masrawynews

(٣) تقرير، الحصاد الأسبوعى للمقاومة العراقية، ٩/ ٨/ ,٢٠٠٣
http://www.Souriana.com/modules.News/print

تقيمها قوات الاحتلال، أو الذين يؤدون خدمات محددة لها. ومن المعلوم أن ظاهرة الاحتلال فى أى بلد عادة ما يصحبها مولد **ظاهرة العملاء**.

٧ـ تخريب البُنية الأساسية والحساسة

وقد اتجهت بعض هذه العمليات تحديداً إلى قطاع النفط، وقامت منذ الأيام الأولى للمقاومة بعمليات قصف وتخريب لمصافى النفط وأنابيب نقله بغية حرمان الاحتلال وأتباعه ـ وفق رأيها ـ من الاستفادة بها.

هذه الهجمات المنظمة تقوم على منطق **«إلحاق الأذى»** بقوات الاحتلال الأمريكى والمتحالفين معها بسرعة ثم **«الهرب والاختفاء»**؛ حيث إن المسألة ليست مواجهة عسكرية مباشرة بين طرفين متكافئين فى القوة. وقد حدث فى المقاومة نوع من التطور مع مرور الوقت فى تكتيكاتها المختلفة؛ بحيث اتسعت نطاقًا وازداد الاهتمام بالرغبة فى تحقيق مكاسب سياسية على الأرض من خلال عمليات نوعية محددة وموجَّهة، ومن هذه التكتيكات:

٨ ـ الدخول فى مواجهات عسكرية محدودة مع قوات الاحتلال (حروب المدن) كما أسلفنا فى مدينة «الفلوجة»، وفى «النجف الأشرف» مع أتباع مقتدى الصدر:

مثلت هذه العمليات أول مواجهات عسكرية مباشرة مع قوات الاحتلال؛ وكما أسلفنا فإن ما حدث فى الفلوجة تحديداً كان أمراً ذا دلالة؛ إذ كانت أول مواجهة حقيقية مع قوات الاحتلال، استطاعت فيها إرادة المقاومة العراقية أن تسجل انتصاراً، وأن تخضع الإدارة الأمريكية لشروطها ومطالبها، وتكرر الأمر نفسه تقريبًا مع أحداث مدينة النجف حين تم التصدى لقوات الاحتلال من قبل أتباع مقتدى الصدر، وحين تم التوصل إلى هدنة واتفاق على ما أسلفنا[١].

(١) مستقبل المقاومة العراقية ١ / ٢

http://www.Islammemo.cc/taqrer

٩ ـ اختطاف الرهائن ـ من مختلف الجنسيات ـ والمطالبة بثمن سياسى محدد فى مقابل الإفراج عنهم، أو قتلهم. . .

تقوم هذه الآلية على أن جماعة أو قوة معينة من قوى المقاومة تلجأ إلى اختطاف بعض الرهائن سواء من أفراد قوات الاحتلال (أسرى)، أو من المتعاونين معها (رهائن) كوسيلة ضغط سياسية على الدول التى ينتمون إليها؛ إذ تقدم مطالب معينة عادة ما تكون سحب قواتها من العراق، أو إصدار بيانات معينة حول الأوضاع فيه. وقد شملت عمليات احتجاز الرهائن عدداً كبيراً من البلاد التى لها تواجد بالعراق[1]، وأدت إلى قيام الكثير من الدول بسحب رعاياها من العراق؛ مما جعل مهمة الإدارة والحكومة شبه مستحيلة، وفى بعض الأحيان لجأت الدول ـ عبر وسيط مثل **«هيئة العلماء المسلمين»** ـ إلى التفاوض مع قوى المقاومة العراقية؛ مما يعنى نوعًا من الاعتراف الواقعى بها، غير أن بعض جماعات المقاومة وتنظيماتها تورطت فى عمليات اختطاف واحتجاز رهائن تفتقر إلى الحس السياسى من ناحية المطلب التى قدمتها ومدى ارتباطها بالقضية المركزية «الاحتلال والتحرير» كما حدث مثلا مع اختطاف «الصحفيين الفرنسيين»، وبعض العاملات الإيطاليات.

١٠ ـ مهاجمة معسكرات ومراكز تجمع قوات الاحتلال فى أوقات محددة لإلحاق أكبر قدر من الأضرار، وعدم إشعارها بأى نوع من الاستقرار. . .

هذا التكتيك غالبًا ما يحدث بناء على معلومات استخبارية حول تحركات قوات الاحتلال؛ حيث تعمد قوى المقاومة إلى قصف معسكراتها، ومراكز تجمعها لتحقيق أكبر قدر ممكن من الخسائر وإشعارها بعدم الأمان والاستقرار. وقد سجلت الفترة الماضية العديد من الهجمات على هذا المنوال بما فيها «المنطقة الخضراء» مقر هذه القوات، بالإضافة إلى الإدارة العراقية (الحكومة)، من خلال قصف مدفعى أو صاروخى، وغالبًا لا يتم الإعلان عن ماهية وحجم الخسائر التى تقع بهذا الصدد.

---

(١) سلمان الجميلى، مرجع سابق، ص ٩٠، وراجع أيضا: مثنى الضارى، مرجع سابق، ص ٨٨ .

والذى نلاحظه بصدد آليات المقاومة العراقية المسلحة وتكتيكاتها المختلفة عدة أمور بالإضافة إلى تطورها مع الوقت: أنها أخذت تنحو إلى الاتساع، كما أنها اتجهت نحو العنف والضراوة البالغة التى قادت حتى فى بعض الأحيان إلى انتهاك بعض الاعتبارات الإنسانية العامة، إضافة إلى أن جماعات وقوى المقاومة العراقية المسلحة بدأت توظف عملياتها بشكل مباشر للحصول على مكاسب سياسية على الأرض لصالح أهدافها الأساسية التى أسلفنا الحديث عنها . .

وأيًا ما كان الأمر، فإن مستقبل قوى المقاومة العراقية المسلحة سوف تحدده، بالإضافة إلى استراتيجيتها وتكتيكاتها المختلفة، وتأييد قوى الرأى العام العراقى لها، وموقف الطرف الآخر فى المعادلة (وهو قوات الاحتلال الأمريكى والقوى المتحالفة معها) بالإضافة إلى ذلك بعض الاعتبارات الإقليمية والدولية. والآن ما هى السيناريوهات الأساسية المتصورة لمستقبل المقاومة العراقية المسلحة؟

* * *

المبحث السادس

السيناريوهات المستقبلية للمقاومة العراقية

يمكن تصور عدة سيناريوهات لمآلات الأوضاع بالنسبة لمستقبل قضية المقاومة العراقية ـ ودون دخول فى تفاصيل كثيرة من الشروط الابتدائية لعمل هذه السيناريوهات أولها مدى تطور أوضاع المقاومة العراقية وتصاعد عملياتها نوعيًا وكميًا، وثانيها موقف الادارة الأمريكية من تدهور الأوضاع فى العراق خاصة فى ظل انتخابات الرئاسة الأمريكية ونتائجها المتوقعة، وثالثها: مواقف ومدى مقدرة الحكومة المؤقتة على السيطرة على الأوضاع الأمنية وامكانية إجراء الاتنخابات المقبلة فى هذا الاطار، ورابعها: مدى تجاوب الدول المجاورة للعراق والأطراف الإقليمية المهمة مع ما يجرى داخل العراق، وأيًا ما كان الأمر فإننا يمكن أن نتصور السيناريوهات الأربعة على النحو التالى: ـ

*** السيناريو الأول: تدهور الأوضاع الأمنية على نحو خطير الأمر الذى يدفع قوات الاحتلال للبقاء فى العراق:**

فى إطار هذا السيناريو من المتوقع أن يشتد تدهور الأوضاع الأمنية فى العراق بدرجة خطيرة؛ الأمر الذى يجعل من أى محاولة لنقل «السيادة»، أو إجراء الانتخابات لنقل «السلطة» إلى العراقيين أمرًا مستحيلاً من الناحية العملية، كما أنه يمكن تصور حدوث نوع من «الحرب الأهلية» أو تصوير الأمور على هذا

النحو مما يجعل من وجود قوات الاحتلال الأمريكى وبالتالى فإن استمرار احتلال العراق «واقعيًا» سيكون مطروحًا.

وفى هذا الصدد، فإن من المتصور أن المقاومة العراقية المسلحة سوف تتسع عملياتها؛ إذ تكتسب مقولاتها الأساسية حول الاحتلال مصداقية، كما أن الأطراف التى كانت تراهن على الاحتلال سوف تفقد الأمل تدريجيًا فى الأمن وإصلاح الأوضاع وربما تنضم لقوى وجماعات المقاومة، كما أن قطاعات متزايدة سوف تزداد قناعاتها بصوابية منطق المقاومة العسكرية كوسيلة أساسية ـ وربما وحيدة فى ظل هذه الأوضاع ـ الأمر الذى يمكن أن يدفع هذه المقاومة إلى إعادة تنظيم صفوفها وتلافى النقائص التى أشرنا إليها سابقًا؛ مما يجعل منها الفاعل السياسى الأساس فى الساحة العراقية التى يمكن أن تكتسب دعمًا إقليميًا ودوليًا فى مواجهة قوات الاحتلال؛ ومن ثم يتحول العراق إلى «مستنقع» يستنفد قوات الاحتلال، ويدشن بدرجات متوالية فشلاً للمشروع الأمريكى فى العراق ثم فى المنطقة.

*** السيناريو الثانى: تدهور الأوضاع الأمنية على نحو خطير الأمر الذى يدفع قوات الاحتلال للانسحاب من العراق دون ترتيب معين:**

فى إطار هذا السيناريو من المتوقع أيضًا أن يشتد تدهور الأوضاع الأمنية فى العراق، وأن توجه إلى قوات الاحتلال «ضربات نوعية» توقع خسائر غير متوقعة فى صفوفها؛ الأمر الذى يدفع قوى الرأى العام الأمريكى إلى التحول الجذرى ضد إدارة بوش ـ وخاصة فى إطار الانتخابات الأمريكية القادمة ـ خاصة فى حالة إذا ما ترافق ذلك مع نجاح تنظيم القاعدة فى نقل المعركة ـ بصدد موضوع العراق ـ داخل الساحة الأمريكية من خلال ضرب أهداف محددة داخل أمريكا، خلال الفترة السابقة على الانتخابات على النحو الذى حدث قبيل الانتخابات الإسبانية. وفى هذه الحالة فإن تكرار ما حدث فى الصومال، أو بيروت قد يكون متصوراً؛ وتنسحب قوات الاحتلال من العراق الأمر الذى سيترك الحالة العراقية مفتوحة على كل الاحتمالات، كما يذهب البعض إلى ما فيها إمكانيات التقسيم والحرب الأهلية . . . إلخ.

*** السيناريو الثالث: انسحاب قوات الاحتلال وتسليم السلطة إلى حكومة متعاونة معهم..**

فى إطار هذا السيناريو وتحت ضغوط متنوعة يمكن أن تنسحب قوات الاحتلال من العراق، وتقوم بتحويل العلاقة من «احتلال» إلى علاقة «تحالف»؛ وذلك مع حكومة تقوم بالتركيز على الملف الأمنى عبر اتفاقية أمنية وتجعل المهمة الأساسية القضاء على المقاومة العراقية العسكرية؛ الأمر الذى يضع المقاومة أمام عدة اختيارات منها:

(أ) إذا ظلت المقاومة ـ على وضعها الحالى ـ ولم تتسع وتشتد بدرجة كبيرة؛ فإن احتمالات التلاعب الإقليمى، والدولى ببعض أطرافها تكون واردة؛ ومن ثم يمكن أن تنتشر الفوضى جراء التقاتل الداخلى؛ الأمر الذى سيكون له تأثير سلبى على العراقيين ككل . . .

(ب) تحول قطاع من المقاومة إلى العمل السياسى ـ واستثمار رصيدها المقاوم فى تحقيق بعض مطالبها؛ الأمر الذى يؤهلها للعب دور سياسى مستقبلى.

(ج) تبلور التيار المقاوم فى تنظيم أشد عنفًا يكون توجهه الأول ضد الحكومة المتعاونة **«صنيعة الاحتلال»**، والتى سوف تعتبره عدوها الأول وسيتحول الصراع على هذا النحو . . .

*** السيناريو الرابع: تسليم السيادة مع البقاء فى قواعد عسكرية وعبر اتفاقيات أمنية مع حكومة عراقية انتقالية متعاونة**

يبدو أن هذا هو السيناريو الأكثر احتمالية؛ إذ تقوم قوات الاحتلال بتسليم السيادة إلى حكومة عراقية متعاونة معه، وتسعى هذه الحكومة إلى إعادة تكوين مؤسسات الدولة المختلفة ومحاولة عقد انتخابات . . إلخ، ولكن المهم فى هذا الصدد أن هذه الحكومة ستقوم بعقد اتفاقيات أو حتى تحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية عسكريًا وأمنيًا؛ وبمقتضى ذلك تنتقل القوات الأمريكية إلى مراكز معينة داخل العراق تعيد انتشارها فيه؛ الأمر الذى سيجعل أمام المقاومة العراقية مسلكين :

١ ـ استمرارية عمليات المقاومة العسكرية ضد هذا الشكل الجديد للاحتلال عبر عمليات عسكرية نوعية سوف تتوقف على طبيعة التسليح المتوافر لديها، وهنا يمكن أن تتحول العمليات إلى «رمزية» تستهدف تحقيق مكاسب سياسية محددة.

٢ ـ تفرض طبيعة الأوضاع تحول المقاومة إلى رقم سياسى فى الساحة العراقية؛ الأمر الذى يدفع قوات الاحتلال إلى فتح حوار معها ـ وذلك عبر وسائط أو أطراف داخلية أو إقليمية لتحقيق بعض المطالب مقابل تهدئة الأوضاع، مما يدفع قطاعات من المقاومة إلى تحقيق بعض المكاسب التى تقوم على أساس موازين القوة على الأرض . .

والذى نخرج به فى أن المقاومة العراقية كما كان مولدها مصاحبًا للاحتلال وأحد أهم تجلياته؛ فإن مستقبل الاحتلال مرهون باستمرارها، وتصاعدها، وكيفية استثمارها للفرص السياسية للتخلص من الاحتلال، وكل احتلال ـ كما تدل الخبرة التاريخية ـ إلى زوال، وكل مقاومة واقعًا إلى دولة واستقلال . . .

* * *

المشروع الإمبراطورى الأمريكى
واستراتيجية مقاومته فى المنطقة

• يتناول هذا الكتاب المشروع الأمريكى للهيمنة على المنطقة العربية والإسلامية، باعتباره وريثا وامتدادًا للمشروع الاستعمارى القديم وتجديدًا له، وقد يرى أو يستنتج البعض أبدية مشروع الهيمنة الأمريكى وكأنه قدر لا فكاك منه، أو أنه حتمية تاريخية دائمة، أو أنه نهاية التاريخ كما بشر البعض الآخر ..

إن مشروع الهيمنة الأمريكى، ومن قبله المشروع الاستعمارى الغربى، ليس سوى لحظات فى سياق التطور الاقتصادى السياسى للإمبراطوريات والحضارات الإنسانية لا ينبغى تعميمها على المستقبل كله، فذلك نوع من المصادرة المرفوضة علميا، فهى لم تكن حقيقة فى الماضى، وبرغم كل ما يشهده العالم من تطورات وتراجعات فإنها لن تكون كذلك فى المستقبل بالتأكيد..

• لقد رأينا ما تنبأ به علميا أستاذنا الراحل الدكتور حامد ربيع - رحمه الله - من انهيار الماركسية، وزوال نماذجها التطبيقية، وتداعيها كبيوت العنكبوت الواهنة، وإن كان هو قد مضى إلى ربه ولم يشهد ذلك، وفى تكرار لا يخلو من دلالة ذات مغزى يتطابق الأمر مع ما خطه قلم الشهيد سيد قطب - رحمه الله - فى كتابه القيم « المستقبل لهذا الدين » من قبل ذلك بأربعة عقود وإن كان بلغة أخرى هى لغة القيم والإيمان، فهل نشهد نفس الأمر يتكرر بالنسبة للمشروع الأمريكى المهيمن ومشروعاته المتعددة فى منطقتنا ؟؟....

• إن السؤال المشروع علميا وبحثيا بالنسبة لنا ولغيرنا هو : استكشاف فرص بقاء أو زوال أو تحول عالم القطبية الأحادية الأمريكية المهيمنة، والإمبراطورية صاحبة الإستراتيجية الكونية ؟

• لقد ذكرنا فى هذا الكتاب أنه يلزم لكى تكون الدولة قطبًا عالميًا مهيمنا ذات منطق ونزوع إمبراطورى ضرورة توافر مقومات أساسية من قبيل : « قاعدة اقتصادية راسخة ودائمة النمو »، و «نظام سياسى مستقر ومفتوح للتطور »، وكتلة سكانية كبيرة ذات مستوى فنى مرتفع، ودرجة عالية من التقدم التكنولوجى، وكذلك إستراتيجية عسكرية كونية قادرة على ممارسة الصراعات الكونية، سواء كان ذلك بالأسلحة التقليدية أو بالأسلحة النووية، بالطبع هناك درجات من التفاوت فى هذه المقومات والقدرات المختلفة بين الإمبراطوريات على مر التاريخ، ويعنى ما تقدم أن الولايات المتحدة - لكى تحافظ على وضعها المهيمن بوصفها القوة الأوحد عالميا - عليها أن تحتفظ بمعادلة القوة السابقة بل وتواصل تنميتها ، وتحاول منع المنافسين المحتملين من الوصول إلى المستوى نفسه حتى لا يزاحموها إلى أبعد مدى زمنى ممكن، وهكذا ندخل إلى قلب الإستراتيجيات الأمريكية للمحافظة على هذا الوضع المهيمن .

• ليس هناك ما يبرر علميا فرضية تمكن الولايات المتحدة إلى ما لا نهاية، بل وربما حتى لعدة عقود قادمة من الاحتفاظ بمشروعها المهيمن على المستوى الكونى، بل إن استقراء الوضع الراهن على الصعيد الأمريكى والعالمى يعنى الكثير بالنسبة لمشروع الهيمنة المتكامل، فقد بدأت النذر تترى من داخل بنية المشروع ذاته، ولعل البدايات تتمثل فى تلك الأزمة الاقتصادية الحقيقية التى بدأت فى الاتساع والامتداد لكى تشمل معظم أبعاد نمط الحياة فى إطار هذا المشروع المهيمن ....

.. وبالتأكيد سيأتى اليوم الذى تلحق فيه الإمبراطورية الأمريكية، ومشروعها المهيمن على منطقتنا، بما سبقها من إمبراطوريات بائدة، إذ سرعان ما يعمل قانون التداول وسنن التدافع عبر منطق صعود الحضارات والإمبراطوريات وهبوطها، وانهيارها .

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١٤٠]